مكتبة ياسمين

إدويج دانتيكا

كلير نور البحر

رواية

ترجمة : إيمان حرز الله

أثر

مكتبة ياسمين

كلير نور البحر

ما إن يتخذ والدها قراراً مؤلماً بإرسالها بعيداً للحصول على فرصة حياة أفضل، حتى تختفي كلير نور البحر فجأة. وأثناء بحث سكان المجتمع الهايتي عنها في قرية فيل روز، تُكشف أسرار مؤلمة وذكريات مؤثرة وحقائق مذهلة. تنسج إدويج دانتيكا ضمن حبكة مذهلة محكمة ببراعة، رواية مدهشة تدور حول حيوات متشابكة، وتستكشف من خلالها الروابط الغامضة التي نتشاركها مع العالم الطبيعي ومع بعضنا البعض.

"تطاردها الأشباح والحزن، ويرفعها السحر والحب. . . . ترسم دانتيكا كل من شخصياتها وبلدتها بتفاصيل حية ولغة غنائية. . . . "كلير نور البحر" مضاءة بتوهجها الذي لا ينطفئ."

تمبا باي- تايمز

بصوت ضُبط إيقاعه على لحن الحزن، بهدوء لا يعتذر ولا يؤجج، تفرض دانتيكا الخيار الرهيب الذي واجهه الكثيرون في هايتي: إما إبقاء الطفلة في فقر مدقع أو إعطائها لشخص ذو إمكانيات أفضل... مزيج، مُخطط له، من الغموض والنقد الاجتماعي."

ميامي هيرالد

t.me/yasmeenbook

ISBN 978-603-91686-0-7

تصميم الغلاف :
أحمد الصباغ

أثر

t.me/yasmeenbook

كلير نور البحر

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إدويج دانتيكا

ترجمة: إيمان حرزالله

مكتبة ياسمين

كلير نور البحر

إدويج دانتيكا

ترجمة: إيمان حرزالله

الطبعة الأولى: 1443 / 2022

ردمك: 978-603-91686-0-7

رقم الإيداع: 996 / 1443

CLAIRE OF THE SEA LIGHT: © Edwige Danticat 2013
All rights reserved

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

t.me/yasmeenbook

إلى أمّي، روز، وابنتيّ ميرا وليلى.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

أخبرني أيها الشفق الرائع العزيز

حين يتلفّح التل بأوشحته القرمزية

أتُحقق الأحلام أمنيتك السرية؟

أتخرج الصلوات من بين شفتيك كالنوى من الثمار الطيبة؟

أخبرني، أحين تميل الجبال في الليل، تغدو الظلال العملاقة لخيال أَرَقّ، برشاقة انحناء العشب، أزهارًا؟

أخبرني أيضًا، هل سيحرك نسيم الليل تلك الأزهار نحوي...؟

جين تومر[1]**، أخبرني**

(1) جين تومر (1894-1967) شاعر وروائي أمريكي من أصل أفريقي من أهم أعماله كتاب بعنوان كين cane عن «نهضة هارلم» صدر عام 1923. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الجزء الأول

مكتبة ياسين

t.me/yasmeenbook

كلير نور البحر

يوم أكملت كلير لايميه لانميه فوستين عامها السابع، شُوهدت موجة مخيفة، بارتفاع ما بين عشرة إلى اثني عشر قدمًا، في المحيط أمام قرية فيل روز. كان والد كلير، نوزياس الصياد، بين كثير ممن رأوا الموجة من بعيد وهو في طريقه إلى قاربه. سمع في البدء دمدمة خفيضة، كدويّ رعد بعيد، ثم رأى جدارًا مائيًا يرتفع من أعماق المحيط، لسانًا عملاقًا أزرق مخضرًّا، يحاول، فيما يبدو، أن يلعق السماء الوردية.

تكسّرت الموجة سريعًا مثلما ارتفعت، انهارت بجذعها على قارب اسمه «فيفين»، فأغرقته وصاحبه، كالِب، الصياد الوحيد على سطحه.

ركض نوزياس إلى الماء وخاض فيه حتى وصل إلى ركبتيه. فُقِد الآن صديق صالح ظل لسنوات يُحيّيه كلما التقيا وهما في طريقهما إلى البحر قبيل طلوع الصبح.

يقف الآن حول نوزياس نحو عشرات الصيادين. نظر نوزياس إلى كوخ كالب على الشاطئ، حيث زوجة كالب، فيفين - جوزفين - ربما عادت إلى نومها الآن بعد أن ودّعت زوجها. يعرف نوزياس من خبرته، ويشعر بيقين داخله، أن كالب وقاربه لن يعودا. قد يُعيدهما المدّ خلال يوم أو اثنين، لكن الأرجح أنهما لن يعودا أبدًا.

كان صباح يوم سبت قائظ في الأسبوع الأول من مايو. استغرق نوزياس في النوم أكثر مما اعتاد، ظل يفكر في القرار الذي عرف دائمًا أنه سيضطر إلى

مكتبة ياسمين

اتخاذه يومًا ما: لمن سيترك ابنته كلير في النهاية ؟.

«لو كنتُ بكّرت قليلًا لكنت مكانه الآن،» ركض عائدًا إلى بيته ليخبر ابنته الصغيرة وهو يبكي.

كانت كلير ما زالت نائمة في فراش صغير في كوخِهما المكون من غرفة واحدة. قميص نومها الخفيف مبلل بالعرق. أحاطت عنق نوزياس بذراعيها الطويلين بلون الكراميل، وضغطت بأنفها خده كعادتها منذ كانت أصغر. منذ سنوات مضت كان نوزياس قد أخبرها بما حدث يوم ميلادها، توفيت والدتها في أثناء ولادتها. وبذلك صار يوم ميلادها يوم وفاة أيضًا، والموجة المخيفة والصياد الذي أغرقته يُثبتان أنه سيظل كذلك إلى الأبد.

***

يوم أن أكملت كلير لايميه لانميه فوستين عامها السادس، كان أيضًا يوم الاحتفال بتولّي صاحب دار الجنازات في قرية فيل روز، ألبرت فينسنت، منصب العمدة الجديد. وقد ظل محتفظًا بمنصبيه، ما نجم عنه بالطبع جميع أنواع النكات حول تحويله القرية بأكملها إلى مقابر ليزيد من زبائنه. ألبرت نفسه رجل أنيق على نحو لا مثيل له، حتى مع يديه المرتعشتين. يرتدي يوميًا بذلة بيج من قطعتين، مثلما كان يرتدي يوم تنصيبه. لم تكن عيناه، كما يقول الناس، بلون اللافندر دائمًا كما هما الآن. تعود غيمة الحزن الرائعة فيهما إلى الشمس والمياه البيضاء المبكرة. في الاحتفال بتوليه منصب العمدة، ألقى ألبرت فنسنت خطبة من الذاكرة حول تاريخ البلدة. كان يقف أعلى سُلّم مجلس البلدة، سلم أبيض باهت من القرن التاسع عشر يشرف على ساحة تملؤها عواميد الإنارة حيث يقف المئات من أبناء البلدة متلاصقين في شمس الظهيرة.

t.me/yasmeenbook

عدد سكان بلدة فيل روز حوالي أحد عشر ألف نسمة، خمسة في المئة منهم ميسورو الحال أو أصحاب ثروات. والباقي فقراء، فقر مدقع حقًا. كثير منهم عاطلون عن العمل، وبعضهم مزارعون أو صيادون (أو كلاهما)، أو عمال موسميون في زراعة قصب السكر. تقع على بعد عشرين ميلًا جنوب العاصمة، بين امتداد أشدّ مساحة مائية من البحر الكاريبي صعوبة في التنبؤ بطقسها، وسلسلة جبال هاييتية متآكلة. يتخذ محيطها الجغرافي شكل الزهرة، تبدو من أعلى الجبال كبتلات زهرة استوائية عملاقة متفتحة، ساقها هو الطريق الرئيس الذي يربطها بالبحر، ويدعى «جادة بياد روز»، أو جادة ساق الزهرة، بأزقته وتفرعاته الكثيرة التي يدعونها «إيبينيس» أو الأشواك.

كان الاحتفال بتولي ألبرت فنسنت منصب العمدة في مجلس البلدة - مبيض الزهرة - في الجهة المقابلة لكاتدرائية القديسة روز دي ليما، بعد أن أعيد طلاؤه بلون بنفسجي أغمق، احتفالًا بالتنصيب. ألقى ألبرت فنسنت خطابه وهو يغطي رعشة يديه بقبعة فيدورا سوداء لم يرها على رأسه سوى القليلين. خلف الحشد أمامه، حطّت كلير كالطير على كتفي نوزياس في ثوب عيد ميلادها الحريريّ الورديّ، ضفائر شعرها مُزينة بمشابك مقوسة ضئيلة. عند نقطة ما لاحظت كلير أنها وأباها يقفان بجوار امرأة مليئة ذات وجه ملائكي مؤطر بشعر مستعار طويل ومفرود. ترتدي بلوزة سوداء وبنطالًا أسود، وتعلق زهرة كركديه بيضاء خلف أذنها. إنها صاحبة محل الأقمشة الوحيد في فيل روز.

صاح ألبرت فينسنت في الحشد: «شكرا لكم لثقتكم بي». وصل الخطاب إلى نهايته أخيرًا بعد نصف ساعة من بدئه.

غطّى نوزياس فمه بيده وهو يهمس بشيء في أذن بائعة الأقمشة. كان واضحًا لكلير أن أباها لم يأتِ ليسمع العمدة حقًا، بل ليرى بائعة الأقمشة.

مكتبة ياسمين

في وقت مبكر من مساء اليوم نفسه، ظهرت صاحبة محل الأقمشة في الكوخ القريب من نهاية جادة بايد روز. كان من المفترض إرسال كلير إلى أحد الجيران فيما تبقى المرأة وحدها مع الأب. لكنه أصرّ على أن تصفّف كلير شعرها بالفرشاة القديمة الخشنة وتسوي التجعيدات في طيات ثوبها الذي ظلت ترتديه طوال اليوم رغم الحر والشمس.

وقفت بائعة الأقمشة بين فراشي نوزياس وكلير في منتصف الكوخ، وطلبت من كلير أن تدور بالقرب من ضوء مصباح الكيروسين القابع في موضعه المعتاد على الطاولة الصغيرة التي يتناول عليها الأب والابنة وجباتهما أحيانًا. جدران الكوخ مغطاة بورق جريدة البلدة، لا روزيت، مصفر ومتقشّر، لصقته أمها على خشب الكوخ منذ وقت طويل مضى. راقبت كلير ظلّها يتحرك مع ظلال أخرى على كلماته المبهمة. سمعتْ وهي تدور أباها يقول: «أنا مع تربية الأطفال لكنني لست مع ضربهم بالسوط». نظر للأسفل إلى كلير وسكتَ قليلًا. تكسّر صوته ونغز بأحد إبهاميه راحة يده الأخرى وأضاف: «أحب أن أُبقيها نظيفة، كما ترين. ويجب أن تواصل تعليمها بالطبع، وأن يراها الطبيب حين تمرض بأسرع ما يمكن». نغز بإبهامه الآخر راحة يده الأخرى وهو يضيف: «في المقابل ستساعد في التنظيف في البيت والمحل». حينها فقط أدركتْ كلير عن مَن يتحدث أبوها، وأنه يحاول التخلي عنها.

تجمدت ساقاها فجأة وتوقفت عن الدوران، فاستدارت بائعة الأقمشة إلى الأب فورًا، شعرها المستعار يغطي نصف وجهها. هبطت عينا نوزياس من شعرها المستعار إلى صندلها المفتوح الباهظ الثمن وأظافر أصابع قدميها الحمراء.

«ليس الليلة»، قالتْ بائعة الأقمشة وهي تتوجه نحو عتبة الباب الضيقة.

t.me/yasmeenbook

بدا نوزياس مشدوهًا، أخذ نفسًا عميقًا وأطلقه ببطء قبل أن يتبعها إلى الباب. ظنّا أنهما يهمسان، لكنّ كلير سمعتهما بوضوح عبر الغرفة.

قال نوزياس: «أريد أن أرحل من هنا، لأبحث عن حياة جديدة أفضل».

«أوومم». زامت صاحبة محل الأقمشة بنبرة تحذير، مثل كلمة مستحيلة، كلمة يتعذر عليها النطق بها. ثم سألته: «لماذا تريد أن تكون ابنتك خادمتي، خادمة؟»

قال نوزياس: «أنا أعرف أنها لن تكون كذلك معكِ أبدًا، وقد يحدث في جميع الأحوال مع أناس أقل عطفًا منكِ لو مُتّ. لم يعد لديّ أقارب آخرين هنا في البلدة».

أنهى استجوابها له بمزحة عن تنصيب متعهد الدفن عمدة وعن كم الخطب الفارغة التي سيضطر إلى تحمّلها إن ظل في فيل روز جعلتْ ضحكًا مجلجلًا يبدو كأنه يخرج من أنفها. الأمر الجيد، بالنسبة لكلير، أن والدها لم يكن يحاول التخلص منها بشكل يومي. بل كان أغلب الوقت يتصرف كأنها باقية معه إلى الأبد. خلال الأسبوع تذهب كلير إلى مدرسة آردين، بمنحة من ناظر المدرسة نفسه مسيو آردين. وفي الليل، تجلس بجوار مصباح الكيروسين إلى الطاولة الصغيرة في منتصف الكوخ تردد الكلمات الجديدة التي تتعلمها. كان نوزياس يستمتع بنغمتها الغنائية واجتهادها في الدراسة ويفتقدهما في أثناء العطلة الدراسية. يذهب هو إلى البحر قبيل مطلع الفجر ويعود دائمًا بوجبة من حبوب الذرة أو البيض، يحتفظ بجزء منها لإفطاره في الصباح التالي. يتحدث أحيانًا عن الذهاب للعمل في البناء أو الصيد في جمهورية الدومينيكان المجاورة، لكنه دائمًا ما يجعل الأمر يبدو كشيء ما قد يفعلانه معًا، وليس أمرًا لن يمكنه فعله سوى بالتخلص منها. لكنه كلما جاء يوم ميلادها، يعود ليبدأ الكرّة مجددًا: البحث عن حياة أفضل... الهجرة

مكتبة ياسمين

من أجل حياة أفضل.

لابيش، الصيد [بالكريولية الهايتية]، لم يعد مُجديًا كما كان من قبل، تسمعه كلير يردد هذا كلما تحدث مع أي شخص يستمع إليه. لم يعد كما كان في الأيام الخوالي، حين كان يرمي هو وأصحابه الشبكة في البحر لمدة ساعة أو نحو هذا، ثم يسحبونها مليئة بأسماك كبيرة سمينة. عليهم الآن ترك الشباك لنصف نهار أو أكثر، ليسحبوها بأسماك صغيرة للغاية كانوا من قبل يُعيدونها إلى البحر. لكن الآن، تصرَّف بما لديك، حتى وإن كنت تعرف في دخيلتك أنه خطأ، كأن تحتفظ بصغار المحار أو تلك المليئة ببيض السلطعون، ليس لديك خيار آخر. لم يعد بالإمكان تحمّل الصيد أثناء الموسم فقط، لترك البحر يستعيد ما نقص منه ذاتيًا. عليك الخروج للصيد كل يوم تقريبًا، حتى في أيام الجمعة، وحتى وإن لم يكن قاع البحر واضحًا، وأعشاب البحر، التي اعتادت الأسماك التغذية عليها، يواريها الوحل والقمامة.

لكنه لم يتحدث عن الصيد مع بائعة الأقمشة تلك الليلة. تحدثا عن كلير. عن أقاربه، وأقارب زوجته المتوفّاة، الذين يعيشون في قرية في الجبال المحيطة حيث وُلِد، تحدث عن إنهم أفقر منه. لو مات، سيأخذون كلير بالطبع، وسيكون ذلك لعدم وجود حل آخر، لأن هذا ما تفعله العائلات. لأن علينا أن نعتني ببعضنا البعض. لكنه حريص في هذا الشأن، كما قال. لا يريد أن يترك أمرًا بهذه الأهمية، مثل مستقبل ابنته، دون ترتيب.

بعد أن غادرتْ المرأة، ظهرت أعلى التلال شرارات ملونة أنارت سماء الليل أعلى البيوت القريبة من الفنار على تل الأنثيري، سُداة الزهرة. تتحول التلال خلف الفنار إلى جبل ضخم أخضر، لم يُكتشف أغلبه لأن نباتات السرخس هناك لا تحمل فاكهة، والخشب لرطوبته الشديدة لا يصلح لصنع الفحم ولا للبناء. يُدعى هذا الجبل «مون إنتيل» (الجبل الذي لا فائدة منه)،

t.me/yasmeenbook

لأنهم لا يجنون منه شيئًا، ويُعتقد أيضًا أنه مسكون بالأشباح.

أنارت الألعاب النارية قمم السرخس التي تشبه الفطر على مون إنتيل، والبيوت ذات الطابقين والبوابات على تل الأثيري. كما أنارت الأكواخ الخشبية بأسقفها الصفيح على شاطئ البحر.

هرعت كلير ووالدها ليشاهدا فرقعة الأضواء في السماء. ازدحمت الأزقة بين الأكواخ بجيرانهم. يحتفل ألبرت فينسنت، متعهد الجنازات الذي صار عمدة، بتنصيبه، بمفرقعات تشبه القذائف المدفعية. فيما يصفق الجيران ببهجة، شعرتْ كلير أنها هي الفائزة. قالت صاحبة محل الأقمشة لا، وستمكث مع والدها عامًا آخر.

***

يوم أن أكملت كلير لايميه لانميه فوستين عامها الخامس كان يوم أربعاء، يوم السوق، لذلك أيقظها والدها في الصباح الباكر. مرّا في طريقهما إلى السوق ببركة مياه رملية تكونت بجوار كوخهما حيث يقضي الأطفال، الذين يعجز آباؤهم عن تحمّل إرسالهم إلى المدرسة، صباحهم في مساعدة الصيادين أو في الخوض في المياه الراكدة ثم في مياه البحر لغسل أنفسهم. كانت كلير ترتدي الثوب الحريري الوردي نفسه الذي طلبه والدها من خياط البلدة خصيصًا، لكنه كان أوسع قليلًا عليها. ابتاع قماشه بالطبع من عند بائعة الأقمشة.

شعر نوزياس، بقميصه الأبيض المجعّد والمغلقة أزراره حتى حنجرته، والهواء اللزج يلتصق بجلده، أنه محبوس داخل أحد جيوب الهواء الرطب تلك حيث يلتقي نسيم البحر بحرّ البلدة الخانق. حتى قبل أن يديرا ظهريهما

مكتبة ياسمين

للبحر، عرفتْ كلير، أنهما، كما فعلا العام الماضي، سيزوران قبر والدتها هذا الصباح.

كانت جادة بايد روز قد ازدحمت بالفعل بمارّة يتوافدون، أو ينادون على سيارات الأجرة والتاب تابات[1]. رفع نوزياس أنفه عاليًا يشتمّ الهواء، رائحة قهوة الصباح في الشوارع المكدسة بالبيوت ذات الأسقف المائلة والأبواب المؤطرة بأقواس خشبية مصنّعة بدقة، تشبه شريط شعر زوجته المفضل. سار بخطوات سريعة كأنه يتحدى كلير أن تجاريه. مرّا بمعبد فودو[2] على جدرانه الخارجية رسومات لقديسين كاثوليك بوجوه أرواح الفودو، وأشار نوزياس، كما فعل من قبل عدة مرات، إلى الوجه الشاحب المتوهج للأم دولوريسا تحمل سيفًا موجّهًا إلى قلبها.

قال: «روح الحب، إزيلي فريدا[3]. كانت أمك تحبها».

لم ترَ كلير صورة لوالدتها قط. ليس لها صور أساسًا، ولولا صورة الفصل الجماعية المعلقة على جدار فصل الروضة في مدرسة آردين، والتي لم يستطِع والدها دفع مقابل نسخة منها، لم يكن ليوجد لكلير صورٌ هي الأخرى.

انعطفا من الشارع الرئيس إلى أحد الأزقة، سارا في طريق ضيق قذر بجوار بيوت خشبية مسوّرة بنباتات الصبار. تتبعت كلير والدها الذي تتبع بدوره رائحة السكر المحروق في الهواء. صاح عليهما رجل يرتدي حذاءً مطاطيًا برقبة عالية، عائد من حقول القصب مصطحبًا بغلًا محمّلا بالقصب، «تزوران الموتى، مسيو نوزياس ومانزي كلير؟»

---

(1) التاب تاب وسيلة نقل جماعي في هاييتي عبارة عن سيارة نصف نقل في الغالب. (المترجمة).

(2) الفودو ديانة رئيسية في هاييتي ويطلق على ممارسيه (الفودويون)، أو «خادمو الأرواح»، والأرواح أو اللوائيات في الفودود بمثابة القديسين الشافعين. (المترجمة).

(3) ربة أو روح أو «لوائية» الحب الأفريقية الهايتية. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

أومأ له نوزياس برأسه.

المقابر محاطة بسور من الصخور البحرية الكالحة. بالداخل، أسفل الصفصاف البرتقالي الزاهي الباكي، بالقرب من البوابة، توجد أقدم القبور، أبلت الشمس شواهدها وبيّضتها. تعود التواريخ على رخامها إلى بداية القرن التاسع عشر وأصحابها من أشهر عائلات البلدة، من بينها عائلة آردين، وبونسيه، وكاديت، ولافود، ومارجنان، ومولين، وفنسنت، وآخرين. سرعان ما وجدا، في القسم الأحدث من المقابر، المدافنَ الخاصة المشيدة على شكل بيوت والمطلية بألوان ناعمة، وبجوارها صلبان أسمنتية تبرز من التربة السمراء المحمرَّة. نسيت كلير للحظة أين صليب والدتها، لكن نوزياس أمسك بيدها وأخذها إليه. انحنى للأسفل، ومسح بطرف قميصه الطبقة الخفيفة من الطين الأحمر التي تغطي الحروف المنقوشة على الصليب. استطاعت كلير ذاك العام فقط أن تقرأ حروف اسم والدتها. اسمها كلير أيضًا، كلير نارسيه. سماها والدها كلير لايميه لانميه، أي كلير نور البحر، بعد أن توفّت والدتها.

من أبرز سمات نوزياس البدنية أنه باستثناء حاجبيه ورموشه وشعيرات أنفه، أمرد تمامًا. لأسباب لم يعرفها قط، لم ينمُ له أي شعر في بقية جسده. رجل أصلع، ببشرة أبنوسية لوّحتها الشمس وصقلها هواء البحر، ركع بركبة واحدة انغرست في التربة الرطبة وبصق في طرف قميصه، لكنه لم يبلله بما يكفي لمسح كل الطين الأحمر عن اسم زوجته.

بالقرب من صليب والدتها، في مدفن عائلة لافود المطلي باللون السماوي، يوجد إكليل معدني وردي ملفوف بشريط ذهبي مكتوب عليه اسم. بجوار الإكليل باقة ورود بيضاء. تلك إحدى المرات الكثيرة التي تمنت فيها كلير لو كان بإمكانها قراءة وكتابة شيئًا آخر غير اسمها. والدها لا يمكنه حتى كتابة

مكتبة ياسمين

وقراءة اسمه، لذلك لا يمكنها أن تطلب منه قراءة الاسم لها، لتعرف مَن هذا الطفل ومن ترك هذا الإكليل الجميل والورود البيضاء.

تلطخ قميص نوزياس كله تقريبًا بالطين الأحمر. نظف شاهدة قبر زوجته بقدر ما أمكنه. بدا وهو جالس على الرقعة الأسمنتية أسفل الصليب مرتاحًا بين الموتى. حين رفع بصره للأعلى رأى صاحبة محل الأقمشة، كانت تتجه نحوهما، ترتدي ثوبًا من الدانتيلا البيضاء، وحول رأسها وشاح مرقط.

قال وهو ينهض: «كنت أعرف أنها ستأتي اليوم». نظر إلى قميصه الملطخ وشعر بالخجل. أمسك بيد كلير لايميه لانميه، ووضعها برفق في طريق المرأة.

«أتذكرين ابنتي؟» سأل نوزياس وهو يربت بتوتر على كتف كلير.

قالت المرأة: «أرجوك، دعني أتذكر ابنتي أنا».

***

يوم أن أكملت «كلير لايميه لانميه فوستين» عامها الرابع، كانت ابنة صاحبة محل الأقمشة، روز، البالغة من العمر سبع سنوات - إحدى أجمل وأشهر فتيات البلدة - على ظهر موتوسيكل أجرة مع راعيتها اليافعة، حين أطاحت بهما مؤخرة سيارة جعلت روز تحلق لأعلى في الهواء، ثم تسقط متلقية الأرض برأسها أولًا.

كانت روز ممتلئة وبشرتها بلون عسل النحل مثل والدتها، وشعرها مصفف بعناية دائمًا تقريبًا. كانت والدتها تصففه بنفسها في تسريحات مبهجة وملونة، بزهور رقيقة أو أشكال هندسية في فروة رأس الفتاة. يُقسم كل شهود الحادث، ومن بينهم نوزياس، أن جسد روز حين اندفع لأعلى من على

t.me/yasmeenbook

ظهر الموتوسيكل، بدا بزيها المدرسي كأنها تطير بالفعل، ملَك في تنورة زرقاء وبلوزة بيضاء، ترفع ذراعيها كأجنحة وترفرف بهما، قبل أن ترتطم بالأرض.

لم تكن تلك أول مرة يرى فيها نوزياس حادثًا كهذا. كانت تلك، كما شعر، بلدة صغيرة منحوسة، وجادة بايد روز ضيقة وأغلبها غير ممهد ويعجّ بالموتوسيكلات وشاحنات النقل العام والسيارات الخاصة. مع ذلك لم يكن من سابقة لتلك الفجيعة. توقع نوزياس أن تصرخ الصغيرة روز - مثلما توقعت الأمهات والمشاهدون الآخرون وهم يهرعون إليها - لكن الفتاة لم يصدر عنها أدنى صوت. كان الموتوسيكل الأجرة قد أوشك على الوصول إلى محل الأقمشة حين وقع الحادث، لذلك لم يستغرق الخبر طويلًا قبل أن يصل إلى الأم، التي - حتى قبل معرفة أي تفاصيل - هرولت منحنية وهي تولول إلى كشك المرور حيث ترقد طفلتها، دامية وساكنة، على الأرض. لم يرَ نوزياس حزنًا كهذا منذ انهيار مبنى المدرسة العليا بالبلدة قبل سنوات، حين لقي 112 من أصل 216 من الطلبة حتفهم تحت الأنقاض. بيد أنه يوم حادث الموتوسيكل، كانت بائعة الأقمشة وحدها صاحبة الفجيعة. نجا سائق الموتوسيكل الأجرة وراعية روز بشكل إعجازي، مثل الطلبة والمدرسين الذين زحفوا من تحت أنقاض مبنى المدرسة المنهار. شعر نوزياس حينها بامتنان لوجود كلير مع أحد الجيران، بعد أن زارت قبر أمها هذا الصباح ، في مأمن من السيارات والموتوسيكلات. مع ذلك شعر للحظة بافتقاده ابنته الصغيرة أكثر من أي وقت، افتقدها بشدة لحد أن شعر بالغيرة من طريقة احتضان بائعة الأقمشة لابنتها. على الأقل استطاعتْ أن تعتني بطفلتها طوال حياتها القصيرة، فكّر. أما هو، فرجل. ماذا يعرف عن العناية بطفلة صغيرة، ربما لو كانت فتى لكان قد حاول. لكن في حالة الفتاة، يحدث كثيرًا أن تسير الأمور على نحو خاطئ، يمكنك أن ترتكب أخطاء كثيرة لا أمل فيها. ظل دائمًا في حاجة إلى راعية لا يستطيع تحمل كلفتها،

مكتبة ياسمين

أو جيران كان عليه دائمًا أن يطلب مساعدتهم، ونساء كان عليه إما أن يدفع لهنّ أو ينام معهنّ ليعتنين بطفلته. وحتى هؤلاء اللائي يتصرفن بأكبر قدر من الأمومة، كأن يحمّمن الفتاة، ويُلبسنها، ويسرّحن لها شعرها، لم تشمل تصرفاتهنّ أحضانًا مثل تلك التي تغمر بها بائعة الأقمشة جثمانًا غارقًا في دمه. كان يجب أن يشاهد طفلة أخرى تموت بين ذراعيّ أمها ليعرف كم سيفتقد كلير إن تخلى عنها لمصلحتها.

***

يوم أن أكملت كلير لايميه لانميه عامها الثالث، أُعيدت إلى نوزياس من القرية الجبلية حيث ظلت مع أقارب والدتها منذ كان عمرها يومين. كانت وفاة زوجته صدمة شديدة لحد أن النظر إلى وجه الطفلة الضئيل لم يكن يُحزنه فقط بل يُرعبه أيضًا. يعدّ أغلب الناس أن كلير لايميه لانميه «روح انتقامية»، طفلة دلفت إلى العام لحظة رحيل والدتها عنه. وهؤلاء الأطفال إن لم يُعتنَ بهم جيدًا فقد يلحقون بأمهاتهم إلى العالم الآخر بسهولة، والسبيل الوحيد لإنقاذهم هو إبعادهم فورًا عن مكان ولادتهم، ولو لفترة قصيرة. وإلا سيقضون وقتًا طويلًا جدًا في ملاحقة ظل لا يمكنهم الوصول إليه أبدًا. وفاة المواليد في أثناء الولادة أو بعد فترة قصيرة منها أمر شائع بما يكفي، كذلك وفاة كل من الأم والمولود، ليس أمرًا غير عادي أيضًا. لكن حين تموت الأم ويبقى الطفل دون أن يبدو على الأم أي أمارات على المرض من قبل، يفترض الناس أن معركة ما قد درات وقد انتصر فيها الطرف ذو الإرادة الأقوى. مع ذلك، يفضل نوزياس اعتبار الأمر تنازُل عطوف. كان على واحدة منهما فقط أن تبقى على قيد الحياة، وقد تنازلت الأم عن مكانها.

بعد أن خلا الكوخ من جسد زوجته، واجه نوزياس المحنة التالية، إطعام

t.me/yasmeenbook

الطفلة. كانت القابلة قد ألبستها ثوبًا صغيرًا أصفر مطرّزًا، من ضمن كسوة المولود التي قضت زوجته شهورًا طويلة في خياطتها. حمل نوزياس الرضيعة ولفّها في البطانية الصفراء التي خاطتها زوجته أيضًا. وبعد أن أطعمها بعض الماء المحلّى بالسكر في زجاجة كانت زوجته قد اشترتها ضمن حاجات المولود أيضًا، تركتها القابلةُ له وهرعتْ إلى البلدة لتبحث عن لبن للرضّع أو امرأة مرضع. كانت كلير، حتى في ساعاتها الأولى تلك، هادئة ولطيفة. كأنها تعرف بالفعل أنها ليس لها الحق في أن تتذمّر أو تطلب شيئًا.

في تلك الأمسية الأولى مع الرضيعة، انتابت نوزياس أفكار جعلته يحتقر نفسه، تخيل أن يترك الطفلة تموت جوعًا. أو حتى أن يلقي بها في البحر. كأنه يحاول أن يفعل بها ما يعجز عن فعله بنفسه. عجز عن أن يتناول السم، على رغبته الشديدة في ذلك، لكنه لم يسعه تركها يتيمة الأبوين بالكامل لينتهي بها المطاف في ماخور أو في الشارع. كان يخاف عليها بالفعل من قرص الناموس أو ذباب الرمل، أو من الإصابة بالملاريا أو بحمّى الضنك[1]. خاف على نفسه أيضًا. خاف من أن يغرق في البحر أو تصدمه سيارة، أو يُصاب بعدوى تستلزم فصل أحدهما عن الآخر إلى الأبد.

مرت ساعة منذ أخذوا جسد زوجته، ثم ساعة أخرى، وحين لم تعُد القابلة، أحكم لفّ البطانية الصفراء حول كلير الرضيعة وأخذها إلى البلدة.

كان المساء قد حلّ سريعًا، وفيما يسير في طرقات البلدة، شعر أنه يراها لأول مرة. السماء ملبّدة بالغيوم وتهدر بدويّ دون أن يبدو أي أثر لسقوط المطر. ارتفع البحر أقدامًا قليلة وكان يضرب الشاطئ بهياج متزايد وأمواج متضخمة. يسير قلة من الناس في الأنحاء بحرص وظهورهم للريح في

---

(1) حمّى الضنك أو حمى تكسير العظام مرض استوائي ينقله البعوض يحدث بسبب فيروس الضنك. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

طريق عودتهم إلى البيت من العمل أو الحقول. وآخرون يُدخِلون كراسيهم الهزازة وأصص الزرع من شرفاتهم المزخرفة، أي شيء يمكن رفعه ووضعه في الداخل. أبطأت الريح من خطوه وهو يزيح الغصينات الصغيرة المتطايرة عن بطانية الرضيعة. شعر بها تتلوى عند صدره، وليتفادى التفكير في مدى جوعها، فكر بدلًا من ذلك في زوجته، التي كانت، في الأوقات التي لا تعمل فيها في غسل وإلباس الموتى في دار جنازات فنسنت، أو تذهب لشراء طعام، تتجول في البلدة بلا غرض محدد سوى مشاهدة الناس والوجوه في الأسواق المفتوحة ومعاينة أشياء في المحلات الفاخرة تعرف هي والبائعون جيدًا أنها ستضعها مكانها ثانيةً.

التقت بزوجها حين جاءت لشراء السمك لأحد بائعي الأطعمة في السوق المغطاة في البلدة. كانت تقوم بجولَاتها ثلاثة أيام أسبوعيًا، تتفحص غنيمة كل صياد قبل أن تملأ السلة بسمك النهاش والقُدّ. سرعان ما صار يدّخر لها أفضل وأكبر أسماكه. كان في الأيام التي يتوقع فيها رؤيتها دون أن يمكنه الذهاب إلى البحر للصيد، أو في الأيام التي لا يحظَى فيها بصيد جيد، يتضاعف حزنه.

كان يناديها «زوجتي»، وليس امرأتي، بدت له الكلمة الأخيرة محرّمة، مثل عشيقة. لم يتزوجا بشكل رسمي قط مع ذلك، لكنه لم يجد صعوبة في إقناعها بالمجيء والعيش معه. كانت تنام في عُشة في السوق وتذهب كل يوم إلى قاعة الجنازات لتسأل إن كانوا في حاجة إلى مساعدة هناك، تعمل، مثلما كانت تعمل في الجبال قبل أن تأتي إلى البلدة، في غسل وإلباس الموتى. كان كلما حكى لأصحابه الصيادين عن لقائه بها يضيف إنه الرجل الوحيد الحيّ الذي أحبته. وهكذا، طلب منها ذات يوم أن تأتي لتعيش معه، فوافقتْ.

في اليوم السابق على انتقالها للعيش معه، نظّف الكوخ قليلًا، قام

t.me/yasmeenbook

بإصلاحات خفيفة في الجدران، استبدل بعض ألواح الخشب المتعفنة وسد عدة ثقوب صغيرة في السقف الصفيح، حتى أنه أتى بفراش وبطانية بوليستر جديدين تمامًا. وغيّر اسم قاربه من اسم حبيبة سابقة له إلى اسمها. منذ ذلك الحين، ظل يسمي كل قوارب صيده كلير.

سارت الأمور جيدًا، حتى بدأا محاولات إنجاب طفل.

شعر نوزياس بكلير الرضيعة تتلوى عند صدره مجددًا، فأسرع إلى المبنى الأبيض عند المنعطف حيث مستشفى البلدة. مستشفى سانت تريزا. بعد أن جاءت لتعيش معه، ظلت كلير نارسيس، ابنة حانوتية وخدم جنازات الجبال، لشهور، تتناول أعشابًا وأوراق شجر منقوعة في الرّم من المفترض أن تجعلها تحمل. لكنها بدلًا من ذلك كانت تجعلها مخمورة، ما كان يزيد من تكرارية ممارسة الجنس، لكنه لم يؤدِ إلى نتائج مباشرة. ظلا يحاولان لمدة سنة، وظل يتمنى لو كان قد عرف مدى رغبتها في الإنجاب قبل أن تأتي لتعيش معه. لكان على الأقل قد أخبرها عن عمليّته التي كاد أن يجريها مؤخرًا.

كان دائمًا ما يخشى ربطه بكومة أطفال لا يمكنه إطعامهم، وكان يعلن دائمًا أنه لن يبقيهم في الخفاء كأنهم سر مريع، لشعوره بأن هذا ليس من شيم الرجال. حتى ذات يوم، كان يسير أمام مستشفى سانت تريزا وبدلًا من منظر الزحام المعتاد في الصباح المبكر للمرضى والمحتضرين، رأى طابورًا طويلًا من رجال شباب أصحاء ينتظرون. جعله فضوله يقترب منهم وعرف منهم عن وجود حل بسيط لمنع الإنجاب، شيء ما سيظل عليه معه اتخاذ احتياطاته لئلا يصاب بعدوى جنسية، لكنه يمنع أن يكون أبًا.

بعد شرح تفصيلي للأمر في فناء المستشفى، وعرض لفيلم قصير يحوي شهادات رجال ممتنين، ظهر طبيب شاب يبدو في العشرينات من عمره ليخبر الرجال أن يعودوا إلى بيوتهم ليفكروا في الأمر جيدًا. كان نوزياس

مكتبة ياسمين

هو الوحيد من بينهم الذي أكّد على رغبته في الخضوع للعملية في اليوم نفسه.

أراد الطبيب إجراء فحوصات للدم أولًا، لكن نوزياس عبّر عن رفضه الفحوصات الأخرى بمساعدة ترجمة إحدى الممرضات الهايتيات. كان يريد إجراء العملية فحسب، كما قال، ولا شيء آخر. فوافقه الطبيب.

أخبروه أنه سيظل صاحيًا طوال الوقت. ستوضع ملاءة على خصره لئلا يرى ما يفعله به الأطباء. لكنه حين شعر بوخز الإبرة على إحدى خصيتيه، أطلق صراخًا عاليًا وصاح أنه قد غيّر رأيه. قفز من على الطاولة، ارتدى سرواله، وخرج من المستشفى ركضًا، وشعر بيقين بأنه سيُصبح يومًا ما أبًا.

تمنّى لو كان يشعر باليقين نفسه الآن وهو يمرّ سريعًا بكاتدرائية البلدة وكلير الصغيرة على صدره. بدأت أجراس الكنيسة تدق السابعة مثل إنذار، فأسرع الناس إلى الكنيسة لحضور قداس المساء ليلوذوا به من الريح. لمح من شق في البوابة الخشبية الضخمة المسيحَ المصلوب والزجاج الملون ولهب الشموع. مع اعتبار طريقة ولادتها وطريقة تفكير البعض في الأطفال من مثلها، تساءل نوزياس إن كان عليه التوقف لمباركة كلير. لكنه تذكر أنها جائعة منذ وقت طويل، فقرر ألا يتوقف. في تلك اللحظة نفسها، وهو يمر سريعًا، فتح قس ذوشعر أبيض باب الكنيسة. كان الأب مارِجنان، رئيس إبراشية سانت روز دي ليما. رفع القس يده وبارك الاثنين سريعًا من بعيد. أومأ نوزياس له بامتنان وواصل سيره إلى متجر لافود، محل الأقمشة بالبلدة. وجد صاحبة المحل تقف هناك مع حارسها الليلي القوي، المسلح، بزيه الرسمي وهو يغلق بوابة المحل المعدنية بالسلسلة والقفل. بجوارها ابنتها ذات الثلاثة أعوام تمسك بتنورة أمها. بدأت كلير تبكي، فاستدارت بائعة الأقمشة لترى من أين يأتي البكاء.

قال وهو يُقبل نحوها: «سيدتي».

t.me/yasmeenbook

أدرك من وجه المرأة أنها تعرف بالفعل بما حدث. وكيف لا تعرف، لا مكان تنتشر فيه الأخبار بأسرع مما تنتشر في روز فيل. كانت أغلب نساء البلدة قد سمعن بالفعل عن كيف توقف قلب زوجته فجأة في نهاية مخاضها، مع ذلك خِفن جميعًا من شبح الأم التي قد تعود لطفلتها، ما عدا القابلة، التي ربما اعتادت مثل تلك الأمور، لذلك لم تهرع واحدة منهن لتقديم العون له أو للطفلة.

من جانبه كان قد سمع أن صاحبة محل الأقمشة ما زالت ترضع طفلتها ذات الثلاثة أعوام. وكانت حقيقة أنها لم تفطم بعد تلك الطفلة الكبيرة، الذي يعرف أن اسمها روز، غير عادية بالمرة، بالنسبة لامرأة في مكانتها التي يدركها الجميع. كانت إثباتًا لكونها أكثر عطفًا وشجاعة مما يظنّون. طلبت صاحبة محل الأقمشة من حارسها الليلي أن يعيد فتح البوابة الأمامية وأشارت إليه أن ينتظرها بالخارج، ثم إلى نوزياس ليتبعها إلى الداخل. دفعت بابًا آخر تفتحه ثم ضغطت زر الضوء لتشعل بعض اللمبات التي تتدلى على الأرفف المكدسة بلفائف وبكرات الأقمشة والمنسوجات الضخمة. جلس نوزياس والمرأة وابنتها الناعسة جميعًا على دكة خشبية طويلة في منطقة الانتظار. فتحت المرأة أزرار قميصها الحريري، دون أن تعتني بتغطية ثدييها الضخمين، اللذين كانا بلون أفتح عدة درجات من لون وجهها.

التقمتْ كلير سريعًا الثدي الأيمن أولًا ثم الأيسر، وأفرغتهما كليهما بينما تحدق فيها روز مصدومة وكسيرة، كأنها لم تكن تدرك قبل تلك اللحظة أن أمها قد تفعل هذا لأي شخص غيرها.

ظن نوزياس أن بإمكانه إحضار كلير إلى بائعة الأقمشة كل يوم، لكنها بعد أن ابتسمتْ للطفلة وهدّأتها، قطبت وجهها له وأعادت له طفلته بالتجهم الذي قد تتعامل به مع زبائنها الذين يشترون بالدين. أشارت إلى

مكتبة ياسمين

طفلتها ذات الثلاثة أعوام التي تجلس ناعسة بجوارها وقالت: «إنها هي الأولى بلبني».

لم يقل شيئًا، لكنه فكر في أن ابنته وابنتها قد صارتا الآن شقيقتين في الرضاعة. لقد ألقمتْ صاحبة محل الأقمشة كليرَ ثديها، ألا تعد بذلك أمها الروحية؟ لديها الإمكانيات بالطبع. لديها أيضًا تاريخ طويل في البلدة. كان أحد جديها مهندسًا. هو من شيّد فنار تل الأنثيري، وساهم في إعادة بناء أجزاء من البلدة بعد أن دمرتها الأعاصير عدة مرات. جدها الآخر كان صيدليًا وطبيبًا ميدانيًا. كانت إحدى جدّتاها تدير أعمال قصب السكر الخاصة بها، والأخرى ناظرة مدرسة الليسيه. والدها قاضي البلدة، ووالدتها، صانعة خزف، تصنع أواني زهور خزفية وتبيعها الآن في محلها في بورت أو برانس[1].

الأمر الوحيد الذي لم يحبه نوزياس بشأنها كان الأقاويل عن سيرها المتسيب، والإشاعات عن حاجتها إلى صحبة رجل. يعرف نوزياس أن زوجته جاءت إلى محل الأقمشة عدة مرات لمقايضة البطانيات الصغيرة التي تطرّزها بنفسها. يتساءل الآن إن كانت المرأتان قد تحدثتا مطولًا. أتحدثتا لما يزيد عن مجرد زبونة وبائعة؟ كوالدتين صغيرتين؟

وقف هناك، بالقرب من بوابة المحل الأمامية، يهدهد الطفلة الدافئة الراضية الآن بين ذراعيه، ويفكر في الانتظار قليلًا لعل بائعة الأقمشة تغير رأيها. قد تجد ابنته جميلة جدًا أو مثيرة للشفقة جدًا فتسمح لها بالمجيء والرضاعة مرة أخرى. لكنها بدلًا من ذلك مدّت يدها في جيب تنورتها وأخرجت القليل من الأوراق النقدية دفعت بها نحوه. «ألديك أقارب

(1) عاصمة هاييتي. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

آخرين؟» سألتْه وهي تربت على شعر ابنتها المصفف بعناية. «شقيقة؟» وقبل أن يجيبها أضافتْ: «إن لم يكن لديك شقيقة، عليك بإرسالها إلى نساء العائلة».

واصلتْ: «ألديك مكان لدفن جثمان زوجتك؟ يمكنك إن شئتْ دفنها في مدفن عائلتي في المقابر».

هدأتْ الريح الآن. شكرها وأسرع عائدًا إلى البيت والطفلة نائمة بين ذراعيه. كانت القابلة في انتظاره بالخارج عند عتبة بابه.

وبّخته قائلة: «أأخذتَ الطفلة إلى الخارج ليلًا؟»

كان معها زجاجات ولبن مجفف ومياه معالَجة، ولم تكن تطيق الانتظار لإطعام الطفلة النائمة. ستقضي تكلفة تلك الزجاجات واللبن والمياه، مع نفقات الجنازة، على المبلغ الذي ادّخره هو وزوجته للذهاب إلى مكان آخر بعيدًا عن البحر.

***

في اليوم التالي، أرسلت صاحبة محل الأقمشة أحد العاملين لديها بطرد لكلير الرضيعة. طرد بحجم وسادة صغيرة ملفوف في ورق المتجر البنيّ ومربوط بالحبل السيزال[1] الذي تستخدمه في لفّ الأقمشة لزبائنها. بداخله بطانية خضراء مطرّزة ومؤطرة بشريط أبيض، وبعض ثياب الرضّع المطرزة، من النوع الذي كانت زوجته تحبه وصنعت بالفعل العديد منه لطفلتها.

حين جاءت شقيقة زوجته لحضور الجنازة، أعطاها نوزياس الطفلة ابنة

(1) الأغاف سيزال نوع من الصبار موطنه دول الكاريبي وينتج أليافا تستخدم في صنع الحبال والخيوط القوية. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

يومين، بكسوتها التي صنعتها لها زوجته وطرد صاحبة محل الأقمشة وما تبقى لديه من أموال قليلة.

ارتاح من قلقه بشأن كلير الصغيرة لفترة، لكنه لم يغادر روز فيل. ظل محتفظًا بقاربه وكوخه. عمل أكثر وقضى في البحر وقتًا أطول ليجني مالًا كافيًا لإرساله لرعاية طفلته. لكنه مع ذلك لم يزرها ولم يطلب استعادتها.

كان أحيانًا، في الشهور التالية، خلال الساعات الطويلة التي يقضيها في البحر، يتساءل كيف تبدو ومن تشبه. أهي حولاء أو بساقين مقوسين؟ سمينة أم نحيفة؟ هادئة أم طفلة شقية ومزعجة؟ هل ستعرف أنها كان لديها أمٌ وماتت؟

باقتراب عيد ميلادها الثالث، شعَر أنه على استعداد لرؤيتها. فأرسل إلى شقيقة زوجته لتعيدها إليه يوم عيد ميلادها. وحين رآها وجدها نسخة مصغرة حرة وفتيّة، على نحو يذيب القلب، من والدتها. كان قد طلب خياطة ثوب لها من أجل تلك المناسبة، الأمر الذي سيطلبه من الخياط نفسه، الثوب نفسه لكن أوسع، عامًا بعد الآخر. كانت زوجته قد صنعت واحدًا مثله تمامًا لترتديه ابنتها في عيد ميلادها الأول. واحتفظ هو بهذا الثوب الأول حين أرسلها إلى خالتها. كثيرًا ما وضعه على صدره في الليل، كما كان سيفعل مع الطفلة لو كانت معه.

***

ظهيرة يوم عيد ميلاد كلير لايميه لانميه فوستين السابع، أسرع بها نوزياس إلى المقابر للزيارة السنوية لقبر أمها. السماء صافية بلون الزبرجد، ولولا وفاة كالِب لكانت تلك الموجة المتوحشة التي شاهدها صباحًا في طيّ

t.me/yasmeenbook

النسيان الآن.

ترتدي كلير النسخة الأوسع حتى الآن من ثوب عيد ميلادها الحريري الوردي، حين رآها نوزياس غير مرتاحة فيه قرر أنه لن يطلب صنعه لها مرة أخرى، وأنه - إن ظلت معه للعام القادم - سيتركها تختار ما ترتديه. وقد يأخذها إلى محل ملابس جاهزة لتختار ثوبًا بنفسها حتى.

مرّا بحوض كبير لزهور الأزاليا الحمراء أمام مدافن عائلة لافود، وباقة الورود البيضاء التي يبدو أنها تكبر كل عام، وقف معها أمام الصليب الأسمنتي لقبر أمها. تغطي الفتاة وجهها بيديها وتضيّق عينيها اتقاءً للشمس. دائمًا ما يشعر نوزياس هناك، على الرغم من اعتياده زيارة المقابر، بوخزة الألم نفسها، كأن أحدهم يقرصه في قلبه. كان كلما ذهبا إلى هناك يتساءل إن كانت ابنته تشعر بالألم نفسه.

تركت كلير يده وتلكأت خلفه خطوات قليلة. بدت هي أيضًا تائهة في أفكارها. خشي نوزياس من أن تكون قد ملَّتْ تلك الزيارات إلى قبر أمها. ترددتْ تخطو إلى الأمام وإلى الخلف وما زالت تشد طرف ثوبها. رفعت وجهها إليه وأبعدت أصابعها عن عينيها تاركة الشمس تضربهما.

بدا أنها تقول بعينيها حان وقت العودة. حين تأكد أنها تريد الذهاب، تعجّل هو الآخر العودة إلى البحر. كانت دوريات البحث تتناوب في الانطلاق بحثًا عن كالب، وأراد أن يلحق بالدورية الثانية.

في تلك الظهيرة، شكّل هو وصيادون آخرون قليلون سربًا من قوارب التجديف والزوارق والقوارب الشراعية في المياه، قاربه في المقدمة بشراع ملوّن من لافتات إعلانات قديمة. يُحب أن يكون شراعه مبهجًا، وبمرور السنين، بعد أن عدّل قارب التجديف خاصته، صار يجمع من مسيو بيير،

مكتبة ياسمين

الصحفي في جريدة البلدة والمحب للبهجة أيضًا، اللافتات القديمة لحفلات الفرق الموسيقية. شراعه الآن مرقع بأسماء الفرق الموسيقية وتواريخ حفلات سابقة في حانات على شاطئ البحر أو فندق البلازا في وسط البلدة. أشرعة الصيادين الآخرين باهتة بلون واحد تقريبًا وهيئة الجندب، بينما شراع نوزياس يشبه الفراشة. لو كان كالِب معهم الآن لتقدم هو السرب بقاربه، لأنه الأكبر سنًا بين جميع الصيادين، وقد ظل قاربه فيفين القَارب الأكبر والأقوى على سطح الماء دائمًا.

لم تكن ثمة رياح في البحر ذاك اليوم. رأى نوزياس من قاربه كلير لايميه لانميه تقف بجوار مجموعة صبية يعلقون شبكة صيد لتجف أمام أحد الأكواخ. كان الصبية منهمكين بشدة فيما يفعلونه فلم يلحظوها، ولم تلحظهم هي الأخرى لأنها كانت مشغولة بالنظر إلى البحر، تحاول ألا تفقد رؤية أبيها. في النهاية قضى وقتًا في النظر إليها أكثر مما قضى في البحث عن كالِب، الذي يعرف بالفعل أن البحر لن يعيده.

بعد مدة، عادت كلير إلى كوخهما بخطوات بطيئة تحت شمس الظهيرة. لم يعد يراها الآن. أدرك وهو في عرض البحر أنه لم يكن عليه إخبارها بأنه لو كان استيقظ في وقت أبكر ذاك الصباح لكان الآن ميتًا.

حين عاد هو والصيادون الآخرون من البحر عند الشفق، مغمومين لأنهم لم يعثروا على كالِب، وبرغم وجود قمر كامل متألق في الأفق، أشعل بعضهم نارًا كبيرة في الهواء الطلق. من حين إلى آخر يلقي أحدهم فيها بحفنة ملح صخري لتُطلق شررًا يؤمل أن يجتذب روح كالِب من البحر. تبكي جوزفين زوجة كالب بصمت، جلس نوزياس والصيادون الآخرون

t.me/yasmeenbook

بجوارها على الرمال الدافئة، يشربون الكلِرين[1]، ويلعبون الورق، كالعادة في السهر الرسمي على الموتى.

رأى نوزياس ابنته من بعيد، تقف مع خمس فتيات أخريات متشابكات الأيدي في دائرة، تلف كل واحدة منهن الأخرى في لعبة مدوِّخة تُدعى «الدوران». ربما قدّم لها أحد الجيران طبق طعام، أو دعاها لتناول الطعام في بيته، مثلما يفعلون دومًا حين يكون في البحر. ظل يراقبها وهو يشعر أنها تتجنبه فيما يتوافد أبناء البلدة بالعشرات، جالبين معهم، كالعادة، مبالغ مالية صغيرة لزوجة كالِب.

جاء الأب مارِجنان، الذي يدعونه في العادة لمباركة الشِباك وتعميد القوارب الجديدة، ليقدم تعازيه. جاء أيضًا أحد قساوسة البلدة البروتستانت الكثيرين، باستيه إتيان، مصطحبًا معه مجموعة من النساء العجائز يرتدين الأبيض من رؤوسهن حتى خمص أقدامهن. كانت جوزفين زوجة كالِب إحدى أعضاء طائفة باستيه إتيان الإنجيلية الرائعة. قبل أن يشبكوا أيديهم جميعًا فوق رأس جوزفين، ساعد باستيه إتيان والنساءُ جوزفينَ لتركع على ركبتيها. وحين انتهوا وساعدوها على النهوض مجددًا، جاء العمدة/ الحانوتي ألبرت فنسنت. خلال الدقائق القليلة التي تحدث فيها ألبرت فنسنت مع جوزفين، قال أحد الصيادين الجالسين حول النار بصوت عال بما يكفي ليسمعه الجميع إن شخصية العمدة في ألبرت فنسنت تتحقق من الكارثة، بينما شخصية الحانوتي تبحث عن جثمان. كان ألبرت فنسنت ينظر حوله بالفعل كأنه لا يبحث عن جثمان فقط، بل عن شبح أيضًا.

نهض نوزياس وصافح يد ألبرت فنسنت المرتعشة. حتى بعد كل تلك السنوات ما زال ممتنًا له لمنحه زوجته ذاك العمل في دار الجنازات الخاصة به

---

(1) الكلرين مشروب روحاني هاييتي من قصب السكر، يشبه الرَم. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

حين كانت وافدة حديثًا على البلدة، كان هذا العمل يعني لها الكثير. كذلك كان ألبرت فنسنت من أوصى صديقه ماكس آردين بمنح كلير منحة تعليمية في مدرسته، إكرامًا لذكرى والدتها المتوفاة.

سأل ألبرت فنسنت: «كيف حال كلير الصغيرة؟» يدعوها دائمًا «كلير الصغيرة».

أومأ نوزياس برأسه إشارة إلى أنها بخير. بالرغم من امتنانه له، كان نوزياس دائمًا ما يشعر في حضرة ألبرت فنسنت بحزن عميق، خاصة في يوم كهذا. حتى في هواء البحر، تظل لألبرت فنسنت رائحة زوجته حين كانت تعمل لديه. كانت رائحته، كرائحتها، هي رائحة الموت، مغطاة بعطورٍ أخرى الغرض منها إخفاؤها.

كذلك يتعذّر على نوزياس قبول إحسان لم يطلبه. كان يشعر بالعار لوضوح حاجته إلى الإحسان، خاصة من شخص لن يستطيع رد صنائعه أبدًا، باستثناء إهدائه سمكة من حين لآخر، أو التعبير له عن امتنانه وعجزه الشديد عن الشكر كلما قابله.

قال نوزياس بعد أن صافحه: «لا أعرف كيف أشكرك مجددًا مسيو ألبرت، على كل ما فعلته للفتاة».

أجابه ألبرت فنسنت وهو يربِّت على كتفه: «كُف عن شكري إذن، لقد كانت والدتها أحد أفراد عائلة فنسنت».

شعر نوزياس تلك الليلة تحديدًا أن ألبرت فنسنت يوسّع معنى العائلة إلى حد مبالغ فيه، لحد أنه، ربما دون أن يقصد، يحطّ من قدرها. أراد أن يجيبه إنها عائلتي *أنا*. ليست عائلتك. وليست مجرد عاملة بدار الجنازات. لكنه بدلًا من ذلك قال: «نعم مسيو ألبرت. شكرًا جزيلًا لك».

t.me/yasmeenbook

اكتشف نوزياس حين ابتعد عن ألبرت فنسنت أنه لا يرى كلير. شوّش الكلِرين الذي ظلوا يشربونه حول النار رأسَه قليلًا. ثم كانت غصّة حلقه تلك التي انتابته وهو يتحدث مع ألبرت فنسنت، والتي عجز بعدها عن النطق السليم حتى وهو يسأل من يلتقيه إن كان قد رأى ابنته.

لم يعد متأكدًا الآن من الوقت الذي مر منذ أن رآها آخر مرة. لكنه وجدها وهو يقترب من كوخه. كانت تجلس بالقرب من امرأة. امرأة يعرفها، لكنه لم يرَها هكذا من قبل قط. كانت المرأة تربط رأسها بشبكة سوداء على بكرات اسفنجية ضخمة بلون وردي، وترتدي ثوب سهرة فضي. إنها صاحبة محل الأقمشة، تتحدث مع ابنته بتركيز شديد.

خشي أن يقترب منهما وسَرّه أن يراقبهما من بعيد، لولا أن المرأة رأته وظن أنها لوّحت له.

تجلس هي وكلير كل منهما على صخرة. فجلس بينهما على الرمل.

كيف تظل الحياة قادرة على مفاجأته هكذا؟ سأل نفسه. لعله هذا اليوم. اليوم الأصعب من بين جميع الأيام، يوم الميلاد والوفاة.

لكن ألم يكن هذا الذي ظل ينتظره، ما ظلّ يتمناه، أن تهتم بابنته سيدة ذات جاه، المرأة الأولى والوحيدة التي أرضعتها؟ بدا له فجأة أن القمر المكتمل قد انجرف أعلى رؤوسهم مباشرة. شعر أن الجميع يراقبونهم، في انتظار أن يروا ماذا ستفعل صاحبة محل الأقمشة، ماذا ستقول صاحبة محل الأقمشة.

«نعم»، غمغمتْ صاحبة محل الأقمشة فجأة كأنهما ينهيان محادثة طويلة، «نعم. سآخذها. الليلة».

ظلّت كلير تحدق في الرمال، رأى نوزياس دَمعة تنزلق على جانب وجهها. أراد أن يحتضنها ويدفن أنفه في خدها مثلما تفعل هي حين تراه حزينًا.

مكتبة ياسمين

أمكنه أن يسأل أخيرًا: «لماذا الآن؟ لماذا الليلة؟»

قالتْ صاحبة محل الأقمشة وهي تمد يدها لتمسح وجه كلير: «إما الآن وإلا فلن يحدث أبدًا»، لكن الفتاة تراجعتْ للخلف. «أريد أن أتذكر هذا اليوم بطريقة أخرى». وضعت كلتا يديها في ثوبها الطويل من الساتان، بين ركبتيها، وقالت مجددًا: «إما الآن وإلا فلن يحدث أبدًا»، ثم مدّت يدها إلى ظهر الفتاة تحاول أن تربته.

ارتعش جسد كلير وهي تشاهد كومة خشب أخرى يُلقى بها في النار التي أشعلها أصدقاء أبيها.

ناداها نوزياس: «كلير لايميه لانميه». لم تلتفت إليه. تمنى لو كان بإمكانه إخبارها بأشياء قليلة قبل أن تبتعد عنه نهائيًا، أهمها أنه:

ذات ليلة، بعد أن عرف بحمل زوجته، ذهبا معًا إلى البحر ليلًا. بدا له في تلك الليلة أن الرياح تحيط بهما، وجد نفسه يدور في حلقات لا نهائية في منطقة صغيرة قبل أن يتجمد قاربه كأنه اصطدم بحائط. خشي أن يكونا قد غرسا في سلسلة صخور، لكنه استطاع دفع القارب إلى الخلف. لم يكن قد أشعل المصباح الذي استعاره من صديقه كالب بعد، حين خلعت زوجته ثوبها فجأة وجلست بملابسها التحتية فقط، وقوّست جسدها لتبدو كسهم موجَّه إليه.

لاحظ حينها تضخم بطنها وثدييها قليلًا وفهم أنها تحاول جعله يعتاد الأمر. لكنها، قبل أن يتفوه بشيء، دلّت قدميها من مؤخرة القارب، وكادت أن تُسقطه وهي تقفز في البحر. شق جسدها سطح البحر الذي يضيئه القمر. غمرت رأسها تحت الماء ثم رفعته مجددًا. تبتعد الآن عنه، تطفو جدائلها الطويلة على السطح كأنها منفصلة عنها. دفع القارب بسرعة ليلحق بها.

t.me/yasmeenbook

صاح: «كلير، أسماك القرش، قد توجد أسماك قرش!».

أخرجت رأسها من تحت الماء وأطلقت ضحكة عميقة لاهثة.

قالت: «ستأتي إن ظللت تصيح عليها هكذا، تعال وانظر هنا».

ارتاح وهو يقترب منها بالقارب ويرى ما جعلها تسبح للنظر إليه عن كثب. كان يحيط بها وهج مذهل. كأن موقعها في البحر مضاء من القاع. كانت، بداية من ثدييها المستديرين بشكل تام وحتى أسفل، في منتصف سرب أسماك صغيرة فضية، وكانت الأسماك تتجاهلها وتتغذى على بعض الطحالب اللامعة الطافية على سطح الماء.

توقف عن التجذيف وأراح ذراعيه وهو يتأمل جسدها الجديد وما - مَن - سيخرج منه بعد عدة أشهر فقط. كان البحر هادئًا إلا من الحركة الرقيقة لدوران ذراعيها وساقيها لتظل طافية. ابتعد بنظره عنها، لينظر إلى الماء. لكنه سرعان ما عاوده الرعب وصاح يناديها مجددًا: «كلير، عودي الآن يا كلير!».

ابتعدت عن سرب السمك وشقته نصفين وهي تسبح نحو القارب. وفي تلك اللحظة بدت كأنها «سيرين»، جنية البحر ذات الشعر الطويل والجسد الرائع. كانت «سيرين» بوجهها الملائكي كوجه تمثال العذارء البرونزي، فيما يُعتقد، هي آخر من يراه الصيادون قبل غرقهم في البحر، تتلقاهم بين ذراعيها قبل أن تضرب أجسادهم الماء. كان مثله مثل أغلب اصدقائه الصيادين، يحتفظ في قاربه، مع شباكه وسنارته وحبله وصفيحة الطعوم الصغيرة، بحقيبة من الخيش بها مرآة ومشط وصدفة محارة، كتميمة لجلب حماية «سيرين».

حتى همهمة البحر المعتادة بدت له مُنذرة إلى أن وصلت زوجته، وهي تسبح أسرع الآن، إلى القارب. مال وعرض عليها يده، فأخذتها وصعدت

مكتبة ياسمين

إلى القارب. اختفت الأسماك والطحالب اللامعة كما لو كانت سرابًا وعاد سطح البحر رماديًا هادئًا.

في القارب، والماء يتقاطر من جسدها، رفعت زوجته عنقها لأعلى تتطلع إلى تل الأنثيري وبيوته الضخمة الكثيرة بأضوائها في تكتلات بعيدة. أعلى تلك البيوت، أمام الجبل الذي لا فائدة منه، كان فنار الأنثيري. برجه الحجري مهجور عادةً، لكن من حين إلى آخر تأتي ذات ليلة مجموعة شباب، بروح المغامرة، ليدفعوا بابه الحديد في الأسفل، يصعدون سلّمه الحلزوني، ويضيئون بكشافاتهم من أعلاه، كأنهم يساعدون كشافه المعطّل. كانت تلك الليلة، من تلك الليالي. جففت كلير الماء المالح عن جسدها وهي تراقب الأضواء المتراقصة أعلى الفنار، ثم مالت نحو نوزياس.

قالت: «إن كانت بنتًا سيكون اسمها لايميه لانميه. لايميه لانميه.» نور البحر. سعلت قليلًا ثم أضافت بصوت عال: «كلير مثلي. ثم لايميه لانميه. كلير نور البحر».

«وماذا إن كان ولدًا؟»

«سيكون إذن نوزياس مثلك. ثم لايميه لانميه. نوزياس نور البحر».

ضحك لسخف الاسم بالنسبة لولد، لكنه راقه جدًا بالنسبة لبنت.

الآن، يوم عيد ميلاد كلير السابع، تأتي الأضواء من الفنار القديم أعلى التلال مرة أخرى. بعضها كشافات ضوئية، وبعضها مصابيح كيروسين. يضيؤها كلها، كما يعرف، صيادون صغار، إكرامًا لذكرى كالِب، صديقه.

ابتعد بنظره عن الأضواء ليسمع نفسه يقول لصاحبة محل الأقمشة: «ألن تغيري اسمها؟»

هزّت المرأة رأسها نفيًا.

t.me/yasmeenbook

«لن تتركيها تستقل موتوسيكلات الأجرة؟»

«أبدًا»، ارتفعت يداها إلى صدرها بتلقائية كأنها طُعنت فيه وقالت: «لن أفعل هذا ثانيةً أبدًا».

حتى بعد كل تلك السنوات من التوسل إليها لتأخذ كلير، لم يتوقع أن يحدث هذا أبدًا. لكن لا تراجع الآن: من الآن فصاعدًا تعدّ كلير ابنته ابنة صاحبة محل الأقمشة.

قالت المرأة: «توجد أوراق عليك أن توقّعها قبل أن تغادر روز فيل».

«لديّ خطاب مكتوب لها، يمكنك تسليمه لها حين تكبر».

«وهو كذلك»، وافقتْ.

«شكرًا لكِ»، أضاف شاعرًا بوخزة الألم نفسها التي تنتابه أحيانًا عند قبر زوجته.

سيحاول نوزياس فيما بعد أن يعرف من أين أتت ابنته بالشجاعة لترفع ذراعها النحيل في تلك اللحظة. كان قد استهان بارتباطها بأمتعتها القليلة وافترض أنها لن تحتاجها في حياتها الجديدة. لكنها في تلك اللحظة، رفعت يدها وأشارت إلى الكوخ.

قالت كلير: «بعد إذنكما، الأشياء». لم تقل أشيائي، بل الأشياء، كأنها تعرف أن لا شيء في العالم يخصّها حقًا.

راقباها وهي تسير نحو الكوخ، تمر بمجموعات الأطفال المختلفة من بينها الفتيات اللائي كانت تلعب معهن، وتتجاهل محاولاتهن لفت انتباهَها. منذ أن عادت إليه وهي في الثالثة ظل نوزياس يرى فيها أمها دائمًا. تُحرك كل منهما جسدها الرشيق اللين بالطريقة نفسها، الذراعان ملتصقان إلى

مكتبة ياسمين

الجانبين أثناء السير، الساقان تتحركان ببطء شديد، وتمشيان الهوينى خطوة تلو أخرى. شاهدها تدفع باب الكوخ المفكّك، ثم شخص ببصره بعيدًا.

ليس لديها أشياء كثيرة، فكّر، فقط تنورتان زرقاوان وقميصان أبيضان، زيّا المدرسة، وثوب عيد ميلادها الوردي الذي ترتديه، وآخر من العام الماضي، ورداء نومها، وكراساتها وكتب القراءة، ومرتبتها والبطانية التي تغطي بها فراشها، والتي كانت لأمها. لن تستطيع حمل كل هذا بنفسها. حتى إن صاحبة محل الأقمشة قد لا ترغب في تلك الأشياء في منزلها. جايلي، اسم صاحبة محل الأقمشة جايلي. يمكنه الآن التفكير فيه مجددًا. يمكنه الآن قوله. يمكنه على الأقل مخاطبتها بمدام جايلي. مدام جايلي كادي لافود. باتت ابنته الآن ابنة مدام جايلي.

كانت مدام جايلي تنقل وزن جسدها الممتلئ من قدم متقلقلة في نعلها إلى أخرى. نظرت إلى الدرجتين الخشبيتين المؤديتين إلى الكوخ، ثم نحو النار التي بدأت تخمد، حيث كانت زوجة كالِب، جوزفين، تجلس محاطة بأصدقائها من الكنيسة.

يبدو من مواقع النجوم في السماء أن الوقت يقترب من منتصف الليل. انطفأت الأضواء على الفنار، وقلّ الزحام كثيرًا. كان أبناء البلدة يغادرون واحدًا إثر الآخر، يعودون إلى منازلهم. شعر بالحزن لأنه لا يجد ما يقوله للمرأة التي جاءت لتهب كلير حياة جديدة، المرأة التي ستعدّها ابنته من الآن فصاعدًا أمها.

تسأل مدام جايلي الآن: «ما الذي ستحضره معها؟»

قال وهو ينهض: «سآتي بها».

شعر وهو يسير بنظرتها من خلفه والتي تحمل حكمًا عليه. بذل قصارى

t.me/yasmeenbook

جهده لئلا يسقط على ركبتيه، كلما داست إحدى قدميه في الرمل يثق أنه سينهار. لكنه شعر، حتى قبل أن يدخل الكوخ، أن كلير ليست بالداخل. فتح الباب ليرى؛ وكان محقًا. فراشها مغطى ببطانيتها كالمعتاد، لم يُمس منذ أن سوّته ذاك الصباح. زيها المدرسي معلق على المشجب المعدني على الحائط. دفترها وكتب القراءة على وسادتها في كومة مُرتّبة.

بساقين ثابتتين الآن، ركض نوزياس نحو البحر وهو يصيح مناديًا كلير. ثم استدار عائدًا وسار في الأزقة الضيقة بين الأكواخ إلى زقاق نخيل جوز الهند البحري[1] الذي يؤدي إلى تل الأنثيري.

لحقت به مدام جايلي، وهي تنادي معه كلير. نادى آخرون أيضًا، في اتجاهات مختلفة. ترك مسيو سالِفان وبعض أبنائه وأحفاده فرنهم الطيني، الذي يخبزون فيه، مشتعلًا، ليبحثوا هم أيضًا عن كلير. ترك مسيو زافير، صانع القوارب، أدواته ولحق بهم. انضمت أيضًا مدام ويلدا، غازلة الشباك، إلى الجمع المتجه إلى شاطئ البحر، بحثًا عن أي بادرة على حركة غير طبيعية.

بعد فترة من البحث عن كلير دون العثورعليها، ذهب عدد من الجيران إلى نوزياس وطرحوا عليه أراء كثيرة حول فكرة أنها ربما قد غلبها النوم في مكان ما وأنها سوف تعود إلى البيت سريعا.

جاءت زوجة كالب، جوزفين، لتحتضنه. وجهها منتفخ من البكاء لساعات طويلة، ووشاح الحداد حول شعرها الخشن منزلق إلى خلف عنقها. كانت خرساء وتعاني من مرض الفيل في قدمها اليمنى، التي كانت بحجم قدمها اليسرى مرتين. تحركت ببطء وتحدثت بيديها بالطريقة التي صار

---

(1) جوز الهند البحري أو نارجيل البحر نخيل ينمو على الشواطئ ثماره وبذوره ثقيلة وضخمة، ومدرج في القائمة الحمراء للأنواع المهددة بالإنقراض. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

نوزياس وقلة آخرين من أصدقاء كالب يفهمونها على مدار السنين. لمستْ شفتيها وأشارت ما معناه: «سيدي، شكرًا لك»، لم يدرِ علامَ تشكره. ألنشره خبر وفاة زوجها بين جيرانهم؟ أم لشهوده لحظة الموت نفسها؟ ضربت بكلتا يديها على صدرها بما معناه «الشجاعة»، ربما تتمناها لنفسها وله.

ثم ابتعدتْ تعرج وتجرّ قدمها الثقيلة خلفها. بدأ نوزياس يطلب من المتجهين إلى البلدة أن يبحثوا جيدًا عن ابنته. لكنه بداخله كان يشعر بارتياح. كان على يقين من أن كلير ستعود، وكان يريد أن يكون موجودًا حين تعود.

عرضت مدام جايلي سيارتها المرسيدس البيضاء. قالت إن بإمكانهم قيادتها في أنحاء البلدة، للبحث عن كلير. لكنه كان واثقًا من أن كلير لم تذهب بعيدًا لهذه الدرجة، وأراد أن يكون أول من تراه حين تعود.

«لن يمكنني الذهاب»، مدّتْ مدام جايلي يدها وعصرتْ كتفه، «لقد اختفتْ بسببي».

ربما كانت محقة. لم تفعل كلير شيئًا كهذا من قبل قط. نعم، كانت أحيانًا تسير بعيدًا، تتجول في أنحاء البلدة، كما كانت عادة أمها. لكن كان أحد ما - إن لم يكن هو فإحدى النساء اللائي يرعينها في غيابه - دائمًا ما يعرف في أي اتجاه ذهبت، إلى أين تذهب، ومتى ستعود. مع ذلك رأى أنه ليس من الصواب ترك مدام جايلي تضيّع وقتها لحين عودة كلير، واقفة هكذا على الشاطئ. شعرتْ هي بانزعاجه من الأمر فاقترحت أن تنتظر في كوخه.

قالتْ: «لا تقلق نوزياس، ألم أجئ إلى هنا من قبل؟»

يبرق ثوبها اللامع الآن كأنه قطعة من القمر. رائحتها جاردينيا، كدهان الشعر برائحة الجاردينيا الذي تضعه زوجات الصيادين أحيانًا على فروة رأس كلير. دخلت مدام جايلي الكوخ، تمامًا كما فعلت العام السابق، حين

t.me/yasmeenbook

جاءت لتراهما. لكنها جلست هذه المرة على فراشه. عيناها كثقبين خاليين، ميّز نوزياس فيهما خواءً مألوفًا لديه لكنه لا يمكنه مواجهته أبدًا، ولا حتى في نفسه. كأنها هنا وليست هنا حقًا. فتحت فمها ثم أغلقته، دون أن تتفوه بشيء. بدا أنها تتذكر أشياء لا تستطيع النطق بها.

كان هو، مع ذلك، منشغلًا بمسكنه المتواضع، بالطريقة التي هبط بها فراشه تحت ثقلها. بتراقص شعلة مصباح الكيروسين بين الظل والضوء. هل الجو حار جدًا بالداخل؟ تساءل. بارد جدًا؟ ساطع جدًا؟ قاتم جدًا؟ جعله تماسكها في جلستها يخجل من توتره، من صِغر وضعة عالمه.

قال: «ستعود سيدتي، بعد إذنك».

تراجع نحو الباب بظهره كأنها إهانة بالغة أن يدير ظهره لها. ثم تركها وحدها في الكوخ وذهب لينتظر بجوار الصخور التي كانا يجلسان عليها مع كلير قبل أن تختفي.

مكتبة ياسمين

الضفادع

قبل عشر سنوات من ليلة ظهورها لأخذ ابنة نوزياس فوستين، كانت جايلي كاديه لافود تنتظر مولودها هي. كان صيفًا حارًا جدًا في فيل روز ذاك العام لحد أن ماتت عشرات الضفادع. أرعبت تلك الضفادع ليس فقط الأطفال الذين كانوا يطاردونها حتى تختفي في الأنهار والشقوق وقت الغروب، أو الآباء الذين كانوا يسارعون بأخذ الجثث اللزجة من بين أصابع الصغار، لكن أيضًا جايلي، الشابة ابنة الخامسة والعشرين حينذاك، والحامل في شهرها السادس، وتخشى بالفعل من أن تنفجر إن استمرت درجات الحرارة في الارتفاع. ظلت الضفادع تتناقص لعدة أسابيع، لكن جايلي لم تلحظ الأمر في البدء. كانت تتناقص بهدوء شديد، بحيث يحل ضفدع جديد مقابل كل ضفدع يموت في أرجاء وادي الصخور القريب من منزلها، جميعها متشابهة، تجعلها تفكر في دورة الحياة الطبيعية، يحل الجديد محل القديم، وتحل الحياة محل الموت، ببطء أحيانًا، وبسرعة أحيانًا. مثلما في كل شيء آخر.

بعد أن قضت ليلة مؤرقة ظلت تحلم فيها بجثث الضفادع تطاردها وتندفع في فمها ثم إلى حلقها، استيقظت جايلي لكنها ظلت تحت ناموسية فراشها ذي الأربعة أعمدة من خشب الماهوجني، فيما يغادر زوجها لورينت الغرفة.

فتحتْ عينيها فقط حين سمعتْ رنين جرس الخدم في غرفة الطعام، وشكوى زوجها المفرطة لإيناس، مدبرة المنزل، بخصوص البيض المقلي

t.me/yasmeenbook

والرنجة. لكنها لم تنهض من الفراش إلا بعد أن سمعت صوت محرك سيارة زوجها البيجو الكابورليه القديمة، يعلن مغادرته إلى محل الأقمشة.

نهضتْ سريعًا بعد أن غادر. ودون أن تغير ملابس نومها، سحبت المبولة السيراميك التي تبقيها بجوار فراشها، ودون أن تراها إيناس النشيطة دائمًا وأبدًا، خرجتْ جايلي من المنزل وسارت في ممر أشجار اللوز المؤدي إلى حقل من نجيل الهند[1] الكثيف، ثم إلى جدول ماء.

لم يمر وقت طويل منذ شروق الشمس التي كانت رغم ذلك تتّقد بالفعل في كبد السماء. مع ذلك شعرت جايلي ببرودة الحصى والصخور تحت قدميها الحافيتين. تسير عليهما بسهولة كما تسير على الطين أو النجيل، في اتجاه جريان الماء، حتى تقع عيناها على أول ضفدع، على بُعد بوصات قليلة من أقرب أجمة زهور زنبق، وجدت ضفدعًا أخضر بقرنين يبدو كورقة شجر ذات قرون، ساقاه كساقيّ دجاجة وعابس تقريبًا. بعده بقليل، وجدتْ ضفدع أدغال قزم بني، هيئته الضفدعية أكثر طبيعية، ما عدا ما يبدو كإصبع وسطى طويل في قدميه الخلفيتين، وضفدع ثالث صغير من نوع سكارليت كوكي، يُعتقد أن نقيقه الرخيم المتقطع يُغوي الرضّع للنوم.

دققت جايلي النظر. كانت الضفادع الثلاثة ميتة، مع ذلك بدا موتها طبيعيًا أكثر من البقايا الجافة التي كانت تجدها مؤخرًا. متكوّرة على نفسها كأنها تجمدت في منتصف قفزها أو زحفها.

ربتت جايلي بيدها على بطنها ومالت لتلتقط الضفادع وتُلقي بها في المبولة. سارت إلى شجرة لوز معينة حيث ظلت يوميًا طوال الأسبوع الماضي

---

(1) نبات هندي ذو جذور عطرية الرائحة موطنه الأصلي الهند لكنه ينتشر أيضًا في مناطق استوائية أخرى مثل هاييتي وجاوا. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

تمارس طقس دفن صامت لحفنة من جلود الضفادع، حملت المبولة أمامها على مستوى بطنها. في أغلب الصباحات حين تصل إلى الجدول، تتمنى أن تجد على الأقل ضفدعًا واحدًا حيّ، لكن التقاط الضفادع الميتة يشعرها بأنها مفيدة، كأنها تؤدي خدمة جليلة لا أحد غيرها يمكنه أو يرغب في تأديتها. أحيانًا يبدو الأمر أيضًا كامتداد للعبة الطفولة تلك التي كانت هي وزوجها يحبانها كثيرًا وهما صغار: دفن السحالي في علب الثقاب، والفراشات واليراعات في مرطبانات زجاجية. وبالرغم من عزمها كل مرة على أن تكون تلك الجولة الصباحية هي الأخيرة لها، لكنها لم تستطع التوقف، كانت واثقة من أن الضفادع في حاجة إليها وأنها هي في حاجة إلى الضفادع.

حفرت بأصابعها في الطين المبلل بالندى حفرة تكفي لدفن الضفادع أسفل شجرة اللوز، ثم عادتْ إلى البيت وقضت اليوم في الفراش. بعض الأيام تشعر بحرية شديدة لحد أن تنسى حملها تمامًا، وفي أيام أخرى، كاليوم، تشعر كأن في بطنها جُحرًا للثعابين. في تلك الأيام تجلب لها إيناس وجباتها في الفراش، لكنها بالكاد تأكل شيئًا: إفطارًا من موز مسلوق وبيض مقلي، وغداءً من الأرز والفاصوليا، والسمك المقلي واللحم المطهي بالبخار لتسمين الجنين، يبدو كل هذا لها أقل شهية من الضفادع الميتة التي زرعتها في الأرض.

«من المؤكد أن هذا الحر ومشاكل الضفادع تلك نذر لشيء ما فظيع سيحدث». أخبرها لورينت حين عاد ذاك المساء من البلدة. مال عليها ليقبل خدها، وجهه غارق بالعرق.

لورينت لافود - أصدقاؤه يدعونه «لولو»، وزوجته تدعوه «لول» - رجل ضئيل الحجم، أنحل وأقصر من جايلي وهي حافية. له شعر كثيف يشبه حبات الفلفل الخشنة، وابتسامة عريضة يبدو أنه لا يستطيع كبحها حتى

t.me/yasmeenbook

وهو غاضب. من عائلة خياطين وأصحاب محلات أنسجة، ولديه وفرة من الأقمشة في محله الخاص في البلدة تجعله يرتدي ملابس جيدة جدًا، ويفضل مؤخرًا القمصان الخفيفة المخيّطة له خصيصًا والبناطيل القطنية الفضفاضة.

أخبرها لورينت، وهو يجلس على أحد الكرسيين الهزازين على الشرفة، كيف رأى، وهو يغادر مبنى محطة الإذاعة الوحيدة في روز فيل، إذاعة زواريا، أو إذاعة الأُذن، حيث يموّل برامج ويجلس أحيانًا في الاستديو ليستمع إلى البث قليلًا، بعض شباب العصابات في الشارع أمام مبنى الإذاعة. كانت جايلي تربت بيدها على بطنها، كعادتها الآن، وبيدها الأخرى تُهوّي نفسها بقبعتها القش، وتتظاهر أنها تسمع ما يقوله حين قالت: «لا تفكر في الأمر لورينت، ستفقد شهيتك».

أومأ برأسه، ثم عاد إلى الحديث عن الضفادع: «لم أسمع طيلة حياتي عن مخلوقات تموت هكذا».

ظل لورينت، كشخص بالغ، يدخن أوراق التبغ الملفوفة يدويًا كثيرًا. لكنه أحيانًا، حين يكون عليه إعلان شيء ما - كان صوته من ذلك النوع الذي يبدو دائمًا كأنه سيعلن شيئًا - يلهث قليلًا.

يقع منزلهما وسط سهل منبسط في مجرى سيل الفيضانات، بالقرب من رافد يضم العديد من الجداول والأنهار، فكرتْ جايلي أن مئات الضفادع المتعفنة ستعدّ كارثة محدقة. كانت كل صباح تتشمم النسيم بتركيز دون أن تجد أدنى أثر لرائحة ضفادع ميتة. لكنها أدركت أن تعرّض جلودها اللامعة وأعضائها الضئيلة للشمس يجعل أغلبها يجف ويتحلل أسفل أجمات الزنابق أو في مجرى النهر.

إنّ عدم وجود رائحة عفن في الهواء لهو من حسن الحظ. في تلك المرحلة

مكتبة ياسمين

من حملها كانت أغلب الروائح تحمل جايلي على تكلف القيء. مع ذلك كان ثمة رائحتان لا تؤثران فيها البتة: الرائحة الرطبة للضفادع الميتة، والرائحة الحِبرية للملابس الجديدة، التي كانت تحبها بشدة لحد أن كان زوجها يشك في أنها تقضم الأقمشة سرًا حين تكون في محلها.

بعد أسابيع قليلة من بدء موتها، اختفت الضفادع وجثثها تمامًا. كنست أمطار الصيف المبكرة مستعمرات الضفادع من جداول وأنهار البلدة ثم كستها بطبقة سميكة من الطين الرملي بالقرب من منزل جايلي ولورينت. كان اندفاع المياه من القوة بحيث انتزع الجذور الطويلة للنجيل الهندي الغضّ الذي ينمو بوفرة بجوار البيت. كانا قبل سنوات قد جنيا ربحًا من نجيلها الهندي الوفير الذي لم يكن جيدًا للتربة فقط، بل كان أيضًا مَطلبًا لشركتي عطور في مدينة ليكاي الجنوبية القريبة. في تلك السنوات التي نما فيها نجيل الهند بوفرة، استغل لورينت وجايلي المال الفائض لزراعة عدة صفوف أخرى من أشجار اللوز بالقرب من الحدود الخارجية لملكيتهما. جايلي تحب أشجار اللوز على وجه الخصوص. فكانت قبل أن تَحمل وينتابها منها بعض نفور، تحطم ثمارها الليفية على صخور النهر لإخراج حبات اللوز منها.

ذات مساء، لاحظتْ إيناس، المرأة الحليقة ذات الصدر البرميلي التي ظلت مدبرة منزلهما منذ أن تزوجا، أن لورينت يعود من المحل متأخرًا على نحو متكرر، فاستقبلته بكوب عصير ليمون على صينية فضية.

سألته إيناس بصوت عميق وآمر كصوته: «هل ستتناول طعامًا هذا المساء سيدي؟»

هز لورينت رأسه نفيًا. لم يكن يحب الأكل ليلًا وكان دائمًا ما يعود إلى البيت بعد تناوُل زوجته عشاءها.

t.me/yasmeenbook

خطر لجايلي - كما قد يكون قد خطر لإيناس - أن لورينت، الذي تعرفه منذ صغرها، وحمَلت منه بعد شهر واحد من زواجهما، قد يكون على علاقة بامرأة أخرى في البلدة. لكنها تعرف اهتمامه بالإذاعة أيضًا - كان شغفه بمشاهدة مذيعي وضيوف البرامج من غرفة التحكم بنفس قوة رغباته الجنسية - فكانت تصدقه حين يقول إن هذا ما يفعله في البلدة بعد إغلاق المحل.

في المساء التالي، عاد لورينت إلى البيت مبكرًا في يده باقة زهور أزاليا حمراء لجايلي. خلال الشهور القليلة الماضية عرفت جايلي أن بوسعها التسامح مع أخطاء زوجها ومشاكله، طالما تنتهي بزهور الأزاليا الحمراء، ثمة راحة في هذا.

هربًا من الحر ركبا سيارته الكابورليه وأزاح لورينت سقفها وقاد إلى الجزء الأقدم من البلدة، مرّا بالبرج المكسو باللبلاب لقلعة بدأت أعمال بنائها حين كانت هاييتي ما زالت مستعمرة فرنسية، كهدية لشقيقة نابليون بونابرت، بولين. توقف بناء القلعة، التي تعدّ أحد الآثار المميزة في البلدة، عام 1802، حين مات زوج بولين بونابرت بالحمى الصفراء وأبحرت بجثته عائدة إلى فرنسا. بقت بعض جدرانها الحجرية، ومع ذلك لم يجد أحد سبيلًا لتحويلها إلى معلم رسمي. كانت النباتات الدرنية تنمو في موضع غرفة الرسم الخاصة ببولين، ومخدعها، ترعى عليها الأبقار والماعز. يلعب الأطفال مبارايات كرة القدم فيما كان يجب أن يكون حديقة الحيوان لمجموعة بولين الضخمة من الحيوانات المحلية المتوحشة.

بعد أن مرّا بحطام القلعة، التي تُدعى «آبيتاسيون بولين» (قلعة بولين)، قاد لورينت في الطرق القديمة خلف حقول قصب السكر والسطح الذي يشبه المظلة من نبات الكلِرين النامي. ملئت رائحة الخمر الخام الشارع

مكتبة ياسمين

بأكمله؛ يُقال إنك لو وقفت هنا وقتًا طويلًا بما يكفي قد تسكر من الهواء فقط. جرّب لورينت وجايلي هذا الأمر كثيرًا دون أن يحدث شيء. حاولًا مجددًا تلك الليلة استنشاق بعض السعادة الكسولة وخفة الرأس الجبرية، دون أن يحدث شيء أيضًا. واصلا إلى مدرسة الليسيه عند المعطف. طابقها الأول من الأسمنت وطابقها الثاني من الخشب. أغلب المباني في هذا الجزء من البلدة على هذا الطراز، بخلطات عشوائية من مواد البناء يطلقون عليها «تراثًا معماريًا».

كانت تلك الجولات، بالنسبة لجايلي، رحلات إلى الماضي. حين كانا طالبين في تلك المدرسة. كان لدى قلة قليلة جدًا من أهل البلدة سيارات، وكان الحلم بامتلاك سيارة خاصة بك وحدك يشبه الحلم بأن يكون لديك طائرة في فنائك الأمامي. حين كان لول في السابعة عشرة من عمره، واشترى له والده تلك البيجو السوداء ذات السقف المكشوف التي ما زال يقودها، صار قائد المجموعة، الأمير بين زمرته، وصارت هي، عروسه المحتملة، المسؤولة عن جدول جولات السيارة، تنظم الرحلات، وتقرر من يمكنه ومن لا يمكنه الانضمام إلى دائرتهم الداخلية. كانا في أيام عيد القديسة روز دي ليما، وبسبب غلاء سعر الورود وعدم حب جايلي للزنابق، يُزينان مقدمة السيارة بزهور الأزاليا الحمراء، وكانت تجلس بجانبه على المقعد المجاور للسائق وهو يقود في الموكب الديني بسقف السيارة مكشوفًا.

قادا صاعدين التل نحو فنار الأنثيري القديم، قريبًا من المنطقة التي قضت فيها جايلي طفولتها. أوقفا السيارة أمام بوابة منزل جدّيها المغطاة بأشجار الجهنمية. ظل المنزل مهجورًا منذ أن انتقل أبواها إلى بورت أو برانس. ينظران الآن إلى الأفق المظلم أعلى الشاطئ، أضاء زوجها الكشاف الأمامي للسيارة قبل أن يترجلا منها. سارا في طريق طويل وضيق عبر زقاق النخيل

t.me/yasmeenbook

يؤدي بالأسفل إلى الماء. ثم سارا متشابكي اليدين بين الزوارق والقوارب الشراعية المسمى أغلبها بأسماء قديسين وأمهات ومحبوبات أو زوجات. نوافذ بيوت الصيادين مفتوحة حتى في هذه الساعة المتأخرة. بعد كل مسافة قصيرة تجد مشهدًا خاصًا في ضوء مصباح كيروسين أو مصباح محمول: أُم تهدئ طفلها أو تضربه، زوج وزوجة يتشاجران، زوجان آخران عاريان، عشاء متأخر من الشاي والخبز المغمور فيه.

زوجات الصيادين يصِحنَ عليها ليُحيينها هي ولورينت فيما يمران. كانت تلك ميزة ولعنة في بلدة كبلدتهما، قرية نوعًا ما، حقًا، سيظلا هما وأسرتيهما ينتميان إليها دائمًا.

كنّ يصحن خلفها: «هواء البحر جيد للجنين».

الجنين؟ ماذا يعرفن جميعًا عن الجنين؟ سرعان ما سيعرفن كل شيء، لكن حتى الآن تظل حكاية الجنين شأنها هي فقط، هي ولورينت فقط.

لم تكن جايلي ترغب في اكتشاف نوع الجنين، ولكن، ولأن طبيب النساء في مستشفى سانت تيريزا قال إن الجنين ينمو ببطء شديد فقد أصر على عمل سونار. فعرفا أن الجنين طفلة، وأن لديها كيس ينمو في صدرها وعلى عمودها الفقري بأكمله، وأنها لو عاشت حتى موعد الولادة، فالأرجح أنها ستموت بعدها بوقت قصير. كان رأي كلّ من الطبيب ولورينت أن تخضع جايلي لعملية إجهاض قبل أن يتطور الأمر. لكنها أرادت أن تنفذ الحكم بأكمله، أن تمر بالأمر كله حتى النهاية.

في الصباح التالي كان على لورينت الاهتمام بشأن ما في البلدة فطلب من جايلي أن تقضي بضع ساعات في محل الأقمشة بدلًا منه. رحبتْ جايلي. تحب الوقوف خلف المنضد وتحية الزبائن الذين يمنحونها الفرصة لبسط اللفائف

مكتبة ياسمين

الضخمة من الموسلين والقطن والأورجانزا والجبردين المرصوصة على أرفف المحل المكدسة. على أمل أن يصرف كل هذا ذهنَها عن مسألة الطفلة.

كانت أول زبونة لجايلي ذاك الصباح هي كلير نارسيه، شابة جميلة، يجعلها شعرها الطويل المضفّر بعناية إلى الجانبين تبدو كطفلة أحيانًا.

منذ أن أصبحت جايلي حاملًا، ظلت كلير نارسيه، مثلها مثل الآخرين جميعًا تقريبًا، تجلب لها هدايا صغيرة قليلة من حين لآخر حين تأتي إلى المحل. في الغالب طعام، أحيانًا سمك طازج، اصطاده رجلها، وجاءت به إلى المحل لتريه لجايلي أولًا قبل أن تحمله إلى إيناس لتطهوه طازجًا. وأحيانا أخرى ثمار مانجو أو أفوكادو أو بطاطا. لكن من حين لآخر كانت كلير نارسيه تهديها شيئًا للجنين، بطانية أو ثوب، لا باللون الوردي ولا الأزرق، بل بلون أصفر أو أخضر، كأنها تسأل بهدوء عن نوع الجنين. جلبتْ هذه المرة بطانية خضراء مؤطرة بشريطة بيضاء باعتها لها جايلي الأسبوع الماضي دون أن تعرف غرضها الحقيقي. ذاك الصباح، بحاسة شمّها مشحوذة بسبب حملها، شمّت جايلي رائحة الموتى الذين تغسلهم كلير نارسيه في دار جنازات ألبرت فنسنت طوال الوقت. التقطتْ جايلي أثر سوائل التضميخ ومطهر برائحة الليمون حاولت أن تتجاهله وهي تفك حبل محلها البيج ذاته، وتفتح لفة ورق محلها البني ذاته لترى هدية كلير نارسيه.

قالت كلير نارسيه وهي تنظر إلى أسفل كما يُتوقع من أصحاب المكانة الدنيا في الحياة: «أعرف أنه ليس من حسن الحظ تقديم هدايا كهذه قبل مجئ الطفل».

مدّتْ جايلي يدها أعلى المنضد ورفعتْ وجه كلير نارسيه، هزته برفق في راحتها. لا مجال لفعل أو قول شيء آخر. كان زبائن آخرون يدخلون، ومع أنها لديها اثنان غيرها من المساعدين، كانت جايلي هي الوحيدة التي يثق بها

t.me/yasmeenbook

لورينت في تحصيل الإيراد.

قالت جايلي لكلير نارسيه وهي تنظر في عينيها مباشرة: «شكرًا لكِ على كل هداياكِ، لكن لا داعي للمزيد».

بدأ مطر خفيف يسقط في الخارج. وحين بدأت الشمس تتوارى والهواء يثقل ويعلو صوت المطر شيئًا فشيئًا على السطح الصفيح للمحل، دخلت مجموعة من المارة المبللين إلى مساحة العرض في المحل ووقفوا هناك ملتصقين ببعضهم البعض في المساحة بين المنضد والباب. كانوا هادئين، على غرابة هذا، فيما ينهمر المطر بغزارة متزايدة مُحوِّلًا التراب إلى طين.

ظلت جايلي مشغولة باحتمال فيضان الأنهار القريبة من منزلها مجددًا، لتأتي بتلك الزحاليق الطينية من أعلى التلال. كان منزلها هي ولورينت الوحيد الآن على هذا القرب من الأنهار. ظلت المنازل الأخرى، الأحدث لكنها أكثر هشاشة، تنجرف مع التيار عامًا بعد آخر في الفيضانات المفاجئة، كثير منها بأسر كاملة بداخلها. كان لورينت قد سارع بعد خِطبتهما باختيار الأرض والموقع كمفاجأة. رسم تخطيط المنزل بنفسه وقضى الليالي، بعد العمل في المحل، في تحديث ومراجعة كل تفاصيل البناء. قاد سيارته إلى العاصمة لشراء الأسقف الجملونية وزجاج فتحات التهوية بنفسه. (رفض إتمام الزواج قبل الانتهاء من المنزل). لذلك، فالآن، وبعد كل هذا، لم يكن ليجمع أمتعته وينتقل منه ببساطة.

فلاحون كثيرون في القرى المجاورة لروز فيل عنيدون هكذا. يعقد لورينت في محله اجتماعات كثيرة للفلاحين المقيمين على ضفاف النهر شمالًا وجنوبًا، يحذرهم من فيضانات الأنهار كنتاج نقص الأشجار، وتجريف التربة، وتجفيف سطحها.

مكتبة ياسمين

كانوا يسألونه: «ماذا تريدنا أن نفعل مسيو لافود؟ جِد لنا بديلًا للخشب الذي نحتاجه لإشعال النار وسنتوقف».

كان لورينت أحيانًا، في محاولاته لوقف الفلاحين عن القضاء على الأشجار، يصل إلى قاع التشبيهات وأكثر التوسلات ميلودرامية.

كأن يقول مثلًا: «إن الأمر كقتل الأطفال».

فيُجيبونه: «إن اضطررنا لقتل أطفال الأشجار لإنقاذ أطفالنا نحن، فسوف نفعل هذا، بكل هدوء».

والآن، بسبب احتياجات أبناء البلدة والفلاحين سيغرق منزل أحلام زوجها. قد تصحو هي ولورينت ذات يوم ليجدا نفسيهما طافيين في فراشهما، وقد يضطران إلى التسلق أعلى سطح المنزل حتى يهدأ التيار. تفكر في كل هذا بصمت ويداها في خصرها العريض من الخلف. حتى إنها قد تضطر إلى الولادة بين أغصان شجرة؟

قالت كلير نارسيه بصوت عال كالرعد ليعلو فوق جميع الأصوات الأخرى بما في ذلك زخات المطر:«هذا فظيع»، وأضافت كأنها تترجم كل ملامح القلق المرتسمة على وجه جايلي:«بكل هذا الحر والمطر هذا العام، إما سنذوب أو سيجرفنا التيار».

واصلتْ جايلي قياس ما طلبته كلير، أضافتْ ياردات قليلة أخرى كهدية، امتنانًا، وتركت مواصلة النقاش للآخرين الذين لاذوا بالمحل.

«لم تكن تلك الضفادع التي ماتت مبكرا هذا العام، علامة جيدة أيضًا». قالت سوزان بونسيه، صاحبة محل الزهور التي بلغت الثمانين من عمرها، والتي كانت ملكة جمال هاييتي في الحرب العالمية الثانية، الوحيدة التي شاركت في النقاش بالفرنسية أكثر من الكريولية. انفجرت كافة الأصوات

t.me/yasmeenbook

الآن، تصم السمع تقريبًا في مساحة المحل الصغيرة، تُنافس صوتها.

قال إيليا، أفضل ميكانيكي سيارات في البلدة: «موت الضفادع ليس سيئًا على الإطلاق، عرفت ذات مرة امرأة مجنونة كانت تلتقط الضفادع الصغيرة من على ضفة النهر وتلقيها في فمها، ابتلعتْ تلك المرأة الكثير من الضفادع السامة إلى جانب الصغيرة والملونة، وماتت بسبب هذا، هكذا يقول الناس، لذلك فالأفضل للأطفال والمجانين ألا توجد ضفادع في الأنحاء».

دسّت مدام بونسيه يدها في جيب ثوبها الوردي المنتفخ وأخرجت نسخة مطوية من جريدة البلدة الأسبوعية. أشارت إلى مقال عن الضفادع الميتة، وشرحت لمن لا يمكنهم القراءة، ماذا يعني الإربتولوجي، أو علم دراسة الزواحف والبرمائيات، ومنها الضفادع. كاتب المقال عالم زواحف جاء من باريس خصيصًا لمعرفة أسباب موت الضفادع. وقد وضّح عالم الزواحف هذا، حسبما قالت مدام بونسيه، أنه بعد فحصه جثث الضفادع وعينات الطين والمياه التي أخذها من محيطها، ومع اعتبار المناخ والارتفاع الشديد في درجات الحرارة في روز فيل ذاك الصيف، فهناك احتمال أن يكون السبب في موت الضفادع مرض فطري يسببه ارتفاع درجات الحرارة عن المعتاد.

هدأتْ الأمطار وعادت الشمس سريعًا لتتقد مجددًا بالخارج. عاد من لاذوا بالمحل إلى الشارع. قرعت أجراس كنيسة القديسة روز دي ليما منتصف الظهيرة، وعادت الحركة الدائبة للشاحنات ووسائل النقل العام الأخرى لسيرها مجددًا، تنشر لطخ الوحل في كل مكان.

قالت جايلي وهي تناولها لفة طلبها: «سيدة كلير».

هبطت عينا كلير لأسفل مجددًا، كتفاها منحنيان وهي تقول قبل أن تغادر: «علينا أن نعتني ببعضنا البعض».

مكتبة ياسمين

جاءت الصباحات القليلة التالية مشتعلة بشظايا ضوء النهار تتقاطع على أرضية المنزل من خشب الماهوجني في جميع الاتجاهات. كانت تلك الصباحات - الهادئة المنقوعة في الشمس - تبدد كل مخاوف جايلي بشأن الطفلة، وحتى بشأن العيش عرضة للفيضانات الخطيرة.

ذات صباح من تلك الصباحات، بعد أسابيع قليلة، كانت جايلي تخطط للعمل في المحل طوال النهار مع لورينت، وكان هو ينتظرها في السيارة. كانت تكره ارتداء المومو[1]، لكنها في هذا التوقيت، ليس لديها خيارًا آخر.

صار المقعد بجوار السائق صغيرًا بالنسبة لها بعد أن تضخمت بطنها. كان بابها مغلقًا ولورينت يجلس بالفعل في السيارة، ينظر بشرود لأسفل إلى الممر الحجري المؤدي إلى الطريق. قبل الحمل كانت لتقفز إلى الداخل دون أن تفتح الباب، لكنها الآن لا تستطيع ذلك.

فتح لورينت الباب من الداخل، مد يده وساعدها في حشر جسدها على المقعد. ثم عاد بظهره إلى الوراء ووضع يده في حِجرها وربت عليه برفق، كعادته، كأنه يتناغم مع إيقاع ما.

قالت قبل أن يدسّ المفتاح ليدير المحرك: «أريد أن أُسمي الطفلة روز».

سألها: «على اسم «سو روز»؟»

أومأت.

كانت سو روز جدة قريبة لجايلي، المرأة الملونة الحرة، الثرية، التي كانت تعتق العبيد، والتي أسست البلدة بعد رحيل بولين بونابرت. كانت والدة سو روز نفسها من العبيد، وأبوها الفرنسي، قد سمياها تيمنًا بالقديسة روز

---

(1) المومو ثوب فضفاض من أصول هاواوية. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

دي ليما، راعية الإقليم الجنوبي بأسره.

أرادت جايلي أن تخبر زوجها أنها ستظل تحب الطفلة سواء كانت ميتة أم حية، مشوهة أم سليمة. تحب أن الطفلة ستربطهما معًا بمرور الزمن، وأنها ستولد في العام الأول لزواجهما. كانت تريده أن يعرف أنها لن تحتمل فكرة فراق تلك الروز قبل أن يتحتم عليها ذلك. لكنها بدلًا من هذا قالت: «إنه اسم جيد. روز اسم جيد».

قال: «شائع مع ذلك، ستتشاركه مع فتيات كثيرات جدًا في البلدة. وفي التاريخ أيضًا».

قالت: «قديسة، بطلة، وبلدة. لا شيء يعيب في اسم كهذا، ستسعد به. إنه اسم جيد».

في الظروف العادية، يعتبر اختيار اسم - خاصة اسم الطفل الأول - مهمة مجيدة، مناسبة لشجارات خفيفة تظل الأسر تتذكرها لسنوات. دائمًا ما تسمع الأم تقول كان أبوك يريد اسم كذا، وكنت أنا أريد الآخر. وقد فزت أنا، أو وقد وجدنا حلًا وسطًا. لكن في ظروفهما، لا يريد الأب اسمًا معينًا. سيوافق على أي اسم تقترحه الأم، لأنه مقتنع بما قاله الأطباء عن أن الطفلة لن تظل على قيد الحياة لساعة واحدة بعد الولادة، أو ليوم واحد على أقصى تقدير.

قالتْ جايلي وهي تغطي يده في حجرها بيديها: «لا تتأخر الليلة».

«ألن تأتي إلى المحل؟»

أجابتْ: «لا».

تشعر بتقلصات أسفل ظهرها وعند فخذيها، زادت بجلوسها في السيارة. كانت الطفلة تضرب برأسها رئتي جايلي وعمودها الفقري، ولم يبد

مكتبة ياسمين

أنها ستكف عن هذا قريبًا. على الأقل ما زالت تتحرك، فكرت جايلي.

سألها: «ألا نتصل بالطبيب؟»

فأجابته: «ليس بعد».

«أأنتِ واثقة؟»

أجابته: «الأمر ليس سيئًا جدًا»، وبدا أنه يصدقها.

ثم سألته: «هل ستذهب إلى محطة الإذاعة بعد المحل؟»

أجابها: «غدًا يوم صرف الرواتب، إنهم يتوقعون ذهابي».

«لماذا لا ترسل لهم أحدا بالمال؟»

أجابها: «لن أقضي وقتًا طويلًا»، ثم قبّل جانب عنقها. امتلأ عنقها قليلًا ودكن لونه باقتراب موعد الولادة، وكان جزء منها يتمنى رؤيته يعود إلى طبيعته مجددًا: عنق طويل ونحيل بطبقة خفيفة من بودرة التلك.

ضغطتْ برأسها على رأسه ليبقى وجهه مدفونًا في عنقها لوقت أطول.

قال وهو يبتعد: «يجب أن أذهب الآن إن كنت سأعود إلى المنزل مبكرًا».

فتحتْ باب السيارة وترجلت منها. ترجل هو الآخر وأسرع يدور إلى الجانب الآخر من السيارة ليساعدها على الوقوف على قدميها، إذ يسحبها وزن الطفلة إلى الخلف رغمًا عنها. كانت ممتنة لاستطاعتها الوقوف مستقيمة، وبعد أن أكدت له أنها لا تريده أن يساعدها على العودة إلى الداخل، وقفت تراقبه وهو يعود إلى السيارة ويقود مبتعدًا. وهي واقفة هناك، تراقبه يختفي خلف أشجار اللوز، شعرت بالتقلصات في ظهرها تشتد. سارت إلى المنزل بخطوات بطيئة وحريصة، ثم رقدت على الفراش. سقطت مرهَقة في نوم عميق لم يقلقها منه حتى اندفاعات إيناس بضجّتها داخل الغرفة من وقتٍ

t.me/yasmeenbook

لآخر للاطمئنان عليها.

حين استيقظتْ بعد منتصف الظهيرة، كانت آلام ظهرها قد زالت، فقررت أن تذهب لتتمشى. انهار ركام من الصخور بسبب انزلاق طيني حديث مُحولًا جدول الماء إلى بني داكن. وسقط عن بعض أشجار اللوز ثمارها قبل الأوان، وفي مواضع كثيرة عرقلت مسارها أفرع شجر كبيرة سقطت على الأرض.

وقفتْ عند حافة الجدول وحاولت تخيله مليئًا، كما كان في أيام أفضل من هذه، بمياه متلألئة تتماوج فوق الحصى. تخيلت نفسها وزوجها وهما مراهقان، يقفزان للسباحة في الماء مع أصدقائهما في فترات الظهيرة في الصيف، يرشون بعضهم البعض بالماء ويلطخون تيار المياه ببقع طينية صغيرة. ثم يبدأ رذاذ الظهيرة المعتاد في السقوط، حمام الشمس، أو المطر الشبحي، كما يحب زوجها وأصدقاؤه -الأكبر منهما بعام أو عامين وبالتالي فهم أكثر حكمة -أن يدعونه. كانوا يقولون إن الشيطان يضرب زوجته ويتزوج ابنته. وما الرذاذ سوى دموع كلا من الزوجة والابنة. والشمس هي وسيلة الرب لتجفيفها.

كان حمام شمس آخر قد بدأ تلك الظهيرة أيضًا حين رأت جايلي قوقعة حمراء ضئيلة محشورة بين صخرتين. ضفدع صغير، أصغر من حجم خنصرها، يرقد على جانبه ومغطى بالنمل، قوائمه الأربعة الضئيلة متخشبة ومرفوعة لأعلى، كأنه كان يجاهد ليزحف بعيدًا عن النمل وفشل.

جلست القرفصاء لتلتقطه وتنفض النمل بعيدًا عنه. تفرّق النمل بجنون، زحف بعضه لأعلى وأسفل ذراعيها، وقرصها. لا بد أن النمل لم يبقَ هناك طويلًا، لأنّ الضفدع الصغير كان بأكمله، ما زالت أعضاؤه الداخلية، التي يمكنها رؤيتها من تحت جلده الشفاف، سليمة لم تُمس. دون تفكير، مسحت غشاءً من عرق لزج من على وجهها وحشرت الضفدع الصغير في فمها.

مكتبة ياسمين

كان متسخًا بالطحالب والقذارات ولزجًا حين استقر على لسانها. ومع أنه كان ميتًا، تخيلته يُقاوم وهي تميل برأسها إلى الخلف لتدفعه في بلعومها. كان من ضمن الأشياء المريعة والصعبة في حملها، بعد الحكم القاسي الذي أصدره الطبيب، أن صارت تكره رائحة جسدها. تظن أغلب الأيام أن رائحتها كرائحة المراحيض. الهواء نفسه الذي يحيط بها يُثير قرفها، وأحيانًا، ورغم قرارها النهائي بالاحتفاظ بها، كان نمو الطفلة بداخلها يُقرفها أيضًا.

قاوم جسدها الضفدع الصغير في حلقها، لفظه مريئها لأعلى مجددًا، فكادت أن تتقيأ. بلعته بقوة أكبر حتى شعرت به تقريبًا يستقر في مكان ما عميق بداخلها.

ها قد كانا، فكرت وهي تسحب الفكرة لتخرجها من ذهنها. نوعان من الحيوانات بداخلها الآن، ابنتها روز، على حافة الخطر، والآن هذا الضفدع. دعهما يتعاركان ولنر من سينتصر.

انتهى حمام الشمس وعادت الشمس أكثر سطوعًا عن ذي قبل وهي تسير عائدة إلى بيتها. تتوقف من حين لآخر لتتحمل التقلبات في بطنها، تبلع ريقها بصعوبة لتخفيف المذاق المُر في فمها. حين عادت، كانت تبتسم أكثر مما اعتادت لأيام.

قال لورينت وهو يسرع لتحيتها عند عتبة بابها: «كنت في طريقي للبحث عنكِ، أخبرتني إيناس أنكِ كنتِ متوعكة. هل نصحتكِ المطرَ؟»

كان يبتسم ابتسامته العريضة. وكانت سعيدة لأنه يبتسم، وسعيدة أيضًا لأنه استمع لما قالته، عاد إلى البيت مبكرًا كما طلبت منه. حين سألها أين كانت، قالت [بالفرنسية]: «مع الضفادع عند جدول الماء، منذ بداية حمام الشمس». وكانت إجابة وافية بالنسبة له. يجب أن تسير على قدميها لتساعد الطفلة على الخروج، لجعل الولادة المنتظرة أسهل، قد تكون خلال

t.me/yasmeenbook

ثلاثة أيام، قالتْ. لذلك تسير إلى جدول الماء كل صباح، وأحيانًا في فترات الظهيرة أيضًا. يفهم هذا الآن.

«لكن لا مزيد من المشي تحت المطر».

أجابته: «لم يكن مطرًا، كان حمّام شمس»، لكن يبدو أنه لم يعد يعدّ أن ثمة فارقًا.

استقرتْ معدتها الآن، غيّرت مومها وتناولت ذاك المساء عشاءً من عصيدة الذرة بقدر أكبر مما تناولته طوال أسابيع. تعجّبت من نوبات ذروة الرضا والرثاء للذات التي ظلت تنتابها طوال فترة حملها. كانت حالاتها المزاجية القاتمة، كهلاوس غريبة تقريبًا، طبيعية في ظل ظروفها، كما أخبرها الأطباء حين لم تستطع تصديق أنها ولورينت لن يموتا مع الطفلة.

هكذا كان لورينت يقول محاولًا طمأنتها: «سنتجاوز هذا، أيًا كان ما سيحدث للطفلة، وسوف يقول نعينا في لا روزيتا أننا توفينا بعد صراع طويل مع المرض، ما زلنا مليئين بأطفال كثيرين».

المساء التالي، الذي وُلدت فيه ابنتهما روز، كان مساءً رائقًا ومضيئًا بقمر كامل وسماء صافية تعجّ بالنجوم. في أحد الأركان بغرفة جايلي مرآة ضخمة ومصباح يعمل بالهمهمة العالية لمولد كهرباء المنزل. حين رأت جايلي نصف جسدها العاري في المرآة عند مؤخرة الفراش فكرت في قنديل بحر ظلت رأسه تنتفخ. كان وضع المرآة هناك فكرتها هي في الأصل. أرادت أن ترى ابنتها وهي تخرج من جسدها. لم ترغب في تفويت ثانية واحدة دون النظر في وجه طفلتها. لكنها في النهاية غيرت رأيها قبل بدء المخاض مباشرة، وأشارت إلى إيناس أن تغطي المرآة بملاءة، مثلما قد يفعل المرء بعد الموت. رفضتْ أيضًا الاتصال بزوجها أو بالطبيب.

مكتبة ياسمين

ظلّت تردد: «سيأخذانها منّي»، وهي تثني جسدها إلى نصفين لتدفع بالطفلة إلى الخارج، تشعر تارة أنها واهنة وخائرة القوى و تارة أخرى بأنها لا تُقهر. سرعان ما قطعتْ الحبل السري بنفسها بمقص جديد من المحل بعد أن مدّت إيناس يديها إلى أسفل بين ساقيها وسحبت الطفلة.

بكت كلاهما، جايلي وإيناس، لوصول الطفلة الهادئ، وبكتا أكثر لخلوِّها تمامًا، على نحو غير متوقع، من أي عيب، ولروعة شكلها. كانت ممتلئة وبهيّة، يغطي رأسها المستدير خصلات شعر مجعد ضئيلة. أطلقت صيحة عالية طويلة حين ضُربت مؤخرتها. رفرفتْ بذراعيها في الهواء باستمتاع. لم يكن ثمة ورم لا على ظهرها ولا في أي مكان آخر في جسدها.

كانت سليمة تمامًا، وردة صغيرة سليمة، لكنها مع ذلك تشبه والدها كثيرًا. كان واضحًا أنها لن تكبر لتصير امرأة طويلة رشيقة، سرعان ما فتحت عينيها الداكنتين بعد قطع الحبل السري، وحين حملتها أمها إلى صدرها فتحت فورًا فمها الضئيل الذي ما زال ملطخًا بالدم وبدأت ترضع.

في تلك الليلة المرصّعة بالنجوم، لم يعد لورينت لافود إلى البيت في موعده ليرى ابنته، روز. كان ثمة إطلاق نار أمام مبنى محطة إذاعة زواريا، حيث ذهب قبل عودته إلى البيت لمنح بعض المال، إذ لم يكن يعلم بمخاض زوجته. بدأ إطلاقُ النار وهو يغادر المحطة، تلقى ثلاث رصاصات في قلبه فسقط مكانه ميتًا. حتى قبل رشّ جثمانه بمسحوق الحجر الجيري، كان الناس قد بدؤوا بالفعل في الحديث عن موته بالطاعون الجديد الذي ضرب البلدة، والأشد خطرًا حتى من موت الضفادع: العصابات.

t.me/yasmeenbook

الأشباح

يعيش برنارد دوريان في سيتي بيندو، حيّ بائِس وخطِر يتفرع من بلدة فيل روز، يدعوه البعض أولى دوائر الجحيم في المنطقة.

بالرغم من سمعته السيئة، كان حيّ سيتي بيندو - يقع على مبعدة ثمانية وعشرين ميلًا من بورت أو برانس وثمانية أميال من وسط بلدة فيل روز - مجرد منطقة عشوائية متوسطة المستوى. فرغم كل شيء، يوجد بها عدة كنائس بروتستانتية، والكثير من معابد الفودو، وبعض المطاعم والمخابز، وحتى عدد من محلات الغسيل الجاف للملابس.

لفترة لم يكن بمنطقة سيتي بيندو حرب عصابات، بل عصابة واحدة فقط تتخذ من مخزن سلع غذائية سابقًا مقرًا لها، يقيم فيه حوالي دزينة من الرجال يدعون أنفسهم جماعة «باز بينين». (منحوا أنفسهم ألقاب ملوك نوبيين تعني في الكريولية بعض أفعال الشر، «باي» مثلًا يعني «نَهَب»، و«تاي" يعني «قَتَل».)

يمتلك والدا برنارد مطعمًا في سيتي بندو. كان لديهما في شارعهما المفروش بالحصى فناءً أكبر قليلًا من أفنية جيرانهما، فأحاطاه بحواجز معدنية مموجة، وصارا كل ليلة يخدمان ثلاثين زبونًا على الأقل، وأكثر من هذا حين يدور رأس المال سريعًا. في قلب عملهما هذا أربع طاولات خشبية طويلة أسفل حبل من اللمبات المضاءة بمولِّد يعمل بالوقود. يقدمان عليها الأرز والفاصوليا وعصيدة الذرة، لكن طبقهما المميز هو الحمام المشوي.

مكتبة ياسمين

كان اسم المطعم «بي»، اختصار اسم «برنارد» كما يدعوان ابنهما. وقد تعني أيضًا Butter أي زبدة، وكانت والدة برنارد تحب أن تجيب كل من يسألها عن كيفية إعدادها الطعام بأنها تصنع من الماء زبدًا، أي إنها تحاول دائمًا فعل المستحيل، خلق شيء مفيد من أشياء قليلة أو لا فائدة منها.

جاء والدا برنارد إلى سيتي بيندو من قرية في الجبال المجاورة حين كانت سيتي بندو محطة مؤقتة لكثير من الفلاحين حتى يُنهي أبناؤهم تعليمهم الابتدائي. لكن الزوجين دوريان، مع اختفاء الأشجار من قريتهما والقرى الأخرى، لاستخدامها في الفحم، وتفتّت الجبال وانهيارها وجفاف سطح التربة، الحتمي، بسبب البحر، بقيا في سيتي بيندو، مثلما فعل الكثير من جيرانهما قبلهما، حيث ربّيا ابنهما، والمئات من طيور الحمام، حتى إنهما بمرور الزمن صارا يبيعانها حية وميتة، للتربية أو للأكل.

حتى وقتٍ ما ، كان أغلب زبائنهما من الشباب المرتبك الذين يؤدون طقسًا مألوفًا في سيتي بيندو قبل تجربتهم الجنسية الأولى. أن يذبح الشاب فرخ حمام صغير ويدع دمه يسيل في خليط من اللبن والقرنفل وشراب شعير بالصودا يُدعى «مالتا». كان الآباء يأتون معهم أحيانًا، وبعد أن يُمسك الشاب بأنفه ويجرع الشراب، يضحك الأب، فيما يدور جسد الزغلول المذبوح على الأرض، ويقول: «أُشفِق على تلك الفتاة».

لم يكن والدا برنارد يحبان ذلك الطقس، لكنهما يتلقيان مقابل كل طائر يُذبح على هذا النحو ما يكفي لتربية المزيد من الطيور. كانا يتحسّران على زمانٍ كان فيه الناس يشترون الحمام للسِباق، أو لتدريبه على حمل الرسائل، أو كطائر أليف لأطفالهم الصغار. ثم صارا يتحسّران على أيام هؤلاء الآباء والأبناء، حين أصبح زبائنهم فجأة شبابًا أقوياء تجمعوا فيما كان يُدعى في البدء «تنظيمات شعبية»، ثم بات يُسمى عصابات.

t.me/yasmeenbook

يُدعى أفراد العصابة أيضًا قارعو الأجراس أو الأشباح، أغلبهم من أطفال الشوارع الذين ليس لديهم ذكرى عن العيش في منزل، صبية قُتِل أبواهم أو ماتوا إثر مرض، وتركوهم وحدهم في العالم. فيما بعد انضم لهؤلاء الصبية بعض رجال المنطقة الأكبر سنًا. رجال أكبر سنًا و«ذوو علاقات»، رجال أعمال طموحون، أو سياسيون محليون، يستغلونهم في شق صف المظاهرات السياسية، ويمنحونهم الأسلحة لإطلاق النار حين يريدون خلق أزمة، ويسحبونهم حين يتطلب الأمر الهدوء.

كان الأشباح أحيانًا، قبل واحدة من تلك المظاهرات، يأتون لشرب مزيج اللبن والمالتا ودم الحمام، لحد أن فكر والدا برنارد في إلغاء ذبح الحمام إلى الأبد، وهو ما فعلاه في النهاية.

مع ذلك، استطاع الزوجان دوريان، بالمال الذي جنياه من تربية الحمام، أن يضيفا لقائمة الطعام. اشتريا المنزل المجاور لمنزلهما، المنزل الملحق بمخزن «باز بينين»، وأضافا عدة طاولات أخرى لخدمة زبائنهم المتزايدين. اشترى والد برنارد أيضًا شاحنة صغيرة كان يقودها طوال اليوم ذهابًا وإيابًا بين سيتي بنيدو وروز فيل، محملة بالأشخاص وبالماشية أحيانًا. مع ذلك كان دائمًا ما يتواجد في المطعم أثناء ساعات الذروة، بين التاسعة مساءً والواحدة صباحًا، حين يستولى أعضاء العصابة، الذين أتى أكثرهم بتجارة المخدرات من العاصمة، على معظم المطعم.

كان والدا برنارد وهما يراقبان تحول هؤلاء الصبية من مجرد باعة إلى مستهلكين معتادين لما يحبون أن يطلقوا عليه «بود بلان» (مسحوق الرجل الأبيض)، ويشهدان تحولهم إلى نَكِرة سوى لأحدهم الآخر، يشعران بالخوف والقرف. لكنهما مع ذلك أبقيا مطعمهما مفتوحًا، لأن الأزمة نفسها التي تضرب سيتي بيندو هي ما تعود عليهما بالربح، الذي يُمكّنهما من إرسال

مكتبة ياسمين

ابنهما برنارد إلى مدرسة أولاد الطبقة المتوسطة الضئيلة في روز فيل، لتكوين علاقات قد تساعده يومًا ما على إيجاد عمل جيد أو شريكة حياة محترمة.

التحق برنارد بقوات الشرطة الوطنية (وليس القوات الخاصة)، ليبتعد عن العصابات. وبالرغم من كونه في العشرين من عمره فقط، بدا هزيلًا، وله السمة المميزة لعائلته، رأس ضخم نسبيًا، ما أكسبه اسم الشهرة «تيت فيريتاب» أو «رأس فاكهة الخبز[1]»، لكنه قُبِل في أكاديمية الشرطة في بورت أو برانس. وجد برنارد أنه بالرغم من بقائه في العاصمة للتدريب، لكنه لم يمكنه أبدًا، كمتدرب في الشرطة، الانفصال عن والديه في سيتي بيندو. كان هو الملوم كلما أُلقي القبض على أحد أفراد العصابات في سيتي بندو، ما جعل حياة والديه في خطر. بالإضافة لحزن أبويه الشديد لرحيله. كانت والدته كلما تحدثا في الهاتف تخبره أنها تتمنى عودته إلى البيت. وكانت أزمة ربو حادة انتابته في أثناء تدريب شاق، لم ينتابه مثلها منذ وقت طويل - إذ يعاني من تلك الأزمات منذ طفولته - ما جعل أكاديمية الشرطة تستبعده بالفعل.

لكنه قضى، وهو في بورت أو برانس، ساعات لا حصر لها في المواصلات، في التاب تابات، وحافلات النقل العام، وسيارات الأجرة، فوقع في غرام الإذاعة، خاصة نشرة الأخبار والتعقيب عليها، والاتصالات الخارجية، وبرامج المقابلات التي بدا أنها تخرج من كل بيت، وسيارة، ومحل أو كشك في الشارع. لذلك يقضي برنارد الآن الساعات التي ليس عليه فيها المساعدة في مطعم والديه، في العمل كمحرر أخبار براتب صغير في إذاعة فيل روز الوحيدة، إذاعة زواريا أو إذاعة الأُذن.

لنشأته في سيتي بيندو، وشهوده عيانًا التغييرات الكثيرة هناك، تخيّل برنارد

---

(1) فاكهة مدارية موطنها الأصلي جزر المحيط الهادئ قد تزن الثمرة منها 2 كيلو جرام. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

أن يضحي صحفيًا إذاعيًا من النوع الذي يركز على ما يحب تسميته «الجيتو» من الداخل. خطرت له تلك الفكرة ذات ليلة وهو يسير من مطبخ والديه الأسمنتي الصغير، الذي بنياه قريبًا من الشارع لإغواء المارة بالروائح المثيرة للشهية، إلى حيث يجلس تاي، زعيم العصابة ذو الذراع الواحدة، يشرب من زجاجة بيرة ويدخن سيجارًا ضخمًا. كان تاي يضع ذراعه الصناعية المصنّعة من البلاستيك والحديد تحت قميص أزرق بأكمام طويلة، يرفع زجاجة البيرة بمشاجبها المعدنية اللامعة ويخفضها بخبرة. كان محاطًا بثلاثة «مُلازمين» متحمسين، يحكي لهم وهو يضحك بشدة، كيف صفع رجلًا ذات مرة، حين كان لديه ذراعان - وضغط رأسه بين راحتيه وهو يلطم أذنيه - حتى سالت الدموع على خديه. تمنى برنارد وهو يسمعه لو كان لديه كاميرا فيديو، أو على الأقل مسجّل صوت. يريد أن يعرف الناس في سيتي بيندو، وروز فيل، والبلد بأكملها، ما قد يسيل دموع رجال في مثل سنه، عاشوا في المكان نفسه الذي عاش فيه، رجال مثل تاي.

لن يمكننا التقدّم كمنطقة أو كبلدة أو كوطن - كان يفكّر وهو يضع لتاي وأصدقائه جولة بيرة أخرى - ما لم نعرف ماذا يُبكي هؤلاء الرجال.

لا يمكننا عدّهم أشباحًا لا مرئيين إلى الأبد. سيكون تعليقه في إذاعة زواريا، إن كتبه، بعنوان *الأشباح*.

فرصته الوحيدة لتحقيق هذا الأمر في محطة الإذاعة برنامج أسبوعي شهير بعنوان *أخبرني*، برنامج مقابلات ودردشة تقدمه امرأة لها صوت خشن اسمها لويز جورج. تمامًا مثلما فعل برنامج *أخبرني* في بدايته، سيثير برنامج *الأشباح* الجدل في البدء، لكنه سيلفت انتباه المستمعين في روز فيل سريعًا، كان برنارد على يقين من هذا. ستجعلهم نزعة تلصص مرضية يستمعون إليه أسبوعيًا أو شهريًا أو كلما بُثّ. سيرتبون جدولهم على أساس موعد

مكتبة ياسمين

إذاعته. لن يكفوا عن مناقشة الأمر. سيسألون أنفسهم عمّا يخطط له رجال ونساء الجيتو؟ وسيحثهم على التفكير في طرق لتناول مشكلة العصابات، قد يستضيف البرنامج أيضًا أطباء نفسيين وخبراء في السلوك الإنساني، والقائمين على التخطيط العمراني.

أحب ماكس آردين جونيور، صديق برنارد ومقدم برنامج عن موسيقى الراب في الإذاعة، الفكرة، لكنه كان متشككًا. رغم كونه في التاسعة عشرة فقط من عمره، وقد حصل على عمله بواسطة علاقات أبيه، لكنه يعرف الكثير عن عمل الإذاعة. كذلك كان برنارد يثق فيه.

«أنا أشعر بكل ما تقوله، لكن الإدارة لن تشتري هذا»، قال ماكس الابن ذات ظهيرة لبرنارد الذي كان يكتب على آلة كاتبة قديمة تعمل بالكهرباء في طرف قصيّ لمكتب طويل في غرفة التحرير، «من قد يرعى برنامج كهذا؟»

«على الحكومة أن تفعل هذا»، قال برنارد وهو يعيد صياغة أخبار ذاك اليوم من برقيات إلى الكريولية الدارجة ليقرأها المذيع على الهواء، «سنكون بذلك قد قدمنا خدمة عامة».

قال ماكس الابن: «عليك أن تقدم الفكرة للمدير، لكنني أراهنك أنه سيخاف من الموافقة عليها».

وتمامًا كما توقع صديقه، لم تحظَ فكرة برنارد بالموافقة، على الأقل ليس بمشاركته. لأنه بعد عدة أسابيع، فيما كان يكتب نشرة أخبار الظهيرة، استمع لبرنامج يُدعى *من رجل إلى رجل*. أعلن مقدّمه، لواء سابق في الجيش، أنّه سيقدم للمستمعين حوارات خاصة في الاستوديو بين أفراد عصابات ورجال أعمال من سيتي بيندو وروز فيل.

سمع اللواء يقول: «لإزالة الحواجز بينهما، بمساعدة حكَم خبير».

t.me/yasmeenbook

أنجزت الحلقةُ الأولى من البرنامج الأمرَ بالفعل، كان اللقاء بين صاحب مصنع ثلج، ظلّ مصنعه يتعرّض للاقتحام مرة في الشهر على الأقل لفترة تزيد على عام، وزعيم عصابة أخرى من سيتي بيندو، خصم لتاي، يُقال إنه المسؤول عن تخريب مصنع الثلج من قبل.

قال زعيم العصابة لصاحب مصنع الثلج: «ماذا تتوقع؟ أنت تتمتع بكل هذا الثلج، ونحن هنا في الجحيم».

حينها اقترحت المحكِّمة، طبيبة نفسية جاءت إلى محطة الإذاعة من بورت أو برانس، ما هو واضح: أن يتشارك صاحب مصنع الثلج، بطريقة ما، ثلجه، ببيعه بأسعار مخفضة للأشخاص المقيمين بالقرب من المصنع، وأن يحترم زعيم العصابة ملكيّة الآخرين.

الأنكى أن اضطر برنارد إلى الاستماع إلى البرنامج كله مرة أخرى عبر المذياع الذي تبقيه أمه في المطعم، فيما كان يقدم المشروبات لتاي وطاقمه، من بين آخرين. كان تاي وأصدقاؤه يعرفون عن فكرة برنامج برنارد - إذ كان قد خاطبهم كضيوف محتَملين - فحاولوا استفزازه وهو يضع لهم البيرة: «هيي يا رجل، لقد سرقوا فكرتك!».

حاول قليل منهم جذبه وهو يضع الزجاجات على الطاولة، كأنهم يحاولون عصر الغضب الذي يعرفون أنه يعتمل بداخله. فكان ضحكهم يزيده غضبًا. قال تاي وهو يضحك: «برنارد يا شقيق ، هذا البرنامج خراء».

قال باي، ذراع تاي الأيمن، وهو يخبط الطاولة: «هذا صحيح».

قال آخر: «برنارد، يجب أن تركل مؤخرة مَن سرق فكرتك».

حينها نادت والدة برنارد عليه من المطبخ ليحمل المزيد من البيرة، كما ظنّ. لكنه، أعلى البراد القديم الذي يحتفظون فيه بالبيرة يقبع أكثر ممتلكات

مكتبة ياسمين

والدته الشخصية ترفًا، هاتف قديم بقرص دوار، وكان صديقه ماكس الابن على الخط.

ظن أن ماكس يتصل ليتحدث عن الأمر، لكنه قال بدلًا من ذلك: «أنا أتصل لأقول وداعًا يا رجل. أبي اللعين سيرسلني إلى ميامي».

قال برنارد بريبة وحزن: «حقًا؟ متى ستعود؟»

أجابه صديقه: «لا أعرف».

سأله برنارد: «من سيقدم برنامجك أثناء غيابك؟»

أجابه ماكس الابن: «لا أعرف».

قال برنارد: «ربما يمكنني العمل مكانك؟»

قال ماكس الابن: «ربما»، ثم أضاف: «يا رجل هل سرقوا فكرتك؟»

قال برنارد محاولًا إخفاء حزنه لرحيل صديقه وسرقة فكرة برنامجه: «هذا صحيح، لكن من *رجل إلى رجل* ليس ما أردته، أردت شيئًا ما أقرب لجوهر الأمر. شيء ما أكثر شخصية».

كان تاي وأصدقاؤه يغنون على طاولتهم: «أُركُل مؤخراتهم، أُركُل مؤخراتهم!» بصوت عال للغاية لحد أن برنارد لم يستطِع سماع صديقه.

قال ماكس الابن: «سأتصل بك من ميامي».

بعد أن أنهى الاتصال، وقف برنارد يضغط رأسه إلى الحائط الأسمنتي وانتظر حتى غادر تاي وطاقمه قبل أن يعود لخدمة الزبائن. بعد ذلك جاءت والدته وعدد من فتيات الجيران اللائي تستأجرهنّ لغسل الأطباق. لا يتغير تعبير وجه والدته المتجهم أبدًا. كأن حرارة المطبخ قد أذابته وصبّته في هذا القالب. فكّر برنارد ببؤس أنها، حتى لو توقفت عن العمل لبقية حياتها،

t.me/yasmeenbook

لن يعود إليها أدنى قدر من جمالها حين كانت صغيرة ولم تكن تعد الطعام للعشرات يوميًا.

أقنع والدته أن تأوي إلى الفراش مبكرًا قليلًا عن المعتاد تلك الليلة، قبل أن يأوي هو نفسه إلى فراشه. في غرفته التي طلا جدرانها وسقفها وهو مراهق بالأحمر الساطع، شَعَر بالألم - لرحيل ماكس الابن المفاجئ وخسارته البرنامج - عميقًا في أحشائه. سيكون من الصعب الآن تقديم الفكرة لمحطة إذاعية أخرى في العاصمة أو في أي مكان آخر. سيقول المسؤولون: «إن برنامج من *رجل إلى رجل* يُذيعها بالفعل. ولا نريد منح العصابات مساحة تعبير أكبر من هذا». سقط في النوم وهو يفكر في إعادة صياغة فكرته، صقلها، وإضافة موسيقى. يستطيع ماكس الابن حين يعود من ميامي مساعدته في هذا. يمكنهما تشغيل موسيقى الريجي المتأثرة بالهيب هوب كما يفعل ماكس الابن في برنامجه، ويجعل برناردُ جيرانَه يتحدثون في الفواصل بين الأغاني.

في الصباح التالي، كان ما زال نائمًا حين ركل بوابة منزل والديه مجموعة رجال من القوات الخاصة، ملثمين ويرتدون ملابس سوداء، صعدوا إلى غرفته، وسحبوه من فراشه. زجوا به في مؤخرة شاحنة صغيرة، برغم عويل والدته الهستيري وصياح والده بأن هذا ظلم بين.

حين وصلوا إلى أقرب قسم شرطة، كان في انتظاره مجموعة من صحفيي الجرائد والإذاعة والتلفاز، مِن ضمنهم رئيسه في العمل. أوضحتْ المتحدثة الرسمية باسم شرطة فيل روز، امرأة لها صوت حاد، أن مقر محطة إذاعة زواريا قد تعرّض الليلة الماضية لهجوم بإطلاق النار. شوهد أربعة أشخاص يحملون بنادق إم 16ورشاشات، يقفزون من سيارة رياضية ويطلقون النار على البوابة الأمامية لمبنى المحطة، مُردين لورينت «لولو» لافود، صاحب محل الأقمشة وراعي الإذاعة الكريم، صريعًا. ألقت الشرطة القبض على

مكتبة ياسمين

تاي، زعيم عصابة باز بينين الشهير، وذكر تاي اسم برنارد بوصفه الرأس المدبر، المخ الرئيسي، للجريمة، وزعم أنه هو من أرسلهم هو ورجاله لتنفيذ الأمر. لم يكن لبرنارد أن يتحدث. كان عليه أن يقف هناك فقط، كمجرم خطير محاطًا برجال الشرطة الملثمين، ويداه مقيدتان خلف ظهره، فيما تثقب ومضات الضوء المتتالية وكشاف كاميرا فيديو عينيه، في أثناء استجواب متّهِميه بصوت عالٍ.

أخذوه بعد ذلك لاستجوابه في غرفة ضيقة وحارة معبأة برائحة قيء حديث. بالإضافة للكرسي المعدني الذي صرّ حين جلس عليه وما زال مكبلًا، كانت أرضية الغرفة إسمنتية وفي سقفها صندوق ضوء يُلقي بخيوط ضوء متراقصة على العُصابة التي ربطها أحد الضباط على عينيّه.

تلقّى في أثناء التحقيق معه عدة لطمات على قفاه. ذكّره هذا بلطمة «تاي ذو الذراع الواحدة» الثنائية التي كان يضرب بها الرجال عندما كان بذراعين.

«هل تعرف تاي؟» بدت له أصوات كثيرة بعيدة ومشوشة بسبب عُصابة عينيه التي كانت تغطي أذنيه أيضًا، فقرّب بعض الضباط أفواههم من أذنيه وصاحوا بأصوات عالية للغاية لحد أن كادت طبلتا أذنيه تنفجران. نفث أحدهم دخان سيجارته في وجهه. في أثناء فترة تدريبه القصيرة في أكاديمية الشرطة، لم يصل برنارد إلى طرق التحقيق مع المشتبه فيهم. أكانت تلك الطرق التي سيتعلّمها؟ تساءل بمرارة.

أجاب برنارد وهو يسعل: «نعم، أعرفه». بدا أن رئتيه تنسدان بطريقة جديدة عليه تمامًا، كأنها لن يسعها التنفس مجددًا أبدًا. دفع انقباض أحشائه كتلًا من عشاء الليلة الماضية لتسقط على صدر قميص منامته وعلى حجره حين سُمِح له بالانحناء إلى الأمام.

t.me/yasmeenbook

«كيف تعرفه؟» تواصلت الأسئلة بصوتين، وأحيانًا ثلاثة، يرددونها معًا عالية كجوقة تصم الآذان في كلتا أذنيه.

أجاب ملتعثمًا: «إنه يعيش في الحي الذي أسكن فيه... ويأتي... ويتناول الطعام في مطعم والديّ».

صاح أحد الضباط: «أنت الرجل الكبير هه؟ لدى والداك مطعم في العشوائيات. أنا جوعان، أطعموني. أطعموني».

ضحك الآخرون لنوبة الفواق التي انتابت برنارد. لا تميز أذناه المنهكتان الآن بين ضحكهم الصاخب، وضحك تاي وطاقمه الصاخب. قد يتبادلون جميعًا الأدوار دون أن يلاحظ أحد أي فارق.

صاح ضابط آخر: «كم دفعت لعصابة باز بينين لإطلاق النار على المحطة؟»

«لا شيء... أنا...»

«قاموا بها مجانًا إذن؟»

«لا...»

مكتبة ياسمين

«هل دفعتَ لهم؟»

t.me/yasmeenbook

«لا...»

«أيهما؟»

«أنا لا شأن لي...»

«لقد تدرّبت في أكاديمية الشرطة لفترة، أليس كذلك؟ لتصير مجرمًا عتيدًا؟»

ألقوا ماءً مثلّجًا على وجهه وضحكوا قليلًا. حاول جَزِعًا أن ينهض عن

مكتبة ياسمين

كرسيه، لكنّ أحدهم دفعه للجلوس بعنف. شعر مع الدخان والقيء والماء البارد كأنه يغرق.

بعد الاستجواب، تُرك وحده في الزنزانة الرطبة، ما زال مكبلًا ومعصوب العينين. في تلك الظهيرة جاء والداه لزيارته. سُمِح لهما بفك عصابة عينيه فركعا على الأرض واقتربا منه. بكت والدته بهدوء على جسده المتكوّر على الأرض في وضع جنيني.

سأله والده: «أبي، أيمكن أن تفعل شيئا كهذا؟» بدا الأب قلقًا ومتجهمًا في وقت واحد، ومتوترًا حتى لاضطراره لتوبيخ ابنه. عاودت وجهه لازمته القديمة، أن تطرف عيناه ويختلج فمه لا إراديًا. لم يرها برنارد منذ وقت طويل لحد أنه كان قد نسيها.

هزّ برنارد رأسه أن لا.

أجابه ومرارة القيء مازالت عالقة في فمه: «لم أفعل شيئًا يا بابا»، يعرف أن والده ينتظر إنكاره ليستكمل معركته بكامل قواه.

مدّت أمه يدها في صدرها وأخرجت له مِنشقة. قالت لاهثة كأنها هي نفسها تتعرض لأزمة: «أبي، كان علينا دفع مبلغ أكبر لنُدخل لكَ هذه».

«إنهم لا يُبرحونني ضربًا، ليس بعد، أتريان، لم يسِل دمي بعد».

تحققت والدته من قميص منامته المبلل بالعرق والقيء تبحث عن قطع أو جرح في مكان ما.

قال أبوه: «المحامية التي وكّلناها لك، ابن عمها قاضٍ. تقول إنّ بوسعها تحريك الأمور سريعًا، لصالحك». فم أبيه الآن تحت السيطرة إلى حد ما: «قد يأخذونك إلى السجن في بورت أو برانس قبل أن نتمكن من إخراجك مع ذلك».

t.me/yasmeenbook

أخبره أبوه أنهما تحدثا مع باي، ذراع تاي الأيمن، قبل ساعات قليلة. قال أبوه لباي إن برنارد لم يكن ليطلب من تاي قتل أي شخص. فأخبرهما باي أن يبقيا هادئين وأن القضية مجرد زوبعة ستنتهي دون أثر. «اصبرا بضع ساعات أخرى وسينتهي كل شيء».

استجمع برنارد قواه لينهض بمساعدة أبيه. هل اتصلا بصديقه وزميله في العمل ماكس الابن؟ سأل والديه. كان يعرف أن ماكس الابن سيغادر إلى ميامي، لكنه قد يكون ما زال في البلدة. وقد يمكنه هو الآخر إجراء اتصالات مفيدة. أخبره أبوه أنه ذهب إلى منزل ماكس الابن ليراه لكن والد ماكس أخبره أن ابنه قد غادر البلاد.

بدأ برنارد يبكي بشدة الآن. لا يتذكر والداه رؤيته يبكي هكذا من قبل، فكيف به وهو رجل كبير؟!. جسده كله يرتعش ويغمره اليأس. شعر برغم ذراعي والديه حوله أنه وحيد ومهجور.

لكن ما حدث أن الأمر قد اتخذ، بالفعل، مسارًا سريعًا. إذ بعد ساعة أونحو هذا من مغادرة أبويه، جاء إلى زنزانته قاضٍ في روب أسود - استثناءً لمسار الأمور المعتاد الذي يقضي بمثوله أمام المحكمة بعد أسابيع أو شهور أو حتى سنوات من سَجنه - وأخبره بالتهم الموجّهة إليه. لم يكن متهمًا بالتخطيط لهجوم مسلّح على محطة الإذاعة فحسب، بل بانتحال صفة ضابط شرطة تحت التدريب أيضًا. خاف برنارد من أن يُترك ليتعفن في زنزانة مكتظة في السجن في العاصمة، أو حتى أن يختفي قبل وصوله إلى هناك. بدأ يفكر في طرق لتوصيل قصته، سيكتب رسالة إلى الإذاعة، إذاعة زواريا، لكن هل سيهتم القائمون على إدارتها أو مستمِعوها بسماع شهادته هو من القصة؟

ذاك المساء، في الزنزانة، وهو نائم وقت العشاء، رأى برنارد، وهو راقد على الأرضية الإسمنتية ووجهه في تجويف بارد منها على نحو خاص، حذاءً

مكتبة ياسمين

أسود لامعًا برقبة عالية يتقدّم نحوه. ثم بعد ربط العصابة على عينيه مجددًا، أُجلِس فيما شعر أنه المقعد الخلفي لسيارة. ألقوا به في الطريق أمام مطعم والديه، معصوب العينين في العاشرة مساءً.

كان تاي، حين ألقوا القبض عليه، قد عقد اتفاقًا مع الشرطة. كان كزعيم عصابة بارز بينين لديه من المعلومات المتعلقة بالمخدرات ما يُدين الجميع، من أصغر ضابط شرطة في سيتي بيندو وحتى عدد قليل من القضاة في المنطقة. والآن وقد تحدث مع الشرطة، اتفق على تبادل بعض الوثائق من مستنقعه، منها وصولات إيداع الرشاوي في حساب خاص بالبنك، مقابل حريته وحرية برنارد.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، كان برنارد يرقد على فراشه، متحمماً ونظيفًا، في غرفته الحمراء، يحدق في السقف القرمزي. اتصل بمنزل ماكس الابن وطلب محادثته، وحين ذكر اسمه، أغلق والد ماكس الابن -ماكس الأب -الهاتف في وجهه. حينها بدأ يكتب.

نعم، سيكتب شيئًا ما للإذاعة، سيكتب تقريرًا تفصيليًا عن تجربته التي مرّ بها لتوه. مشاهد قصيرة وسريعة، كقصة يسردها راوٍ لاهث. لكنه لم يعد يعمل في الإذاعة، ولا سبيل للتحدث مع ماكس الابن، سيحتاج إلى شخص آخر ليرويها نيابة عنه. يُمكنه، إن حاول، أن يطلب من لويز جورج، مذيعة برنامج *أخبرني*، قراءتها على المستمعين. يُخيَّل إليه أنها لن تستضيف أحدًا في الحلقة التي ستقرؤها فيها.

ستحتل قصته، التي ستقرؤها بصوتها المميز الخفيض لكنه مع ذلك خشن وشغوف، إلى جانب الإعلانات الكثيرة عن الأماكن والراعين، والتي لا يتمتع بها مذيع آخر في برنامجه، الساعة المخصّصة للبرنامج بكاملها. الأرجح أن رئيسها في العمل، مالك الإذاعة، لن يوافق على القصة، لكنها، بشجاعتها

t.me/yasmeenbook

المعتادة، ستهدد بالاستقالة إن لم يوافق، وستنتصر لرأيها لأن برنامجها هو الأكثر شعبية في إذاعة زواريا.

ستبدأ برنامجها في المساء بطريقتها المعتادة، كأنه يجلس أمامها في الاستوديو بالفعل، في محطة الإذاعة الممنوع من دخولها الآن بالتأكيد.

ستقول لكرسي الاستوديو الخالي: «أخبرني برنارد دوريان، نحن نود أن نسمع قصّتك»، ثم ستقرأ قصته ليتضح السبب وراء غيابه وعدم استطاعته إخبار قصته بنفسه مباشرة.

سرعان ما قاطَع والداه كتابته وخيالاته. حلّقا فوقه، مالت والدته على فراشه تناوله كوبًا ساخنًا من «شاي رعي الحمام» ليُهدئ أعصابه.

وبالرغم من أنها لم تعد طعامًا هذا اليوم لتمنع الزبائن من المجيء، ظل بعضهم يمرون لشرب شيء والتعبير عن ارتياحهم وتهانيهم لإطلاق سراح برنارد. أتى والداه أيضًا ليخبراه أن مسيو تاي هنا بالأسفل ويريد رؤيته.

أعاد برنارد كوب الشاي مليئًا إلى أمه، ثم رفع طرف مرتبة فراشه ووضع دفتر ملاحظاته أسفلها، على الزنبركات المعدنية.

وقال: «سأنزل بعد قليل».

قالت أمه كأنه سيتأخر على المدرسة: «لا تُبطئ».

خرج والداه باستسلام، أحدهما وراء الآخر، جسداهما متوتران بمستوى جديد من القلق.

في الفناء كان تاي وملازموه قد اتخذوا جلستهم بالفعل إلى الطاولة بمشروباتهم.

قال الأب لهم قبل أن يلحق بالأم إلى المطبخ: «لن تدفعوا الحساب الليلة».

مكتبة ياسمين

مع تاي عدة رجال جدد الآن، للمزيد من الحماية. جلسوا يصغون إليه بانتباه وهو يحكي لهم بعض ما مرّ به مؤخرًا. كان يقول: «ظننتهم سيفعلون بي أمورًا دنيئة، دنيئة حقًا».

وهو يسير إلى طاولته سمع برنارد صوت تاي البطيء القاسي يعلو تدريجيًا، كأنه قرع طبول داخل رأسه عميقًا، مثل أصوات ضباط الشرطة.

قال تاي: «أتعرف كيف يأخذون البعض إلى بورت أو برانس ولا تسمع عنهم شيئًا ثانيةً أبدًا، أو كيف يبرحون المرء ضربًا حتى ينز خراءه. ثم أجل، ظننت أنني انتهيت، النهاية».

يتحدث بموضوعية، يسرد الوقائع فقط تقريبًا، بنوع من المرح يوحي بأنه حتى لو كان ذلك قد حدث بالفعل، فلم يكن ليُعدّ أمرًا مهمًا. هكذا يواجه تاي ورجاله ما تأتي به الأقدار، فكّر برنارد.

أدرك برنارد وهو يعبر الفناء بساقين مرتعشتين أن الأمر كله بالنسبة لتاي مجرد لعبة. تلفيق التهمة لبرنارد ثم إنقاذه منها، وها هو يجلس الآن مع أصحابه يضحكون ويشربون البيرة. كل هذا في يوم عمل واحد. مع ذلك، لم يستطع برنارد التخلص من شعوره بأنهم يومًا ما سيتم إطلاق النار عليهم جميعًا. مثل صاحب محل الأقمشة لورينت لافود ومثل كل شباب العشوائيات تقريبًا. يومًا ما قد يخطر لأحدهم، شخص ما غاضب وقوي، ومجنون - ضابط شرطة أو زعيم عصابة، أو حتى زعيم الأمة - أنهم، وكل من يعيش بالقرب منهم أو مثلهم، من الأفضل أن يموتوا.

سار إلى طاولة تاي ومدّ له يده. قال له تاي وهو يدق بقبضته على صدره، بالقرب من قلبه: «لا ضغينة؟» لاحظ برنارد حينها أن لثة تاي حمراء كجدران غرفته، كأنه مصاب بعدوى ما أو أكل لحمًا نيئًا.

t.me/yasmeenbook

سأل تاي برنارد: «هل آذوك؟»

قال برنارد: «لم يكن الأمر سيئًا جدًا».

لم يكن تاي يرتدي ذراعه الصناعية فكان كم قميصه يتدلى فارغًا. أشار بيده السليمة للرجل الجالس بجانبه أن ينهض ليجلِس برنارد مكانه.

نظر برنارد عن قرب إلى فراغ الذراع المبتورة. ظن أنه رأى شيئًا ما أبيض، كأنها قطعة عظم مصقولة تبرز من تحت ندوب ليّنة. مال برأسه ليراها بشكل أفضل وهو يحاول ألا يبدو هدفه واضحًا. لجزء من الثانية تحسس برنارد جسده كله سريعًا ليتأكد من أنه سليم.

ازدحم المطعم على نحو غير مألوف في تلك الساعة. سمع برنارد فوق ضجة الأصوات التي تطلب المشروبات، مَن يسألون والديه عنه، هل أُطلَق سراحه بالفعل، ثم يمرون بالطاولة التي يجلس إليها مع تاي ليتأكدوا بأنفسهم. حتى إن بعضهم صافحه، وقبّلته نساء قليلات على خدّه.

إنه الآن نوعًا ما بطل، اطّلع على ما يجري في الجحيم وعاد منه.

يتخيل الآن أن يبدأ تقديم برنامجه الإذاعي الخاص بفقرة عن الأعضاء المبتورة. ليس ذراع تاي فقط، بل أعضاء أشخاص آخرين أيضًا. سيفتتح النقاش بسؤال عن عدد من فقدوا أذرعهم، أو أرجلهم، أو أيديهم في سيتي بيندو. سينتقل من الحديث عن الأطراف إلى الأرواح، كم عدد من فقدوا أشقاءهم، آباءهم، أطفالهم، وأصدقاءهم. هؤلاء هم الأشباح الحقيقيون، سيقول هذا، الأطراف الأشباح، الأذهان الأشباح، أشباح الأحباء المفقودين تطاردهم لأنهم استِخدموا، ثم تُركوا، لأنهم ليس لديهم خيارات أخرى، لأنهم فقراء.

اقترب الآن موعد إغلاق المطعم. أحضرتْ والدته آخر زجاجات البيرة

مكتبة ياسمين

إلى الطاولة. تجنّبت النظر إليهم وهي تنقل الزجاجات من على الصينية إلى الطاولة. انتظر برنارد عودتها إلى المطبخ قبل أن يرفع زجاجته نحو تاي ويقرع فوهتها بفوهة زجاجته. قرع تاي فوهة زجاجته بقوة. رأى برنارد شرارة سريعة وفوهة زجاجته تنكسر تاركة فجوة مسننة في الزجاج. سقطت كسرة زجاج على الطاولة برذاذ بيرة، وسقطت أخرى على الأرض الطينية.

ضحك تاي بصوت عال، ضحكة أشباح ذكّرت برنارد بالضباط في السجن، وكشفت عن لثته القرمزية، وأشار بزجاجته نحو برنارد قائلًا: «إن كنت ستقدم شيئًا ما في الراديو، فلن يكون كخراء الشواذ هذا الذي يقدّمه من *رجل إلى رجل*. يجب أن يكون حقيقيًا».

توقف تاي عن الضحك وملأ فمه بالبيرة التي جرعها بصوت عال، كأنه يغرغر. ثم قال لبرنارد: «لا تقلق»، بدا أنه يحدث نفسه أيضًا. «طالما أنا هنا، لن يحدث لنا شيء الليلة».

في الصباح التالي، وُجد برنارد دوريان مقتولًا في فراشه في غرفة نومه. قُتِل بالطريقة نفسها التي قُتِل بها «لورينت لافود»، صاحب محل الأقمشة، بثلاث رصاصات في القلب أطلقها خبير، وفي حالة برنارد، بكاتم للصوت.

كان والداه قد فتحا المطعم بالفعل لتقديم الإفطار قبل أن يجداه، فظلت فتيات الجيران يقدمن الطعام الذي أعددنه، فيما يعد مأمور شرطة سيتي بيندو، والنائب العام الذي يكره العصابات، تقريريهما.

«العينُ بالعينِ. انمحى فرد عصابة آخر من على وجه الأرض»، هكذا بدأتْ نشرة أخبار إذاعة زواريا. التي كان برنارد دوريان سيحررها بنفسه لو كان ما زال حيًا ويعمل في الإذاعة.

t.me/yasmeenbook

الدِيار

لم تأت صاحبة ماكس آردين جونيور. كانت غرفة معيشة أبيه الدائرية الفسيحة مزدحمة بمئات الضيوف ممن جاءوا لزيارته في الليلة الأولى لعودته إلى الديار بعد غياب دام عشر سنوات.

كان ماكس الابن قد أخبر والده، ماكس الأب، على الهاتف من ميامي، أنه سيعود إلى الديار بصحبة فتاة.

سأله ماكس الأب: «أي فتاة؟»

أجابه ماكس الابن: «مجرد فتاة».

«من أي عائلة؟» ألح ماكس الأب آملًا أن يردد ابنه لقب عائلة محترمة من أوساطهم في ميامي أو العاصمة أو بلدة أخرى، لكن ماكس الابن أجاب بمرح: «من العائلة الإنسانية»، ما جعل أباه يصارحه بقلقه من أن يجلب إلى البيت فتاة أجنبية فقيرة.

قال ماكس الابن في محاولة لتهدئة قلق أبيه: «إنها هايتية وتعرف فيل روز».

«يا إلهي» [بالفرنسية]. تنهد ماكس الأب تنهيدة مصطنعة وضَحِك قائلا: «هاييتية فقيرة وتعرف فيل روز أيضًا».

من أدنى درجة على السلم القديم من خشب الورد، الذي تم تلميعه وصقله وإعادته إلى الحياة احتفالًا بتلك المناسبة الخاصة، يمسح ماكس الابن

مكتبة ياسمين

الآن بعينيه غرفة معيشة أبيه المؤطرة بأرفف الكتب بحثًا عن وجوه مألوفة. تعرف على صديقين قديمين لأبيه، سوزان بونسيه، ملكة جمال لم تؤثر فيها الشيخوخة كثيرًا، وألبرت فنسنت، متعهد الدفن في البلدة، وعمدتها الحالي أيضًا. حول سوزان بونسيه دائرة من جميلات أخريات تقدّم بهن السن، يضع أغلبهن قدرًا كبيرًا من الأحمر على خدودهن، وشخص أو شخصين من خارج دائرة أصدقاء أبيه، رجّح ماكس الابن أنهم أبناء الجميلات العجائز وأزواجهم الذين من فيل روز، والذين تلقّى أبناؤهم وبناتهم تعليمًا كنديًا أو فرنسيًا أو مكسيكيًا أو أمريكيًا، ويفضلون البقاء في العاصمة، لكنهم يأتون في زيارات سريعة إلى روز فيل لرؤية والديهم.

قبل أن يغادر فيل روز منذ عشرة أعوام، قضى ماكس الابن عددًا لا يحصى من فترات الظهيرة والأمسيات في صحبة أشخاص أرق وأكثر جاذبية من هؤلاء. حضر حفلات أعياد ميلاد، وحفلات زفاف، وجنازات، وشاهد مباريات كرة قدم، وشارك في بطولات لعب الورق والدومينو عقب عدد لا يحصى من وجبات عشاء مساء الأحد. بعيدًا عن زملائه في المدرسة، والفتيات اللائي كان يصاحبهنّ من حين لآخر، كان هؤلاء من النوع الوحيد الذي يرضى عنه والده.

كان الأمر مختلفًا حين كان ماكس الابن صغيرًا. قبل انفصال أمه عن أبيه وهجرتها إلى ميامي. كان ماكس الأب يجد الوقت لحضور الحفلات والمناسبات مع ماكس الابن وأمه في الاتحاد الفرنسي أو في السفارات الأجنبية في بورت أوبرانس. حين صار في التاسعة عشرة من عمره، وكانت أمه قد غادرت، أتم دراسته وحصل أيضًا على شهادة البكالوريا الأمريكية بالمراسلة. درس قبل هذا في مدرسة آردين، وحين تجاوز مرحلتها، صار أبوه هو مدرّسه الوحيد.

t.me/yasmeenbook

ظل حلم ماكس الأب طوال الوقت أن يساعده ابنه في إدارة مدرسته. لكن ماكس الابن أراد وهو في التاسعة عشرة من عمره أن يصبح «منسق أغاني»، «ديجاي»، في الإذاعة. لذلك استخدم ماكس الأب علاقاته ليساعده، وتدبّر أن يقدم ابنه برنامجه الخاص في إذاعة زواريا. شجعه أيضًا على استكمال دراسته في ميامي. لم يفقد الأمل قط في أن يعود ابنه يومًا ما ويتولى إدارة مدرسة آردين. لكن ماكس الابن اختار أن يبقى في فلوريدا، ويدير محل الساندوتشات الذي فتحته أمه في الحي الهاييتي الصغير بميامي.

قابل ماكس الابن جاسمينَ هناك، أجرى معها مقابلة للعمل في محل السندوتشات بدوام جزئي. كان حينها أكثر امتلاءً، شاب في التاسعة عشرة من عمره ضخم وبشعر «أفريقي» أشعث، مع ذلك بدا أنها معجبة به. أجرى مقابلة العمل بأكملها بالكريولية. ما راقها للغاية. كانت جاسمين حينها طالبة جامعية في عامها الأخير، تبحث عن عمل ليمكّنها من مواصلة دراسة التمريض، نشيطة وواثقة من نفسها، لكن ما أعجبه فيها أكثر من أي شيء آخر كان القرطين الذهبيين المعلقين على جانبيّ خدّيها. ظلت حتى أنهت دراستها وبدأت العمل كممرضة أطفال أفضل من عَمل لديه، والعاملة المفضلة لدى أمه. وأقرب أصدقائه أيضًا.

لكن أين جاسمين الآن؟ تساءل وهو يندمج مع أصدقاء أبيه ويتلقى منهم الترحاب. هل فُقِدت؟ في المرور المختنق الزاحف كالثعبان من الطريق الوطني رقم 2 المليء بالحفر؟ هل اختُطفت في طريقها من بورت أو برانس؟

انفصلا في المطار قبل أن يقابلها أبوه. أخبرته أن عليها الذهاب لمقابلة خالتها، وبعدها سيساعدها ابن خالتها الذي سيقلّها من المطار على السفر إلى منزل أبيه في موعد الحفل. لم يأخذ رقم هاتف ابن الخالة. ظل طوال فترة الظهيرة يتصل بهاتف منزل خالتها دون أن يجبه أحد. ربما كان الهاتف معطلًا.

مكتبة ياسمين

هل تعطل هاتف جاسمين المحمول الذي أتت به معها من ميامي أيضًا؟

ضغطتْ يد ماكس الأب الحازمة على كتف ماكس الابن فيما كان الأخير يتحدث شارد الذهن مع ألبرت، صديق أبيه المقرّب. كان الرجلان قريبين للغاية، لحد أن بدا أحيانًا أنهما يعيشان الحياة نفسها، يتخذان المسار نفسه، ليس وظيفيًا فقط، بل عاطفيًا أيضًا.

قال ألبرت لماكس الابن ويداه ترتعشان كعادتهما دائمًا: «طال غيابك»، يعرف ماكس الابن منذ كان صغيرًا، أن الغرض من القبعة الفيدورا التي يحملها معه العم ألبرت -كما يحب ماكس الابن أن يدعوه دائمًا - هو إخفاء رعشة يديه، لكنها لم تفعل سوى لَفت المزيد من الانتباه إليهما، خاصة حين تسقط أرضًا ويضطر للانحناء لالتقاطها.

يُقال إن تلك الرعشة هي السبب في إقامة زوجة ألبرت بالقرب من المدرسة الداخلية التي يدرس بها ابنهما وابنتهما التوءمان البالغان من العمر خمس عشرة سنة في ماساشوسيتس، في حين يدير هو دار جنازات توارثتها عائلته لأربعة أجيال.

سأل ماكس الأب ابنه: «أين فتاتك؟»

قاطعهما ألبرت ضاحكًا: «فتاتي؟ هي وزوجتي لا تتفقان لذلك لم أُحضرها معي».

ظل ماكس الابن هادئًا، يشعر أنه خارج السياق بمزاح الصديقين المطوّل.

كانت زوجة ألبرت الطويلة الأنيقة، والأصغر منه بعقدين من الزمان، في البلدة بالفعل. تقف في مؤخرة غرفة المعيشة، عند رفوف الكتب، تدردش مع مجموعة صغيرة من الزوجات المغتربات، كما يحب أبوه أن يدعوهن، النساء اللائي يعشن في بلدان أخرى بعيدًا عن أزواجهن، وحين يعدن في

t.me/yasmeenbook

زيارات، لا يشعرن بالراحة أبدًا ويرتدين ملابس غير مناسبة، مثل الأحذية الجلدية برقبة عالية في مايو، أو البناطيل القصيرة في ديسمبر، أو في أي وقت آخر من العام. بدا لماكس الابن أن كاتيا فنسنت قد اكتسبت أرطالًا قليلة فقط منذ أن رآها آخر مرة منذ أكثر من عشرة أعوام، تذكّر ما يقوله أبوه عن ما يدعوه الزوجات المغتربات: إنهن يعدن كل مرة أسمن، وتفوح منهن رائحة الصابون، ويغضبن لمرأى كل ذبابة أو كوب زجاجي متسخ.

تذكر أيضًا أنه كان قارع الأجراس في زفاف كاتيا وألبرت فنسنت. أقام والداه حفل خطبتهما. كان أبوه الإشبين. كانت تلك الفترة من حياته التي يتمنى أحيانًا أن يعود إليها. لكنه أدرك فيما بعد أن أمه - وربما كاتيا فنسنت أيضًا - لم تكونا سعيدتين هنا قط.

ظلت أمه على نحو خاص، تفكر طوال الوقت في العيش في أماكن أخرى، في البلدان التي تمثلها السفارات الأجنبية والمنظمات والائتلافات الثقافية، وبخلاف كاتيا فنسنت، لم تستطِع والدته الهرب من فيل روز والاحتفاظ بزواجها في الوقت نفسه.

سأل ماكس الابن ألبرت: «كيف حالك في إدارة البلدة؟»

أجابه ألبرت: «يقولون إن بعض الجناة يرسمون الصليب على أنفسهم قبل أن يطلقوا النار على ضحاياهم». صوته رقيق ومنغّم، يُهدئ أذنيّ ماكس الابن. لطالما أحب صوته. على النقيض من صوت أبيه الذي يبدو دائمًا كأنه يكافح التلعثم، كان ألبرت يتحدث كمغني، مغنّي أغاني عاطفية مؤثرة، ما عدّه ماكس الابن ميزة جيدة لمستقبل ألبرت السياسي الجديد. قال ألبرت: «أتمنى أن أرى الناخبين جميعًا يرسمون الصليب على أنفسهم قبل أن يدلوا بأصواتهم لصالحي، حين تسير الأمور جيدًا يعود الفضل إلى الحكومة الوطنية، وحين يسير أمر ما على نحو خاطئ يقع اللوم عليَّ أنا».

مكتبة ياسمين

قال ماكس الابن:«هذه هي السياسة، أليس كذلك؟»

أضاف والده: «هذه هي الحياة».

قال ألبرت «أراهم جميعًا في النهاية مع ذلك، الجناة والمجني عليهم».

سأله ماكس الأب:«هل يمنحك هذا الحق في إقحام الموت في كل محادثة معك؟»

قال ألبرت وهو يطلق ضحكته الثرية المنغّمة مجددًا: «أردت أن أتحدث عن الزوجات والفتيات، لكنك لم تدعني».

سأله ماكس الأب: «ألديك حرس خاص الآن؟ أمن؟»

قال ألبرت: «ولماذا؟ إن أراد أحدهم أن يقتلني، سيضطر لقتل الحرس الخاص أولًا ثم قتلي. أنا أوفر على البلدة المال وعلى المجرمين الرصاص».

تركهما ألبرت وسار عبر الغرفة نحو زوجته. راقب ماكس الابن صديق أبيه يضع ذراعه حول امرأة يقول الكثيرون إنها تزوجته من أجل ثروته فقط. حتى إنها أخذت طفليه بعيدًا عنه، كما اعتاد أبوه أن يقول، وحبستهما في تلك المدرسة الداخلية، حيث يقضيان أغلب وقتهما في كُره وطنهما. بالفعل، لم يكن التوءمان يحبان العودة إلى روز فيل، كانا يفضلان السفر مع أصدقائهما في عطلات الشتاء، وقضاء الصيف في معسكرات في فرنسا، على أن يزورا والدهما الذي عليه أن يزورهما هو دائمًا. يومًا ما سيعودان، ماكس الابن متأكد من هذا، حين سيضطرا إلى بيع دار الجنازات أو تولي إدارتها.

يسأل ماكس الأب ابنه الآن: «لماذا لم ترسل السائق لفتاتك؟»

أجابه ماكس ا الابن مازحًا: «أنا لا أعرف شيء عن السائقين والفتيات». تخيل أن يضيف العم ألبرت مزحة أخرى على هذه قائلًا: «لقد فقدت الكثير

t.me/yasmeenbook

لهذا السبب، الكثير من السائقين وليس من الفتيات».

في وقت لاحق من الحفل، تأثر ماكس الابن حين وقف أبوه أعلى السلم أمام الغرفة المليئة بأصدقائه وألقى خطاب ترحيب موجز.

قال أبوه وهو يرفع كأس الشمبانيا خاصته أعلى رأسه: «أنا سعيد لعودة ابني، ولا أعرف كيف قضيت كل هذا الوقت هنا دونه».

مع أنه ظل أغلب حياته يدير مدرسة، لكن الخطابة لم تكن أحد مواهبه، ما جعل لخطابه هذا قيمة كبيرة عند ماكس الابن، الذي حين جاء دوره ليتحدث، حذا حذو أبيه وكان موجزًا هو الآخر. وقف بجدية بجوار أبيه وقال: «من الجيد العودة إلى الدِيار، حتى ولو لفترة قصيرة فقط».

صاح أبوه يتصنّع الدهشة: «فترة قصيرة فقط؟» وقرع جميع من الغرفة كؤوس الشمبانيا مرة أخرى.

وسط كل المحادثات والدردشات السريعة مع ضيوفه وضيوف أبيه، لم يكن ماكس الابن يفكر سوى في سبب رحيله من روز فيل وهاييتي في المقام الأول، وإن كان سيرى جاسمين مرة أخرى أم لا.

تلك الليلة، بعد أن غادر الجميع، وأوى أبوه إلى النوم، ظل ماكس الابن يتصل بهاتف جاسمين الخلوي الذي أتت به من ميامي، وظل الهاتف مشغولًا دائمًا. لم يكن يهمه أن الوقت متأخر، كان ليخرج للبحث عنها في أي وقت لولا أنه لم يكن يعرف أين منزل خالتها في بورت أوبرانس. كم هو غبي لأنه لم يسألها عن هذا من قبل!

ظل متوترًا بسبب تلك الرحلة فلم يفكر في كافة التفاصيل. لكن أيعني إهماله هذا إنه ليس في حاجة إليها هنا كما ظنّ؟ في ميامي هي الشخص الوحيد الذي يمكنه التحدث معه بصراحة عن كل شيء. ليست ممن يصدرون

مكتبة ياسمين

أحكامًا البتة، تستمع لاعترافاته كلها بوجه خال. هي الفتاة الوحيدة التي أخبرها، مثلًا، بأنه أب لطفل منذ عشرة أعوام، طفل لا يعرف حتى اسمه، طفل لم يقابله قط.

راقدًا في الغرفة نفسها التي ظل ينام فيها منذ كان طفلًا، ظل ماكس الابن يضغط زر إعادة الاتصال بهاتف جاسمين الخلوي مرارًا وتكرارًا. شعر بغرفته حارّة بشكل لا يُطاق، فنهض وفتح مصراعي الشرفة التي تطل على حمام سباحة على شكل حبة الفول السوداني ويفصل بين شرفات المنزل وسكن خادمات منزل أبيه والمنزل المجاور. شخص ببصره في السماء وتلقّى ألق كتلة النجوم، شيء ما لم يره في ميامي قط.

فكر أن عليه الذهاب إلى بورت أو برانس للبحث عن جاسمين. أليس هذا ما ينبغي فعله، بدلًا من الاتصال برقمها كل خمس دقائق والشخوص ببصره في السماء؟ عليه أن يبحث عنها. مثلما كان عليه أن يبحث عن برنارد دوريان منذ عشرة أعوام. كان عليه العودة لحضور جنازته على الأقل. الأرجح أن أبويه قد أخذا جثمانه إلى الجبال ودفناه هناك. انزعج لفكرة رقود برنارد جامدًا في قبر في مكان ما أعلى التل. أن يكافح المرء بشدة ليعيش في البلدة ثم يعود إلى قبر في الجبال؟ ما جدوى التضحية بالكثير جدًا للرحيل من مكان فقط لينتهي بك الأمر عنده تحديدًا؟ لكن ألا يفعل هو الشيء نفسه الآن، بعودته إلى الديار، برجوعه إلى الخلف في حين عليه أن يمضي قدمًا؟

فكر في أن يسبح قليلًا ليهدأ، ثم عدل عن الفكرة. عاد بدلًا من ذلك إلى الفراش وعاود الاتصال برقم جاسمين، فقط لتجبه نغمة الخط المشغول نفسها. انطفأ مولد الكهرباء لتلك الليلة بالفعل. نفدت حصة هذا الجزء من البلدة من الكهرباء. لم يعد لديه خيار سوى الرقود في الظلام، في ثوب السباحة خاصته، بعينين مؤرقتين مفتوحتين.

t.me/yasmeenbook

حين استيقظ ضحى اليوم التالي، واتصل بجاسمين ليتلقى نغمة الخط المشغول مجددًا، قرر أن يستعير سيارة أبيه الجيب ويذهب بها إلى بورت أو برانس، لكنه حينها سمع طرقًا على باب غرفته.

دخل أبوه الغرفة فورًا، يرتدي بذلته الرياضية الرمادية بلون الأسلحة المعدنية والتي يمارس بها رياضة الجودو، وحيدًا، ضد شجرة كارامبولا في حديقته كل صباح.

قال أبوه: «لديك زائر».

سأله وهو يأخذ بنطال كاكي من على ظهر مقعد قريب ويرتديه: «جاسمين؟»

سأله أبوه وهو يقترب منه ليساعده على ارتداء بنطاله: «من تقول؟»

«هل هي جاسمين؟»

«الفتاة التي لم تأتِ بالأمس؟»

«هل هي بالأسفل؟»

يرتدي ماكس الابن الآن قميصًا أحمر أهدته له جاسمين بمناسبة تعيينها في محل ساندوتشات «ليتل هايتي». كان قد وعدها أنه سيرتديه حين يعود إلى الديار لأنه بلون نصف العلم الوطني لهايتي.

البنطال والقميص مجعّدان قليلًا، لكنه لا يهتم. كان على وشك الانطلاق من الغرفة حين أمسك أبوه به من مرفقه وأوقفه. بالرغم من شعر العجوز الذي غدا رماديًا، بعد أن كان بلوني الملح والفلفل، ونحافته وبطئه اللذين كانا يزيدان مع كل زيارة لابنه في ميامي، وبرغم شكواه من حين لآخر من آلام ظهره وكتفيه، لكنه ما زال قويًا إلى حد كبير. فكر ماكس الابن أنه لو

مكتبة ياسمين

حدث واشتبكا معًا في عراك فسيهزمه أبوه بسهولة.

قال أبوه: «اسمعني، توقف. اهدأ. هل تحب تلك الفتاة، ما اسمها، ديسالين؟»

«جاسمين».

«أيًا كان، هل تحبها؟»

قال بتوسُّل واحتجاج في الوقت نفسه: «بابا، ماذا تريد مني؟»

سأله العجوز: «كنت تحب فلور أيضًا، أليس كذلك؟»

ضغطتْ قبضة أبيه على عضلة مرفقه. عليه أن يدفع العجوز جانبًا ليمر من الباب. لم يكن ممن يشغلون ذهنهم بتلك التفاصيل تحت أي ظرف أيًا كان. قال وهو يجاهد ألا يعلو صوته: «بابا، لا وقت لهذا».

قال أبوه: «نعم، لكنه الوقت المناسب بالفعل، لأن فلور بالأسفل الآن. ومعها ابنك».

«فلور؟»

قال العجوز وهو يتركه: «بلحمها ودمها، ومعها ابنك».

لا يتذكر ماكس الابن هبوطه السلم. فقط شعر بقدميه تهبطان درجتين في كل قفزة حتى صار بالأسفل. في البدء رأى من حيث يقف على الجانب الآخر من الغرفة، ظهْر امرأة ترتدي ثوب بلا أكمام بلون المانجو. شعرها قصير لكنه مجعد بدقة كأنها اعتنت بكل خصلة منه على حدة. حين استدارت أخيرًا لاحظ أحمر الشفاه بلون الكرز الذي تضعه.

كانت فلور، لكنها ليست فلور حقًا. كانت فلور، لكنها لم تعد الفتاة المراهقة النحيفة التي ترتدي زي الخادمات البيج نفسه الملطخ ببقع الطعام

t.me/yasmeenbook

والقذارات من عملها في المطبخ والحمامات بمنزل أبيه. كانت فلور، لكنها ليست فلور حقًا، صارت الآن امرأة سمراء ناضجة، شرسة. كانت سلسلة الأحداث بكاملها - ممارسته الجنس معها وحملها - في هذه المرأة التي تقف على مبعدة عدة خطوات منه الآن.

سألها طلبًا للتأكيد أكثر منه تحية: «فلور؟»

أدارتْ رأسها نحوه لكنها لم تقل شيئًا.

سألها وهو يتفرس فيما آلت إليه: «كيف حالك؟ ماذا تفعلين هنا؟»

لم يكن يقصد بما قاله تأنيبًا. بل كان فضوله حقيقيًا، يريد أن يعرف حقًا كيف عادت إلى منزل أبيه، في غرفة المعيشة، في وضح النهار.

أجاب أبوه نيابةً عن فلور: «لدى فلور الآن صالون تجميل في بورت أو برانس، أنا من دعوتها لتأتي لزيارتنا».

كان ماكس الابن يفكر في طريقة ليسأل بها عن ابنه حين سمع صوت طفل ينادي من خلف الأريكة التي سارت فلور إليها لتجلس عليها.

سأل الولد: «الآن؟»

أجابته فلور: «نعم».

خجولًا، كما كانت فلور قبل أن تتغير على هذا النحو المذهل وجهًا وجسدًا - وموقفًا أيضًا، كما يبدو، إذ لم تحِد عيناها عن عينيه، ولم يلِن وجهها للحظة - أبقى الطفل عينيه على ماكس الابن وهو ويُدخل ويُخرج مصاصة أطفال ضخمة بلون برتقالي في فمه. كان يرتدي تيشيرت أبيض سادة وبنطال جينز، وكان من الواضح وعيه بأنه محطّ اهتمام الجميع، لكنه مع ذلك أخذ وقته في مسح الغرفة بعينيه، تمعّن في نباتات الزان خلف الأرائك الجلدية

مكتبة ياسمين

العتيقة واللوحات التجريدية الضخمة على الجدران. عبس وجهه لمرأى اللوحات، لُطَخ ضخمة فاقعة لا منطق فيها بالنسبة لماكس الابن أيضًا. بدا ممتلئًا وقويًا، لكن ماكس الابن لا يعرف أطفالًا كثيرين في مثل سنه، لذلك لم يكن متأكدًا. لم يكن لا هو ولا أبوه نحيفين. كانا متوسطي الطول، بكرشين، وممتلئين، كما قد يصبح هذا الولد يومًا ما، حين يكبر. كان الولد يشبههما إلى حد كبير في الحقيقة، ينسجم تمامًا مع شكل جميع أجيال الرجال في عائلته.

سأل ماكس الأب من خلف الدرابزين حيث يقف الآن: «وماذا تفعلين معه في المدرسة في بورت أو برانس؟ هل يذهب إلى مدرسة جيدة؟ تعرفين جيدًا فلور أننا لدينا مدرسة هنا، مدرسة جيدة».

نقلتْ فلور حقيبتها القش الصغيرة من كتف إلى أخرى، وهي تجول بعينيها في الغرفة كأنها تبحث عن ملاذ. قالت: «إنه بحال جيدة، كما ترى».

يقف ماكس الابن الآن أمام ابنه مباشرة، يرفع الابن نظره لأعلى، وينظر ماكس للأسفل إليه. مال ليقابل بوجهه وجه ابنه وقال: «مرحبًا».

ردّد الولد والمصاصة في أحد جانبي فمه من الداخل: «مرحبًا».

خشي ماكس الابن للحظة من أن يقفز الطفل عليه ويطرحه أرضًا أمام عيني والده الذي يقف خلف الدرابزين. قال له: «أنا اسمي ماكسيم آردين جونيور».

فكر أنه ولد وسيم، طفل صغير بكتفين منحنيين ووجه غض وابتسامة واسعة. كان هو نفسه هكذا وهو صغير. انتظر أن يخبره الولد باسمه. ظنّ للحظة أنه لن يفعل. نظر الولد إلى أمه في انتظار إشارة ما عمّا ينبغي عليه أن يفعله. فمالت برأسها وبدت هي نفسها مهتمة بسماع رد الولد مثل ماكس الابن تمامًا.

t.me/yasmeenbook

قال الولد: «أنا اسمي باماكسيم فولتير».

يحمل الطفل لقب عائلة فلور، فولتير، لأن ماكس الابن لم يقر بنسب الطفل قانونًا. ويسبق اسمه المقطع «با»، الذي يعني في الكريولية ضمير الملكية للمفرد الغائب «له»، وكذلك نفيه في الوقت نفسه، أي أن اسم الولد يعني أنه ابن ماكسيم أو ليس ابنه. لا أحد يعرف يقينًا سوى الأم.

كرر ماكس يحاكي صوت الولد المتردد: «باماكسيم».

أدهشه أن سمَّت فلور الولد بهذه الطريقة.

قال ماكس الأب: «إن كان فتاة لكنّا دعوناها «بام» على الأقل»، فرمقته فلور بنظرة جافة.

عاد الولد ينظر إلى فلور التي أومأت له برقة لأنه نطق اسمه بشكل سليم، سأل الولد، وما زالت المصاصة في فمه، بصوت خجول بدا أنه تمرّن عليه من قبل قليلًا: «هل أنت بابا؟»

قال ماكس الابن: «نعم». أدهشه اندفاع الكلمة من فمه. ورغم أنه لم يمنحه لقب عائلته، لكنه وهو ينظر إلى وجهه الآن، يزداد يقينًا أنه ابنه، بصرف النظر عن النفي أو الإثبات في اسمه.

تذكر وهو يميل على ابنه قصة أخبرته بها جاسمين حين أخبرها أنه يفكر في العودة للدِيار. التقى والدا جاسمين في ميامي، كان كلاهما عامل نظافة في فندق هناك. بعد زواجهما بوقت قصير قرر والد جاسمين العودة إلى هاييتي للعيش فيها. بقيت والدتها في ميامي، على وعد أن تلحق به خلال أسابيع قليلة. خلال هذه الفترة عرفت الأم بحملها في جاسمين ولم تعد راغبة في العودة إلى هاييتي، ورفعت دعوى للطلاق. لم يعرف الأب شيئًا عن جاسمين حتى عامها الدراسي الأول في المدرسة العليا، حين عاد إلى

مكتبة ياسمين

ميامي مريضًا ويحتضر، للعلاج. كانت أمها قد أخبرتها أنه هجرهما. لم ترَ أباها في حياته وبالطبع لم ترغب في رؤيته يحتضر. مع ذلك ذهبت مع والدتها لرؤيته في المستشفى. كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصولهما إلى هناك بوقت قصير. سُمِح لهما بالبقاء في الغرفة مع الجثمان لدقائق قليلة فقط قبل أن يأخذوه على نقالة مُغطى بملاءة بيضاء، إلى المشرحة بالأسفل.

ظل ماكس الابن منذ أن أخبرته جاسمين بتلك القصة يعيد ذلك المشهد في المستشفى في ذهنه مرارًا وتكرارًا، يضع ابنه مكان جاسمين وهو مكان الأب الميت الذي يُخرجونه على النقّالة. أسوأ حالة حب من طرف واحد يمكنك تخيُّلها، كما قالت جاسمين، أن يهجرك أحد والداك.

كان هو وابنه في غيبوبة رقيقة الآن، لا يرى أحدهما سوى الآخر، لم ينتبه لهذا إلا حين طرقعت فلور بأصابعها وصفّرتْ، لتشير للولد ليأتِ بقربها. لم تكن فلور التي عَرَفها من قبل لتأتي بتلك الحركات الوقحة.

ما زال باماكسيم يقف أمامه. أراد ماكس الابن أن يحتضنه لكنه خشي إخافته. واصلت فلور محاولاتها للفت انتباه الولد، صفّقت مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، مع ذلك لم يتحرك الولد. بدا ممزقًا وهو ينظر إليها ثم إليه. نظر الولد إلى ماكس الأب، جدّه، الذي أشار له بسبابته نحو فلور.

قال ماكس الأب: «لماذا هذه العجلة؟ دعي الولد يمكث معنا يومين أو ثلاثة. دعينا نره أكثر. يمكنه اللعب والسباحة معنا في حمام السباحة».

استدار الولد إلى ماكس الأب الذي يقف الآن رافعًا كلتا يديه لأعلى في الهواء كأنه يتوسل إلى السماء أن تسدي له صنيعًا خاصًا.

قالت فلور كأنها تتحدث من خلف سور سلكي في فمها: «لن يمكث هنا».

t.me/yasmeenbook

اندفعتْ إلى الأمام وهي تقول هذا وأمسكتْ بيد باماكسيم، الذي لم يتحرك. حاول ماكس الابن لمس يد الولد الأخرى، تلك الأبعد عن متناول فلور، لا ليربِّت عليها أو ليقبلها، بل فقط ليلمسها، ليقول وداعًا بشكل محسوس. لكنه قبل أن يستطيع، جذبت الأمُ الولد بعيدًا. مالت عليه وأشارت إليه أن يعطيها المصاصة، ثم وضعتها في حقيبتها.

ظل ماكس الابن راكعًا مكانه فيما يبتعد ابنه دون أن يستدير إليه. ظل على ركبتيه آملًا أن يستدير إليه الطفل، ليعانقه أو ليقبله، ليقول له وداعًا لأول مرة بعد أن قابله لأول مرة. لكن ماذا فعل ليستحق كل هذا؟

بعد خروجهما سمع أصواتًا تأتي من عند الباب الأمامي. كانت فلور تتحدث مع امرأة أكبر منها في السن، ظلت تعمل لدى أبيه لسنوات طويلة لكنه مع ذلك يظل يدعوها الخادمة الجديدة. بدا أن «باماكسيم» لديه شيء يريد أن يعطيه له، وكانت فلور تطلب من الخادمة الجديدة أن تأخذه لئلا يضطر الولد للعودة إلى الداخل. فكر في أن يهرع إلى الخارج لأخذه، لكنه منع نفسه. لفلور كامل الحق في اتخاذ كافة القرارات.

ثم سمع صوت إغلاق الباب الأمامي.

قالت له الخادمة الجديدة وهي تناوله ورقة بيضاء مطوية: «مِن الطفل».

يشعر بأبيه يراقبه. كان وهو يقدم برنامجه الغنائي في إذاعة زواريا يتلقى الرسائل في محطة الإذاعة والبيت طوال الوقت. كانت الكثير من الفتيات يُسلّمن الخطابات التي تفوح بعطورهن لفلور عند الباب الأمامي.

فتح الورقة التي أرسلها له ابنه. مكتوب فيها كلمة «بابا» بحروف صغيرة مائلة، ورسم لرجل وجهه ليس سوى دائرة بيضاوية خالية. تاق إلى شرح يعرف جيدًا جدًا إنه لن يسمعه أبدًا. أعاد طيَّ الورقة ووضعها في جيب

مكتبة ياسمين

بنطاله، ثم نهض عن الأرض وخرج بسرعة من الغرفة. لحق به أبوه، كأن الأب والأبن قد توصلا إلى القرار نفسه في اللحظة نفسها.

يمتد في الحديقة الاستوائية الغنّاء الخاصة بماكس الأب طريق سيارات مبلّط يصل بين الشرفة والبوابة الخارجية.

صاح ماكس الابن يستوقف فلور: «انتظري».

استدارتْ فلور، وكذلك الولد، يُقلّد أمه. لحق بهما ماكس الابن بالقرب من سيارة أبيه المتوقفة، عند البوابة الحديدية الواطئة.

قال ماكس الابن: «دعيني أقلّكما إلى حيث تذهبان».

توقع أنهما عائدان إلى بيت والدة فلور في سيتي بيندو. أضاف وهو يربت على شعر ابنه المقصوص قصيرًا: «أنا هنا الآن».

ارتبك الولد ورفع رقبته لينظر إلى أمه وأبيه في وقت واحد. شعر ماكس الابن كأنه في ميدان عام ووالده يراقبه من مقعد خشبي على الشرفة. لكن لا شيء من هذا يهم. لم يعد في التاسعة عشرة من عمره. إنه رجل كبير الآن، رجل له ولد من تلك المرأة.

سار أبوه من الشرفة ووقف إلى جانب الولد.

سأل ماكس الابن أباه: «هل يمكنني استعارة سيارتك لأقلهما إلى البيت؟»

رفعت فلور حاجبيها باندهاش.

سأل ماكس الأب ابنه: «هل تعرف الطريق؟»

أومأ ماكس الابن برأسه.

t.me/yasmeenbook

عاد ماكس الأب إلى المنزل ليأتي بمفاتيح سيارته الجيب تويوتا التي يدعوها الجميع «قرن البقرة». ناول المفاتيح لابنه ثم سار إلى البوابات الأمامية ليفتحها للسيارة. ثم عاد إلى شرفته، وقبل أن يدخل البيت، صاح نحو حفيده: «وداعًا!». لكن الولد لم يلحظه حتى، انشغل بمراقبة أبيه عن الانتباه إلى أي أحد آخر.

ساعد ماكس الابن ابنه أولًا على ركوب السيارة. منحه هذا فرصة أخرى ليلمسه وهو يمسك بيديه ويساعده على الجلوس في المقعد الخلفي. حاول ربط حزام الأمان حول صدر الولد. لكن الحزام ارتفع إلى عنقه، فقرر التخلي عن الحزام. أغلق الباب، فتح باب الراكب الجانبي لفلور، ثم في النهاية جلس على مقعد السائق. ارتفعت حافة ثوب فلور أعلى ركبتها وهي تجلس فشدّتها لأسفل سريعًا. كان بإمكانها الجلوس في الخلف مع الولد، لتجعل ماكس الابن يشعر أنه سائقها، لكنها لم تفعل.

لم يذهب إلى أعماق سيتي بيندو من قبل قط. كان دائمًا ما يمر، بصحبة أبويه في طريقهم جنوبًا، بالطريق الرئيس الذي يدور حولها، طريق البحر. مع ذلك شعر أنه كان هناك ذات مرة، كان هناك حين سمع وصف صديقه برنارد دوريان لمطعم أبويه الملحق عمليًا، حسبما قال برنارد، بمخزن شارع القديسين، الذي شغلته ذات مرة عصابة باز بينين. كان هناك حين سمع الموسيقى التي أنتجها أفراد باز بينين وسجلوها وأرسلوها له على أقراص مدمجة وحتى شرائط كاسيت، ليذيعها في برنامجه الإذاعي، حبهم للحياة الزائلة والموت الحتمي في حيهم وحزنهم على كل هذا.

سأل فلور وهو يدير الجيب نحو أشجار الكالاباش أمام بوابة منزل أبيه: «ما هو أفضل طريق؟» منذ عشر سنوات كان من الأفضل اتخاذ طريق البحر، لكنه ليس واثقًا من هذا وأراد أن يتأكد منها. فأكدت له الأمر بإيماءة قصيرة.

مكتبة ياسمين

حتى بعد عشر سنوات، ما زال طريق البحر مغطّى بالقار وأغلبه ممهد بالأسفلت. ثمة المزيد من السيارات الآن، يزحف المرور على طول الحارتين الواسعتين في الاتجاهين المعاكسين. نقر عدة صبية وفتيات زجاج نافذة السيارة، يبيعون لحومًا وأطعمة مقلية، ورقائق الموز وزجاجات مياه. ثم آخرون يبيعون شواحن وبطاريات الهواتف المحمولة.

لاحظ أن سائقي وركّاب السيارات والشاحنات، أمامه وفي الاتجاه المعاكس، يقضون الوقت في التحدث في هواتفهم المحمولة، شيء لم يكن موجودًا قط منذ عشر سنوات قبل رحيله. في الاتجاه المعاكس، علق موكب جنازة في الزحام بعربة النعش في مقدمة قافلة صغيرة من السيارات تخللتها سيارات الأجرة.

حين تحركت السيارات ذكّرته حركتها بمدى جمال فيل روز. على أحد جانبيهم الأهوار المغطاة بالطحالب التي يتذكرها جيدًا وخلفها من بعيد جبال على شكل مداخن.

سرعان، ما مرّوا بصف جديد من بيوت الدعارة الرخيصة حيث تبيع النسوة الجنس في حجرات مفردة. رنّ جرس عال في حقيبة فلور ففتحتها لتلتقط هاتفها، ثم أغلقت الجرس. استدارت وناولت الهاتف للولد، حين لمح ماكس الابن الولد في المرآة الخلفية عرضًا ورآه يضغط أزرار الهاتف بقوة وسرعة في لعبة ما، تذكر أنه نسي هاتفه في غرفته في منزل أبيه.

وحين لمح جانب وجه فلور الجامد كتمثال وجد صعوبة في تذكّر ما كانا يتحدثان عنه فيما مضى. لم يكن شيئًا ضروريًا، لا شيء عميق البتة. باستثناء الأمور المألوفة عن الطعام الذي يريدها أن تعده في يوم معين، أو محاولاته مثلًا إضحاكها معه على الفتيات العاشقات اللائي يكتبن له خطابات، لكنها لم تكن تضحك قط. أو سخريته من أحد أصدقاء أبيه الذي جاء إلى العشاء

t.me/yasmeenbook

مع زوجته ليجد عشيقته هناك، عشاء أعدّته هي لهم. لكنها لم تكن تشاركه سخريته وانتقاداته.

كانت حينذاك مهتمة بالمجلات، خاصة مجلات الجمال التي تتركها صديقات أبيه خلفهن أحيانًا. كان يراها تحدق في النسوة في تلك المجلات، بفم مشدوه، وعينين متسعتين اندهاشًا، فكان يأتي بالمزيد من تلك المجلات من محطة الإذاعة، ويتركها في أرجاء المنزل لتلتقَطها وتتصفحها حين يمكنها. تذكر أنها كانت دائمًا ما تصفف شعرها بكريم معين تشتريه من محل لبيع الشعر المستعار في السوق المفتوحة، لكنهما لم يناقشا أيًا من تلك الأمور. لم يتحدثا عن كيف جاءت إلى منزل أبيه ولم تكد تتم السادسة عشرة، أو لماذا أُجبِرت على ترك المدرسة لتحل محل خالتها التي ظلت تعمل في منزل أبيه لسنوات إلى أن صارت عجوزًا جدا على العمل.

ما زال الولد منهمكًا في لعبته على الهاتف، يضرب الأزرار بقوة أكبر الآن، كأن شيئًا ما في خطر وشيك.

سألها بهدوء: «لماذا سميّته هكذا؟»

سألت بعصبية دون أن تحرك وجهها: «ماذا؟»

لم يكن يريد أن ينطق بالاسم لئلا يلفت انتباه الولد إلى محادثتهما: «لماذا سميّتِه بهذا الاسم؟»

أجابته: «لأنني أردتُ ذلك».

أراد أن يسألها عن قصدها من الاسم تحديدًا. هل تقصد أنه ابنه؟ أم ليس ابنه؟ لكنه لم يجد طريقة لطرح السؤال دون أن يفهم الولد ما يتحدثان عنه. نظر إلى الخلف في المرآة الخلفية، أغلق الولد الهاتف الآن ووضعه في حجره، ودس إبهامه في فمه.

مكتبة ياسمين

سأله: «ألست كبيرًا على هذا؟»

سحب الولد أصبعه من فمه ووضع يديه على المقعد، تحت فخذيه.

قالت فلور، تُحدِث الولد أكثر منها تُحدثه: «لقد حاولت أشياء كثيرة جدًا، حتى الفلفل الحار».

قال ماكس الابن بامتعاض: «فلفل حار، شيء فظيع».

حين هدأ الجو في السيارة مرة أخرى، شغّل ماكس الابن الراديو. كان مذيع يتلو أخبارًا عن مظاهرات ضد غلاء أسعار الغِذاء في بورت أو برانس. هل تعطلت جاسمين بسبب المظاهرات؟ ألهذا لم تصل إلى فيل روز لا مساء أمس ولا صباح اليوم؟ يشعر أنه لم يرَها لأسابيع بالفعل، والأمر في الحقيقة ليس سوى أربعٍ وعشرين ساعة فقط.

سأل محاولًا إيجاد طريقة أخرى لتسلية الولد: «هل توجد برامج أطفال في إذاعة زواريا كما كانت عادتهم في الماضي؟»

رفعتْ فلور كتفيها. إما لا تعرف أو لا تهتم.

حين عاود ماكس الابن النظرفي المرآة الخلفية، وجد الولد قد نام، رقد على جانبه وثنى قدميه. ولد جميل بالفعل، فكر ماكس الابن، وليس وسيمًا فقط، بل جميل. نوع الجمال الذي يروق للجميع على ما يظن، لا أحد يمكنه النظر إلى هذا الولد وهو نائم، وعيناه مغمضتان بإحكام، وصدره يعلو ويهبط، ووجهه مرتاح للغاية لحد يبدو هشًا، لا أحد يمكنه النظر إلى هذا الولد ولا يرى البراءة والنقاء.

استغرقتْ قيادة ثمانية أميال نحو ساعة ونصف، لكنهم وصلوا أخيرًا إلى سيتي بيندو، يمكنه تخمين هذا من تحول لون البحر على أحد جانبي الطريق من اللون الأزرق المخضر إلى اللون البني ثم إلى الأسود المرمدّ. ضاقت

t.me/yasmeenbook

الشوارع، ارتفع على التلال الواطئة صف بيوت إسمنتية تجاورها عشش صفيح وأسواق مفتوحة مزدحمة بنساء متعبات وأطعمة ذابلة.

قالت فلور وهي تشير له إلى طريق: «المنزل ليس بعيدًا عن هنا، أرادت أمي شيئًا ما من شارع قريب».

انعطفَ في زاوية ضيقة بدا أنها ليست مصممة لمرور سيارات تحت أي ظرف من الظروف، ثم في تقاطع شارعين حيث وجد المنزل أخيرًا.

كان المنزل مختلفًا عمّا توقعه، أجمل. له هيئة صندوق بقضبان حديدية وردية عند بابه. حاول صف السيارة بالقرب من الباب بقدر المستطاع ليدع مساحة للمارّة في الزقاق الضيق.

ما زال الولد نائمًا في الخلف. حَمله ماكس الابن، احتضنه بين ذراعيه، وفكّر أن لا بد أن هذا هو الشعور بحمله حين كان رضيعًا. رضيع ثقيل للغاية. كان الولد يتنفس بعمق وحين ألقاه على صدره، تلوّى الولد قليلًا وعدل وضعه بنفسه.

سأل فلور ما إن فتحت بابها: «أين أضعه؟»

بالداخل، فاح المنزل برائحة فانيليا قوية، من النوع السائل الذي تضيفه إلى عصير الليمون والكعك. غرفة المعيشة متواضعة، فيها أربعة كراسي بلاستيكية في مواجهة أحدها الآخر حول مائدة صغيرة محشورة في ركن خلفي. تتدلى لمبة بسلك سميك من السقف، وعلى الجدران روزنامات ورقية بصور ملكات جمال تعلن عن بيرة وأنواع من الصابون وكريمات تقشير الجلد.

تحجب ستارة من أغصان الزان غرفة نوم بفراش كبير يستولي على أغلب مساحتها، مع حقيبتي سفر كبيرتين محشوتين. شغّلت فلور، فيما يضع الولد

مكتبة ياسمين

على الفراش، مروحة ووجّهتها نحو الولد النائم. بدت مندهشة أن المروحة تعمل، ومن وجود كهرباء من الأساس.

سألها حين عادا إلى الغرفة الأمامية: «أين والدتِك؟»

«في السوق».

امتلأ أنفه برائحة الفانيليا - تكاد عيناه تدمعان منها - ويشعر بأسف هائل، لكنه لم يعرف كيف يخبرها. في النهاية، وبالرغم من محيطها هذا، بدا أنها بشكل ما أو آخر قد انتصرت. أثبتت الآن، بسماحها له برؤية ابنه على الأقل، أنها لا تخافه. وماذا قد فعل؟ جلب طفلًا إلى العالم وتركه. ترك بيته ووطنه لسنوات. و احتفظ بأسرار.

قال لها: «أنا آسف فلور، آسف لما حدث»، وأخذ يذرع الخطا على الأرضية الأسمنتية غير المستوية مثلها مثل السقف.

«ماذا حدث؟ أتقصِد ما فعلته». بدا أنها كانت تنتظر أن يفتح الموضوع، أو تخشى ذلك. ارتعش ذراعها وهي تزيل الغبار عن أحد الكراسي البلاستيكية براحتيها فقط. فركت يديها الاثنتين معًا ثم كورت قبضتيها كأنها تستعد لتسديد اللكمات له. أدرك أن غضبها يمور بداخلها منذ عشر سنوات مضت وليس اليوم فقط ، وأنها الآن وهي في منطقتها، في منزل والدتها، يمكنها إطلاقه.

قالت: «لقد ذهبت إلى منزلكم اليوم لأن والدك وجدنا في بورت أو برانس وطلب مني المجيء. لكن الآن؟ لا، لا، لا أريد أن أراك مرة أخرى».

نظر حوله في الغرفة التي بحجم خُمس غرفته في منزل أبيه، وفكّر في ضرورة وجود نافذة. نافذة قد تخرج منها رائحة الفانيليا القوية تلك. ويدخل منها المزيد من الضوء. وتتيح للولد رؤية السماء حين يصحو من نومه. نافذة

t.me/yasmeenbook

قد تجعل المنزل بأكمله يبدو أكبر، وتجعلهم يشعرون بالمزيد من الحرية. نافذة وبعض النباتات، كبعض النباتات من حديقة أبيه، هذا ما يحتاجه هذا المنزل الصغير. لكن الجدار الذي يمكن عمل نافذة فيه هو جدار الجيران، النافذة قد تقلل شعورهم بالأمان، النافذة قد تتيح لأحدهم الاقتحام وإيذاءهم.

سألها: «وماذا عن الولد؟» لأن كل شيء الآن يدور حول الولد. الولد هو كل شيء. قال: «لقد رسَمني»، كيف عرف الولد كيف يبدو؟ ماذا سيرسم هو إن طُلِب منه رسم صورة لابنه؟ «لقد رسمني دون وجه، مجرد دائرة، دائرة خالية».

سألت: «هل أردت أن يبدو وجهك كالحمار؟» كانت ابتسامة نصر خبيثة تبرق على فمها. حاولت كبحها، لكنها ظلت هناك، كراية انتصارها الشخصي.

حاول منذ عقد مضى إقناع نفسه بأنه قد يحبها، قد يرغب في صنع حياة معها. حاول إقناع نفسه بأن هذا سيكون الأفضل، لكن ذلك لم يكن سوى أحد الأحلام المستحيلة الكثيرة القريبة من قلبه، مثل حلمه بأن يمارس الحب مع امرأة ترضيه تمامًا، تلك التي يشتاق إليها ويفتقدها كل صباح حين يصحو.

قال وهو يرفع رأسه الآن ليتفحّص السقف الوردي المسطّح أعلاهما: «أريد أن أساهم، أريد أن أساهم في إلحاقه بمدرسة جيدة في بورت أو برانس. مدرسة كمدرسة والدي».

قالت: «أعطاني أبوك بعض المال، وأرسلت لي والدتك بعضًا أيضًا. لا بد أنك تعرف هذا».

لم يكن يعرف في الحقيقة، وجد سهولة في تصديق أن ترسل والدته نقودًا

مكتبة ياسمين

من ميامي، لكنه لم يصدق أن والده قد يفعل ذلك أيضًا، كذلك لم يصدق أن والديه قد يفعلا شيئا معًا.

سارت فلور إلى الباب، أمسكتْ بمقبضه المخلخل قليلًا لتفتحه، ثم أشارت له بحركة مفاجئة من رأسها أن يرحل. مدّ يده إلى موضع محفظته بشكل تلقائي، لكنه كان قد غادر منزل أبيه في عجلة شديدة، وكما نسي هاتفه نسي محفظته أيضًا. رفع يديه الخاليتين في الهواء أمامه، قالت: «إلى الخارج من فضلك».

تبعته إلى الخارج. غمغم بالتحية لجيرانها الجالسين على شرفاتهم الإسمنتية وهو يركب السيارة الجيب.

سأل حين جلس خلف عجلة القيادة: «أين أجد شارع القديسين؟»

نظرتْ فلور إلى أقرب جيرانها، امرأتين، واحدة كبيرة في السن، والأخرى صغيرة، وصبي يافع يبدو أنه حفيد المرأة الأكبر سنًا. تبادلتْ هي وجيرانها نظرة غريبة. أأخبرت فلور المرأتين، أأخبرت الجميع، بما فعل؟

قال ماكس الابن للصبي: «لم يعد شارع القديسين على حد علمي، أريد فقط أن أعرف كيف أذهب إلى هناك».

كان قد سمع بذلك وهو في ميامي. أن الشرطة ألقت القبض على برنارد دوريان صباح اليوم الذي غادر فيه ماكس الابن فيل روز. في اليوم التالي وُجِد برنارد مقتولًا. ثم أشعل أحدهم النيران في مقر عصابة باز بينين، ولم تقض النار على العصابة فقط بل وعلى «بي» أيضًا، مطعم والديّ برنارد. لا يعرف كيف يقضيان بقية حياتهما. (أعادا إلى الجبال؟ أفتتحا مطعمًا آخر في مكان آخر؟) قرأ في الجريدة الهايتية وهو في ميامي أن تاي وملازمه باي هما فقط من راحا ضحية الحريق.

t.me/yasmeenbook

صدمَته تلك الأخبار المتعاقبة، مع ذلك لم يكن بوسعه فعل شيء وهو في ميامي. أم كان؟ حتى وإن كان قد عاد إلى هاييتي، سيظل برنارد قتيلًا وسيظل مطعم أبويه محترقًا. لم يكن بوسعه فعل شيء حقًا.

سأل ماكس الابن: «أما زال بإمكاني الذهاب إلى شارع القديسين؟»

وصف له الصبيُ الطريقَ على خطوط راحة يده راسمًا خريطة متخيلة. تتبع ماكس الابن وصفه، فقاد حوالي نصف ساعة بين عشش الصفيح في أزقة قذرة قبل أن يصل إلى شارع القديسين.

الشارع الذي كان شارع القديسين أغلبه الآن صف من عشش خشبية بجوار مكبّ قمامة تفوح منه رائحة قذرة تمتزج بالدخان المنبعث من بالوعة ملطخة بالزيت. أوقف ماكس الابن السيارة، على كِلا جانبيه أكوام قمامة، وإطارات، وآلاف من زجاجات العصير البلاستيك وأطباق الأطعمة الفلّين. توقف عدة أشخاص ليحدقوا فيه قبل أن يمضوا في طريقهم: امرأتان كبيرتان في السن في طريق عودتهما من السوق، ثلة من الصبية المتعرقين يلعبون بكرتهم في طريق عودتهم من مباراة كرة قدم. لولا وجودهم لم يكُن ليصدق أبدًا أن هذا المكان يمكن العيش فيه، أن هذا المكان كان صديقه برنارد يعيش فيه.

بقي في سيارته يتذكر آخر مرة رأى فيها برنارد. كان برنارد يطبع نشرة أخبار على الآلة الكاتبة في محطة الإذاعة، وتوقف برهة ليرفع بصره ويدعوه على وجبة في مطعم أبويه. خجل ماكس من إخباره بأنه يخاف الذهاب إلى هناك.

أغلق نوافذ السيارة لكن رائحة عفن الفضلات المتحللة نفذت من الزجاج وكادت تخنقه. أدار محرك السيارة وظل يقود حتى عثر على البحر

مكتبة ياسمين

مجددًا، قاد بحذاء البحر حتى خرج من سيتي بيندو، حينها تحول البحر إلى اللون الأزرق السماوي، لون فيل روز الذي اشتاق إليه بشدة وهو في ميامي.

فتح نوافذ السيارة، وبهبات الهواء ساخن تلطم وجهه، قضى بقية الظهيرة يقود في طريق عودته إلى البيت. سمح لنفسه بالشرود قليلًا أثناء توقّف المرور، فلاحظ أنه لم يفكر في جاسمين منذ فترة. بحث في الشق الضيق بين مِقعدة كرسي السائق ومسنده ووجد الورقة النقدية بخمسمئة جورد التي يحتفظ بها أبوه هناك دائمًا تحسُّبًا لأي طوارئ. توقف عند زاوية شارع ليتناول موزًا ولحمًا مقليين، أكل في طبق معدني مجعد أمام إناء البائع الذي يغلي فيه الزيت، ثم جرع بعدها زجاجة عصير غازي مستوردة. ترك بائع الطعام وقاد ببطء متخذًا منعطفات في الاتجاه الخاطئ عمدًا، توقف ليجلس على رصيف أحد الشوارع الصغيرة بعيدًا عن زحام المارة قبل أن يعود إلى المشهد الشامل المزدحم بحذاء البحر.

كان الظلام يخيم تقريبًا حين أوقف السيارة أمام منزل أبيه ورأى جاسمين تجلس مع أبيه على الشرفة الأمامية المضاءة جيدًا. ترتدي بنطالًا أسود ضيقًا وقميصًا طويلًا أبيض سادة، ما زالت مع ذلك تبدو أنيقة، كأنها في طريقها إلى حفل راقص. رأت جاسمينُ وأبوه السيارةَ الجيب تعبر البوابة المفتوحة. أخفض رأسه يتظاهر بالانشغال بشيء ما في السيارة دون أن يترجّل منها. ينبعث من أحد المنازل المجاورة صوت عالٍ لبرنامج إذاعي ما، كاد يقسم أنه صوت فلور المنبعث من المذياع. لكن هذا مستحيل. لم يترك فلور في سيتي بيندو منذ وقت طويل هكذا.

قاطعتْ فقرة إعلانية صاخبة الصوت الذي يشبه صوت فلور، يتردد الآن صوت مندوب المبيعات الصاخب يروّج للعصائر الصحية والسجائر والبيرة بالنبرة اللاهثة نفسها. توقف ماكس الابن عن الإصغاء. يتأمل في

t.me/yasmeenbook

حقيقة أن جاسمين لم تصِح باسمه ولم تركض نحو السيارة لتقابله.

راقبها وهي تحتسي شيئًا ما مع أبيه وتخيل أن الأخير يعرف الآن أنها ممرضة، ويسألها نصيحتها الطبية بشأن إصابات الجودو القديمة لديه. تخيلهما يتحدثان عن لوحات أبيه، وحديقته وزهوره. تخيل أيضًا كيف قد تُخبر أبيه أنها ليست صاحبته بالمعنى المعروف، وأنها وافقت على المجيء معه فقط ليظن أبوه أن لديه فتاة، وعن جدالهما بشأن ما إن كان عليه أن يهديها خاتم ويدعوها حتى خطيبته. قد تخبره أيضًا أنها وافقت على المجيء معه كصديقة جيدة ومخلصة، فقط ليأتي ويرى ابنه.

نهض أبوه ولوّح له. مع ذلك لم يتحرك ماكس الابن من خلف عجلة القيادة، لوّح لأبيه وأشار إليه أنه قادم. كان من الواضح استيلاء جاسمين على أبيه بالفعل، والأرجح أن ذلك لإطراءاتها على البلدة والمنزل. أو ربما انبهر أبوه بلغتها الكريولية الجيدة، وحتى بلكنتها السليمة، وهي المولودة في ميامي. يعرف أن جاسمين يسعدها جزئيًا أن ترى مكان نشأته.

تواصلتْ فقرة الإعلانات من مذياع جيران أبيه. يدور الآن حوار مُعَدّ سلفًا بين ممثلين كوميديين شهيرين عن شركتي هواتف محمولة متنافستين. تساءل ماكس الابن كيف كان سيصير إليه الأمر لو كان قد مكث في روز فيل - ليس في منزل أبيه، بل في منزل خاص به - ربما كان سيضطر للقيادة إلى هنا يوميًا في الظهيرة ليطمئن على أبيه. ربما لذلك يُمكنه الآن الجلوس في الخارج، في سيارة، ليشعر بالامتنان لأنه ترك هذا المنزل وذكرياته القاسية تظاهر أنه يعيش بالفعل تلك اللحظة التي لن تحدث أبدًا، وما إن أدار كل من أبيه وجاسمين وجهيهما عنه نحو أحدهما الآخر، أدار المحرك وقاد مبتعدًا. أسرع في طريقه، إلى جادة بايد روز نحو الشاطئ.

من إحدى الطرق التي كان ماكس الابن يعتذر بها لبرنارد، عن دعوة

مكتبة ياسمين

الأخير لتناول الطعام في مطعم أبويه في سيتي بيندو، أن يدعوه هو إلى الشاطئ. كانا يذهبان إلى الأهوار ويغطسان بين الشعاب. وكانا من حين لآخر يجدان سمكة طائرة ضخمة أو سلحفاة بحرية، ما كان يسحرهما بقدر ما تسحرهما حكايات الأشباح إذ تُعد تلك الكائنات نادرة جدًا. وفي الليل يسيران إلى فنار الأنثيري، يصعدان السلم الحلزوني ويرقدان على أرضية الشرفة في الظلام ليريا النجوم بشكل أفضل.

غادر فيل روز قبل يوم واحد من مقتل برنارد. كانت فلور قد أخبرت والده أنها حامل في ابنه، فقرر والده إرساله إلى والدته في ميامي. كان في التاسعة عشرة من عمره، منفيًا من بيته ليبدأ حياة جديدة في الوقت الذي يرقد فيه صديقه ميتًا. ظلّت سخرية القدر في هذا الأمر تثقل على قلبه طوال الوقت.

حين وصل إلى الشاطئ ذاك المساء رأى جمعًا من الناس حول امرأة بساقين سمينتين تتحدث إلى الجمع بيديها، وتربط رأسها بوشاح داكن يبتلع أغلب وجهها.

بجوارها صياد، رجل يدعونه نوزياس، يفسر للجمع إشارات يديها. مدّت المرأة يديها نحو الجمع، إحدى راحتيها تواجه سماء بداية الليل المضاءة قليلًا، والأخرى تواجه رمال الشاطئ، ثم عكستهما، راحة الرمال الآن تواجه السماء، وراحة السماء تواجه الرمال.

قال الرجل الذي يفسر الإشارات: «ميت، إنها تظن أنه ميت».

ميت. بدت تلك الكلمة المفردة ختامًا مناسبًا ليوم ماكس الابن.

لبث لبقية المساء أسفل نخيل كثيف نما على شكل قوس بجذوره المعقّدة مسكوبة على الرمال. اشترى زجاجة بيرة «برستيج» شربها ثم نام تحت هلال النخيل.

t.me/yasmeenbook

حين استيقظ، كانوا قد أشعلوا نارًا في الهواء الطلق، وجلست زوجة الصياد الميت على كرسي سيزال أمامها، تتلقى العزاء. بدت ساقها الأسمن ضخمة للغاية لتغطيها تنورتها البيضاء الطويلة بالكامل، كقطعة خشب تنتظر الإلقاء بها في النار.

ذكرته رؤية زوجة الصياد الميت بحدوتة حكاها له أبوه في صغره. ذات يوم اصطاد صيادٌ من البحر سمكةً مفلطحة تتحدث، قالت السمكة للصياد إنها أمير مسحور وتوسلت إليه أن يعيدها إلى البحر ثانيةً، فتركها الصياد بالفعل. حين عاد الصياد إلى بيته، وأخبر زوجته بما حدث، وبخته الزوجة لأنه لم يطالب الأمير المسحور سمكة بأي شيء مقابل حريته، وأقنعته أن يعود إلى البحر ويجد السمكة الملفطحة، وأن يطلب منها كوخًا بدلًا من العشة التي يعيشان فيها. لبّى الأمير المسحور مطلب الصياد وسرعان ما صار لدى الصياد وزوجته الكوخ، لكنه لم يكفِ الزوجة التي ظلت ترسل بزوجها إلى السمكة المفلطحة ليطالبه بقصر، ثم ليجعله إمبراطورًا، ثم قسًا، ثم إلهًا.

الجزء الذي يتذكره جيدًا، والذي بدا دائمًا أنه لا يروق لأبيه كثيرًا، حين أرادت زوجة الصياد القدرة على جعْل الشمس تشرق.

ما الخطأ في أن يريد المرء هذه القدرة؟ طالما فكّر في هذا السؤال. من ذا الذي لا يريد أن تشرق الشمس لكلمته؟

وجد نفسه الآن في المأزق المألوف نوعًا ما حين يُمسي ما يدعونه شابًا غنيًا مفلسًا. رأسه يؤلمه. جائعًا مرة أخرى. يتساءل أين سمكته المفلطحة المسحورة؟

فكر في العودة إلى البيت، لكن كيف سيفسر مغادرته فجأة هكذا؟ سيكون أبوه غاضبًا منه. وجاسمين أيضًا ربما. لكنهما مع ذلك لم يأتيا للبحث عنه. كانا يعرفان أين هو.

مكتبة ياسمين

نهض وسار نحو الجمع الصغير الذي ما زال على الشاطئ. حين اقترب تأبين الصياد الميت من نهايته، بدأ أب في الصياح باسم طفلته، وانشغل الناس بالبحث عنها. كان والد الطفلة المفقودة نوزياس الصياد، من كان يفسر إشارات زوجة الصياد الميت للآخرين.

سار ماكس بين الجمع وفعل مثلما يفعلون، صاح: «كلير!» اسم الطفلة المفقودة.

كان اسمًا مبهجًا كما هو وقعه. من الأسماء التي تنطقها بحب، تهمس بها في أذن امرأتك قبل يوم من ولادة طفلك. من الأسماء التي تحملها معك من أحلامك بسهولة، في فمك، الأسماء التي تجعلك تشبك يديك معًا عند صدرك حين تسمع الكثير يصيحون بها. من الأسماء التي قد تجدها في قصائد الحب والرسائل والأغاني الغرامية. اسم حب وليس ثأرًا. من الأسماء التي تنطقها بأمل، من الأسماء التي لها القدرة على جعل الشمس تشرق.

لكنهم بعد وقت توقفوا جميعًا عن الصياح باسم الطفلة، وبدؤوا يبتعدون. وحين رفع بصره إلى الفنار وجد أن حتى هؤلاء الذين كانوا يلقون الضوء من كشافاتهم قد ذهبوا أيضًا.

لم يكن يدرِ شيئًا عن العلاقات في البلدة بعد أن ظل بعيدًا لوقت طويل للغاية، لا يعرف من ينام مع من، أو من مسموح له بالنوم مع من، بلا فضائح. خطر له هذا لأنه رأى حينها صديقة أبيه المقرّبة جايلي لافود تدخل كوخ أحد الصيادين. تذكّر على نحو مبهم وأبوه يخبره، ذات مساء قبل عودته من ميامي، أنهما مدعوان على العشاء في بيتها. أهذه هي حقًا؟ أهي الآن صاحبة أبيه أم صاحبة نوزياس الصياد؟ أم الاثنين معًا؟

في جميع الأحوال. بدا أن جايلي لافود ونوزياس الصياد سينامان

t.me/yasmeenbook

منفصلين. إذ بعد أن دخلا الكوخ معًا ما لبث الصياد أن خرج ليرقد على الرمال بين صخرتين، بدا واثقًا من عودة ابنته. تمامًا مثلما قد يكون أبوه واثقًا من عودته هو إلى البيت أيضًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الجزء الثاني

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

نجمة البحر

ظلت لويز جورج، مذيعة برنامج أخبرني، تسعل دمًا خلال فترات دورتها الشهرية منذ أن بلغت الحيض وهي في سن الثالثة عشر. رأت بمرور الزمن أطباء كثيرين وأجرت تحاليل أكثر، لم يستطِع طبيب واحد تفسير ظهور دم مبيضيها في رئتيها أيضًا، ثم في فمها. والأنكى أن أحدًا لم يستطِع أيضًا معرفة السبب في أنها حتى بعد أن بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، ما زالت تأتيها الدورة الشهرية ويبدو أنها ستظل تأتيها إلى الأبد. ولأنه دائمًا ما تُعزى الأمور الغامضة في فيل روز إلى عالم الأرواح، كانت لويز تنأى بنفسها عن الجميع بقدر ما أمكنها حين لا تسجّل برنامجها الإذاعي.

لم يكن ذلك صعبًا لأن الأشخاص القليلين الذين رأوا الدم في أسنانها أو مناديلها المبقعة به ظنّوا أنها مصابة بالسل فابتعدوا هم عنها بالفعل. ينطبق هذا على الجميع فيما عدا ماكس آردين الأب، الذي لم يكن ينام معها من حين لآخر فحسب، بل ويدعوها من حين لآخر أيضًا لتقرأ للطلبة في مدرسته.

يعرف ماكس الأب لويز منذ وقت طويل للغاية ليعي ندرة حالتها وإمكانية علاجها بجراحة معينة في الرئتين، أو بالهورمونات، لكن العلاج بالهورمونات باهظ الثمن، وليس متاحًا في هاييتي، وقد تشكل الجراحة خطرًا على حياتها. لذلك اعتادت لويز على تذوق دمها، وعلى المعاناة لثلاثة أو أربعة أيام كل شهر فقط، تعتزل فيها الجميع ولا تفعل شيء البتة.

خلال تلك الأيام التي تقضيها في المنزل، كانت لويز تكتب. كانت

مكتبة ياسمين

تكتب عن الناس في روز فيل، حكايات تلتقطها من طاحونة النميمة، أو ماكينة الشائعات، أو ما جمعته بمرور الوقت من مقابلات أجرتها في برنامجها الإذاعي. بدأت كتابها كامتداد لبرنامجها، لكنه تحول مع الوقت إلى غناء كورالي. كانت تدعوه بينها وبين نفسها النوتة الموسيقية.

بعد أيام قليلة من قراءتها للطلبة الصغار في مدرسته، اتصل بها ماكس الأب ليسألها إن كان بإمكانها أن تسدي له صنيعًا آخر وتُدرِّس أحد فصول محو الأمية للكبار في المدرسة، لأنه يفكّر في طريقة لمساعدة بعض الطلبة في مدرسته بتعليم والديهم القراءة والكتابة. معظم الطلبة الذين يمكنهم دفع رسوم مدرسة آردين المرتفعة من أبناء مهنيين - موظفين حكوميين أو أصحاب محلات - أو أقارب أوصياء يعيشون بالخارج. مع ذلك كان عدد من الطلبة النابغين من أبناء المعوزين، أو ما يقرب من هذا. فكان ماكس الأب يمدهم بالمنح التعليمية ليفتح لهم سبلًا في الحياة.

ما زالت لويز تخشى لقاءها بهؤلاء الآباء. لأنهم ليسوا أطفالًا، لن يتطلعوا إليها ببهجة وهي تقرأ لهم بعض قصصها وقصائدها المفضلة. لكن تعليم الكبار فرصة جيدة لها، ليس فقط لتطبيق ما تعلمته وهي شابة في كلية التربية ببورت أو برانس، بل لجمع موضوعات محتملة لبرنامجها الإذاعي أيضًا.

بدأ برنامجها قبل ستة أشهر من مقتل لورينت لافود، أحد أهم رعاة إذاعة زواريا، بطلقات نارية أمام مبنى الإذاعة. لم تكن تعرفه بشكل شخصي، لكنها كانت من القليلين الذين رأوه قبل دقائق من موته. دخل مُسرعًا إلى غرفة التحكّم ليناول مدير المحطة ظرفًا، ورأته من الزجاج خلال فاصل الإعلانات.

في اليوم التالي، ألقتْ الشرطة القبض على محرر أخبار بالإذاعة، بتهمة قتل لورينت لافود، ثم قُتِل الشاب نفسه بعد ذلك بوقت قصير. تابعتْ

t.me/yasmeenbook

التحقيقات (أو تخاذل التحقيقات) عن قرب. تحقيقات الشرطة في هاييتي كلها الشيء نفسه. في البدء هي الموضوع الذي يتحدث عنه الجميع، ثم تهدأ الأمور، ثم بمرور الوقت، متى تطرق الموضوع إليها، يقول الجميع، من أول طلبة الصحافة وحتى مأمور الشرطة، إن «البحث جارٍ». حتى ولو لم يكن ذلك حقيقيًا.

بعد جريمتي القتل هاتين، فكرت لويز في تغيير برنامجها، من برنامج يتيح للمستمعين الفضفضة بهمومهم على الهواء، إلى برنامج يسعى إلى العدالة. فكرت في تغيير اسمه أيضًا ليكون سيرياتيم اللفظ اللاتيني لتعبير «تسلسُل أحداث». فكرت كذلك في فيرباتيم أي «*الكلمة بالكلمة*»، أو المصطلح القانوني لدمجهما معًا، لكنها لم ترغب في خسارة القاعدة الشعبية لجمهور الإذاعة من البسطاء العاديين الذين يسمعون اللاتينية مرة أو اثنتين في القداس الأسبوعي، وهو في الغالب أقصى ما يمكنهم تحمّله. لذلك وجدت نفسها الآن تعقد لقاءات اعترافية فقط، واتهامية أحيانًا. يُفضّل جمهورها العريض موضوعات النميمة على موضوعات الجريمة الحقيقية، حتى مع وجود عناصر نميمة في الجريمة. تحب أن تبدأ الساعة المخصصة لبرنامجها بالترحيب بضيوفها قائلة: «*دي موان، أخبرني*.. نحن نود أن نسمع قصتك».

ذاك المساء، قبل ظهور الآباء متلقي المنحة التعليمية من مدرسة ماكس الأب، شعرتْ لويز بقدميها باردتين. نحل جسدها بمرور الزمن و صار أضئل، ما جعلها تبدو، في أثوابها بمختلف درجات البنفسجي التي ترتديها دائمًا، كراهبة أكثر منها مذيعة راديو شهيرة.. كانت لغزًا لأغلبية أهل البلدة، لحد أنها ذات مرة، في أثناء حضورها القداس في كاتدرائية البلدة، سمِعت رجلًا يجلس خلفها يقول إنها آكلة قطط، أي مدمنة خمر، ضربة سوط تحمّلتها بطريقةٍ ما ليُمكنها يومها تسجيل برنامجها.

مكتبة ياسمين

كان أول أب يصل إلى فصل محو الأمية هو نوزياس فوستين، صياد شاب أصلع. يرتدي بذلة بنية مستعملة يذهب بها إلى الكنيسة، وقميصًا أبيض بياقة مفتوحة. والد كلير لايميه لانميه فوستين، طفلة صغيرة نبيهة في المرحلة الابتدائية بمدرسة آردين. كان شعر كلير لايميه لانميه فوستين مضفرًا دائمًا فيما يبدو أنه المئات من الضفائر المغزولة، معقودة أطرافها بمشابك شعر بلاستيك على هيئة أقواس صغيرة جدًا بشتى الألوان. وباستثناء مشابك الشعر، التي لم تكن قد ابتُدِعت حين كانت لويز فتاة صغيرة، كانت كلير الطفلة الوحيدة، من بين جميع الطلبة الذين تقرأ لهم، التي تذكرها بنفسها وهي صغيرة. كانت الفتاة هادئة للغاية لحد أن ارتابت لويز في وجود أشياء أخرى رهيبة قد تربط بينهما. أوُلدت، مثل لويز نفسها، من دون شيء البتة، لوالدين ليس لديهما شيء البتة؟ أكانت إحدى توءمين نجت بعد أن ماتت الأخرى ما إن وُلدت؟ أوُلِدت بستة أصابع في كل يد؟ وربطوا لها الأصبعين الزائدين بخيوط قوية ليضمرا؟ ألديها شامة على شكل عنكبوت على بطنها؟

ثم وصلتْ أُم أخرى، أوديل ديسير، امرأة قوية وعابسة، جاءت بزي عملها ومريولها البنيّ، تعمل خادمة في مطعم في البلدة. رأتْ لويز هذا العبوس من قبل، وليس على وجه أوديل فقط. تراه دائمًا بين كبار معينين. لا تعرف أهو عن خوف؟ أم عن شفقة؟ فيما يهم الأمر أساسًا؟ لماذا قد تهتم حتى؟ لكنها أدركت، من تساؤلها في حد ذاته، أنها بالفعل تهتم. تهتم لأنها، مثلها مثل ضيوف لقاءاتها الأسبوعية، تطفو على سطح حياتها وهي تبحث عن صورة ما لذاتها، وكانت غالبًا ما تلتقط، في هذا العبوس والشائعات، لمحة من تلك الصورة، حتى وإن كانت مشوّهة، لمحة لما قد تكون عليه ذاتها. وفي ذلك المساء، في فصل محو الأمية الثلاثي هذا، كان من الواضح جدًا كيف تراها أوديل ديسير: إنها عدوها اللدود.

t.me/yasmeenbook

كان ابن أوديل، هنري، الطالب الأسوأ من حيث السلوك في جميع الفصول التي قرأت لها في مدرسة ماكس الأب. حتى كلير الخجولة الهادئة لم تسلم من إزعاجه ومضايقاته. كان شقيًا ويضجّ بالحركة، فقدَ سنّين لبنتين أماميين في بداية العام الدراسي، ولم ينمُ البديلان بعد، فكان يستخدم تلك الفجوة في فمه ليبصق على الأطفال الآخرين.

سألتْ ماكس الأب حين اقترح عليها أول مرة تدريس الفصل المسائي: «لماذا أنا؟ بالطبع يمكن لأحد مدرّسي المدرسة تدريس الفصل».

سألها مبتسمًا: «ألا تريدين صنع معجزات؟ أن تجعلي العميان يرون؟» ولان وجهه على نحو ما زال يُسحرها بعد كل تلك السنين.

تعرف لويز أن ماكس الأب ظل دائمًا، منذ أن قابلته في الكلية -التي درست فيها بمنحة تعليمية - مهتمًا بالطرق التعليمية التي تستلزم حضور الكثيرين من حوله. كانت أحيانًا تتحمس لتلك التجارب، حين يطلب منها مثلًا حكي أو قراءة قصصها المفضلة للأطفال. وأحيانًا أخرى تنزعج منها، مثل فصل محو الأمية المسائي ذاك، الذي تتمنى الآن لو كانت قد رفضته. وكانت أحيانًا أخرى، رغم كل محاضراته التربوية بوجهه الحلو المبتسم، ترغب في صفعه على وجهه. ليس بقسوة، ولا كثيرًا، مجرد صفعة واحدة صغيرة. مع ذلك كانت أحيانًا أخرى كثيرة تشعر نحوه بالامتنان، لأنه حتى في غمرة انشغاله بخططه التربوية، ومساره المهني، وزواجه وطلاقه، لم ينسَها قط.

أومأ الوالدان أحدهما للآخر فقط حين جاءا إلى الفصل. يبدو كل منهما منهكًا بالقدر نفسه بعد يوم طويل من العمل البدني الشاق.

سألت لويز كل منهما بدوره: «لماذا ترغبان في تعلُّم القراءة؟»

مكتبة ياسمين

رفعتْ والدة هنري، أوديل، كتفيها وأجابتها بوجه عابس: «لا أريد أن يعاملني الناس كحمقاء».

وقال والد كلير، نوزياس، ببساطة: «من أجل كلير... لأُساعدها في دروسها».

قالتْ لويز «هذان سببان جيدان جدًا»، وعادت بظهرها إلى الخلف في الكرسي الهزاز الذي طلبته من ماكس الأب لتجلس عليه وهي تقرأ للأطفال، وذلك جزئيًا لربط قراءتها لهم بطريقة الحكي في جلسات الشرفة من طفولة أبويهم.

ثم أضافتْ: «لا أريد أن يشعر أيٌّ منكما بالخجل لأنكما لم تحظيا بالفرصة التي يتمتع بها طفلاكما الآن».

كانت قد حضّرت هذا الخطاب الصغير مسبقًا، حتى قبل أن تعرف من سيكون في الفصل. أعدّت أيضًا مقدمة بسيطة عن الحضارات القديمة التي لم يعرف أهلها شيئًا عن القراءة والكتابة، لكنهم استخدموا الهيروغليفية التي فهموا منها أن الخطوط المتعرجة تدل على الماء، وأن صورة رجل أو طير تعني الكلمة أيضًا، ما يُذكِّر بالمقولة المعروفة «الأميّون ليسوا أغبياء». لكنها شعرت فجأة بالنفور من الأمر كله ومن نفسها فأخبرتهما أن يذهبا.

في طريقهما إلى الخارج توقف الوالدان عند مكتب ماكس الأب ليشكوا، أضاف كل منهما أنهما، بناءً على طلب ماكس الأب، تحمّلا عناءً كبيرًا ليحضرا إلى الفصل، وأن مدام لويز لم تعاملهما بشكل لائق.

«سيء جدًا بالفعل» قالت لويز لماكس الأب حين أخبرها بشكواهما تلك الليلة وهما في الفراش.

ظلا ينامان معًا من حين إلى آخر منذ أيام الكلية. توقفا حين تزوج،

t.me/yasmeenbook

واستأنفا مجددًا بعد طلاقه. لم تكن لويز مغرمة به، لا تظن أن بإمكانها حب أحد. الوحدة أبسط، تداخل حياتين أمر مربك جدًا وفوضى شديدة، تتأكد لها تلك الحقيقة في برنامجها الإذاعي كل أسبوع.

في تلك الليلة، وهما في الفراش بمنزلها المقابل لكاتدرائية سانتا روز دي ليما، أمسك ماكس الأب بإحدى يديها من تحت الملاءات. تتدلى يدها الأخرى من جانب الفراش، سرت في أطراف أصابعها موجة خدر، تمنت لو كانت وافقت على اقتراحه ذات ليلة بأن تدهن سقف غرفة نومها بطلاء أخضر ليموني يلمع في الظلام. اعترف لها ذات مرة كيف كان في صغره يخاف حتى الموت من الليالي المظلمة، الخالية من النجوم والقمر والكهرباء، يدعوها «ليالي من أنت؟» لأنه كان يصعب فيها التعرف على أحد. كان الظلام حالكًا جدًا لحد أن ترى حين تفتح عينيك الظلمة القاتمة نفسها التي تراها وأنت مغمض العينين، حسبما قال. ضحكتْ حينها وقالت لا، لأنها لا تريد أن تبدو غرفة نومها كفصول الروضة المدرسية. لكنها الآن تعيد التفكير في الطلاء الذي يلمع في الظلام. لو كان لديها لمعان قليل لتحدق فيه في ليالٍ كهذه، ألن يسهل عليها التظاهر بأنها في مكان ما بالخارج، بأطراف العشب تدغدغ خدّيها؟

قاطع ماكس الأب حبل أفكارها قائلًا [بالفرنسية]: «أودُّ... أودُّ أن أتحدث معكِ عن شيء ما».

ترك يدها ليمر بيده على جذعها من أعلى، يقتفي، في الظلام، أثر العنكبوت الصغير الذي يتحول إلى أرملة عنكبوت سوداء ممتلئة حين تنتفخ بطنها أثناء دورتها الشهرية.

سألته: «ما الأمر؟»

مكتبة ياسمين

قال وهو يقترب بوجهه من وجهها في الظلام: «المدرسة»، أرادت أن تشيح بوجهها لكنها بدلًا من ذلك أغمضت جفنيها بإحكام حتى صنعت بداخلهما سماءً من نوعٍ آخر، سماء ممتلئة بفراشات النار والومضات الضئيلة.

قال: «لقد صفعتِ أحد الطلبة ذاك اليوم حين أتيتِ للقراءة، طفل أحد الوالدين اللذين جاءا هذا المساء».

كعادته تمامًا، أعدّ لها الفخ بإحضار الوالدين أولًا ثم يحاول تلقينها درسًا من الأمر كله. ظلت تلك طريقته دائمًا منذ أيام الكلية، يتوق إلى تلقين أحدهم درسًا بطريقة ملتوية تمامًا.

«الضرب ممنوع منعًا باتًا في مدرستنا». الموضوع المتكرر كثيرًا في أحاديثهم الحميمية على الوسادة. مع تأكيده الدائم على أنها مدرسة عظيمة في بلدة ليس بها سوى القليل من المدرسين الجيدين، وأنه كان الأجدر بها أن تدرِّس منذ عقود، وحتى الآن يمكنها ذلك، وأنها تضيّع وقتها في ذلك البرنامج. ظلت تخبره بلا جدوى أنها ترى أنها «تُدرِّس» بالفعل في برنامجها.

كانت مَدرسته من المدارس القليلة في المنطقة التي تتبع سياسة «منع الضرب»، سياسة يُرحب بها بعض الآباء ويستهجنها البعض الآخر. تعتمد أغلب المدارس دربًا أو آخر من دروب العقاب البدني. بدءًا من الضرب بالمسطرة على اليد، إلى الضرب بسوط من جلد البقر على القدمين، أو بالعصا على المؤخرة. لكن ماكس الأب يرى أن العقاب البدني أسلوب قديم، وحتى همجي، فكان يراقب الجميع عن قرب، خاصة المدرسين المتهمين بممارسة إساءة من قبل، ليضمن عدم حدوثها في مدرسته.

صوته آمر، ونهائي: «تريد والدة هنري أن تقابلك وتقابلني غدًا بعد المدرسة»، ودون أن يقول المزيد، أدار ظهره لها، صار كل منهما يواجه جانبًا مختلفًا من الغرفة.

t.me/yasmeenbook

سألته: «هل يجب أن أذهب؟» وهي مدركة أن صوتها الآن، الذي يُعدّ من أكثر الأصوات المسموعة في البلدة - يبدو كصوت طفلة يُرسلون بها إلى مكتب ناظر المدرسة. «أنا لست حتى مُدرِّسة في المدرسة».

قال: «ينبغي حل هذا الأمر، وأنا آمل أن تمنحينا أنا والولد ووالدته هذا الشرف».

لم تقصد صفع الولد، كانت مجرد ارتعاشة من يدها، كموسيقار يقود أوركسترا يسعى أعضاؤها جميعًا إلى الهدف نفسه، لكن كلًّا منهم يعزف بآلة مختلفة. كان مازورا هنري، أو «هنري الأدرد»، كما يدعوه الأطفال الذين لم تنمُ حتى أسنانهم مثله، له ساقان طويلتان، يظل يعقدهما معًا باستمرار، وضحكة عصبية مُزعجة.

من بين جميع الأطفال الذين قرأت لهم، كان هو أكثر من يقاطعها، سواء بضحكته الصاخبة أو بمدّ يده، ما إن تبعد نظرها عنه، ليشد أحد الأطفال الآخرين أو يقرصهم أو يدفعهم. وكان كلما حاولت إبقاءه هادئًا بتوقيفه وحده في مؤخرة الفصل، يغمغم من بين شفتيه بقائمة طويلة من الشتائم بصوت مسموع. كان عليها أن تناقش الأمر مع ماكس الأب من البداية، لكنها ظنت أنها قادرة على التعامل مع الولد.

في ذاك الصباح تحديدًا، كانت تقرأ للفصل بصوت عال قصيدة بعنوان *الشمس والضفادع* للقاصّ الفرنسي جين دي لافونتين. ولأن البلدة، مثلها مثل بلدات ساحلية أخرى، قد خلت من الضفادع - ما يُرجعه علماء الزواحف والبرمائيات إلى زيادة احتمالات النشاط الزالزالي والموجات الضخمة - ولأن الأطفال كانوا على دراية بالفعل من حكايات آبائهم وأشقائهم الأكبر منهم، عن ذاك الصيف الذي جاء منذ عشر سنوات، حين اختفت الضفادع، فكرت لويز في أن تقرأ لهم تلك القصيدة المفضّلة لديها،

مكتبة ياسمين

من باب تثقيفهم.

اندمجتْ تمامًا - وهي تقرأ بصوت عال - تحت تأثير وقع صوتها الخشن، كما يحدث لها في الإذاعة. نهضتْ عن كرسيها الهزّاز وراحت تسير جيئة وذهابًا في المساحات الفاصلة بين صفوف المقاعد، تتوقف أحيانًا للتوكيد على جزء معين من القصيدة عند صف أو طفل معين.

... صرخة مفاجئة

من جميع ضفادع الأرض

لا تستطيع تحمُّل قدَرها.

ماذا سنفعل إن أنجبت الشمس أطفالاً؟

بالكاد نستطيع تحمل شمس واحدة

إن أنجبت الشمس نصف دستة شموس صغيرة،

ستجف البحار، بكل ما فيها

وداعًا للترع والقنوات: لقد دمرت الشمس جنسنا...

تجاهلتْ لبعض الوقت هنري الذي كان يسخر من تعبيرات وجهها وحركات شفتيها وهو يعقد حاجبيه لتشتيت انتباه الطلبة الآخرين. كان يزيد من حركاته كلما تجاهلوه، حتى توقف معظمهم عن الاستماع إليها وبدؤوا يضحكون عليه، أو عليها في حقيقة الأمر.

لا يمكنها تذكر متى بدأ الأمر، لكنها عند نقطة معينة، حين أدارت له ظهرها، جذب هنري شريطة شعر إحدى الطالبات، ثم سار (أو قفز) إلى الصف المجاور وجذب حفنة مشابك من شعر كلير فوستين. أثار منظر وجه كلير المتألم في صمت، ومشابك الشعر المتناثرة على الأرض عند قدميها

t.me/yasmeenbook

كاليرقات الميتة، غضب لويز، فتركتْ الكتاب وسارتْ نحو هنري ببطء.

فيما تقترب منه، وقف هنري مستقيماً ونظر أمامه. لم تكن قد قررت ماذا ستفعل تحديدًا، حتى وهي تقف أمامه. أترسله إلى مؤخرة الفصل؟ أتطرده من الفصل؟

أرادت فقط أن تؤكد على أنه أيًا كان الأمر الصادر عنها بالخبط على الدفتر أمامه براحة يدها المفتوحة. لكنها رأت وهي تقف أمامه، تلك الابتسامة الدرداء الخبيثة تعبر وجهه. أرادتْ أن تمحوها، كما يمحو المرء الحروف والأرقام من على سبورة.

أدركتْ أنها ضربته فقط حين سمعت شهقات الأطفال الآخرين. فرك هنري جانب وجهه بيده. لا توجد آثار أصابع تمكن رؤيتها، لا دم يسيل من شفتيه. لم يصرخ. بل ظل يبتسم، ظلت الفجوة الدرداء تتسع، حتى عادت لويز إلى جلستها واستأنفت القراءة.

غادر ماكس الأب منزلها تلك الليلة دون أن يتفوه بكلمة أخرى. بدا أنه لن يتحدث معها مرة أخرى ما لم تحضر الاجتماع مع أم الولد ويتم حل الأمر كله.

قضت لويز الصباح التالي في الفراش، تكتب. أخطأت أن ضربت الولد، تعرف هذا، لكنها ليست نهاية العالم. كان ينبغي ضربه، بل يستحق الضرب في الحقيقة. نوتْ أن تقول هذا لأمه. أو ربما لن تقوله. هذا ما يقلق ماكس الأب أكثر من أي شيء، تعرف هذا، ألا تبدِ أي بادرة اعتذار.

أخيرًا سيطلق سراحها، تشعر بهذا، رغم أنه لم يقل شيئًا بصوت عال. لن يكون عليها القراءة لهؤلاء الأطفال، بمن فيهم ذاك الشيطان هنري. وتلك الطفلة المنيرة كلير. حتى إنه لن يكون لديها ماكس الأب. تشعر بتسلله بعيدًا

مكتبة ياسمين

عنها منذ وقت طويل، يخبو انجذابه لمحنتها التوراتية بتقدمها نحو منتصف العمر.

كان في البدء يحب مذاق الدم في فمها، يصفه لها بالتفصيل كأن لسانه لم يكن في فمها هي.

يقول: «مالح»، ثم يضيف: «وحلو». كان مقتنعًا أن مذاقه يعتمد على مزاجها، وكانت تتركه يثرثر طويلًا عن الأمر، يوضح الأفكار نفسها بطرق مختلفة، وتشرد هي في أحلام اليقظة بأشياء أخرى فيما يتحدث، تحلم بتحررها من كل هذا، وتتأمل في قدرة أشياء ما على تدمير حياة شخص، كأن تلزم بيتك لعدة أيام لأنك تنزف من فمك، ولا تتذكر حتى متى لم تكن كذلك. يغدو فجأة الماضي الملاذ، وتعرف أنها لم تكن حرة إلا حين لم تكن تعي بجسدها، حين كانت مثل ضحية هنري ديسيري المفضلة، طفلة صغيرة. وهذا أحد أسباب ضرورة توقيف هنري ديسيري عند حده. لأن أمثاله من الأطفال هم من سيغدون في المستقبل رجالًا يُسببون الشقاء، الذين لا يتورعون عن التدمير والتشويه، وهؤلاء يجب إيقافهم عند حدّهم. لذلك ليست آسفة لأنها صفعته. بل إنها حتى قد تصفعه مرة أخرى، وبتعمد أكبر، إن واتتها الفرصة لذلك.

كانت أوديل وابنها في مكتب ماكس الأب تلك الظهيرة، تمامًا كما قال. أحيانًا حين تدخل مكانًا كهذا - سجلات متربة وكتب تعليمية، مكاتب وكراسي تُصدر صريرًا، أشياء يمكن بسهولة إصلاحها أو تغييرها أو الاستغناء عنها لكنها مازالت باقية من باب تبجيل الحنين للماضي - تشعر أنها هي الأخرى أثرٌ من الماضي. كان كل شيء في هذه الغرفة قديمًا ما عدا الولد، هنري.

يجلس ماكس الأب إلى مكتبه الذي يصدر صريرًا، بدا مرتاحًا لرؤيتها،

t.me/yasmeenbook

تنهّد بصوت عالٍ حين دخلتْ. ما زالت أوديل ترتدي زي عملها ومريولها، كأنها تريد إخبار البلدة كلها أن لديها عمل. تجلس هي وابنها أمام مكتب ماكس الأب على كرسيين من الخيزران، يرفع الولد إحدى قدميه على حافة كرسيه. جيء للويز بكرسي آخر وجلست في المنتصف بينهما.

بدا ماكس الأب ممزقًا بين دوريه، تدور عيناه يمينًا ويسارًا ينظر إلى كل منهم. تعرف لويز أنه يختار كلماته بعناية. أخيرًا قال ببساطة: «لنبدأ إذن».

نهضت أوديل وفركت ردفيها حيث ترك الكرسي تجعدات عرق رطبة. نهضت لويز هي الأخرى عن كرسيها، ثم نهض ماكس الأب أيضًا.

يقف الجميع الآن ما عدا هنري الذي قبض على ذراعي كرسيه وظل يخبط قائمته بحذائه المطاطي بصوت مكتوم.

سارت أوديل نحو لويز خطوات قليلة مترددة: «سيدتي؟ يُقال إنك صفعتِ ابني؟»

ظلت تقترب حتى شمّت لويز رائحة أنفاسها الدافئة وشعرت بها على وجهها. إن اقتربت أكثر من هذا سيمكنها تحديد ما تناولته أوديل على الغداء.

مدت أوديل يدها نحو كرسي هنري، ودون أن تحرك عينيها عن لويز جذبته من كتفيه ووضعته بينها وبين لويز. لاحظتْ لويز بلا مبالاة هادئة أن الولد مطيع على نحو غير معهود، وليّن، تتدلى ذراعاه إلى جانبيه باسترخاء.

قالت أوديل: «لطالما أخبرني ابني أنكِ رائعة. وأنكِ لستِ كبقية المدرسين هنا، وأننا حتى لو كنا فقراء فأنتِ تعاملينه مثل بقية الأطفال الآخرين وأنكِ تقرأين لهم أشياء رائعة كثيرة. قلتُ لنفسي إن 'ابني سيتعلم الكثير جدًا من تلك السيدة، هذه السيدة الكبيرة الشهيرة'. هل أكذب يا بُني؟»

أمسكت أوديل بذقن ابنها ودفعت وجهه لأعلى نحوهما. هزّ هنري رأسه

مكتبة ياسمين

أن لا. فمه مغلق، لكن شفتيه ترتعشان. ظنّت لويز، لأول مرة منذ أن عرفته، أنه سيبكي.

قال ماكس الأب وهو ينقر بأصابعه على مكتبه: «دعونا نجلس جميعًا الآن».

قالت أوديل ملتفتة إلى ماكس الأب الآن: «أترى مسيو، أنا أعرف أن ضرب الأطفال ممنوع في مدرستك. أخبروني بهذا حين جئت أول مرة. أنا امرأة فقيرة. ومع ذلك قَبلتم ابني. أشكرك لهذا. لكنني لا أشكرك على البقية. إن ارتكب ابني خطأ، فأنت لديك الحق في معاقبته، عاقبه كما ترى، لكنني لن أسمح لأحد بصفعه على وجهه، كأنه خادم أو لص أو مجرم، لا، لا، هذا ليس عقابًا، هذا إذلال».

ثم أمسكت يد ابنها برفق الآن ونحّته جانبًا. حين تحرر الولد خبّأَ وجهه خلف أحد الكراسي. تحركت أوديل خطوة إلى الخلف، أخذتْ نفسًا عميقًا. ثم توجّهتْ نحو لويز.

لطمتْ الصفعة وجه لويز قبل أن تراها قادمة. ارتج رأسها بقوة لحد أن شعرت للحظة أن أذنها قد سقطت على كتفها. تورم خدها. شعرت به ساخنًا، ثم دافئًا ثم ميتًا، لو صفعتها أوديل مرة أخرى لن تشعر بشيء. مع ذلك كان أكثر ما يؤلمها شعورها بأن الصفعة تأتي من ماكس الأب. كأنه هو من صفعها.

قالت أوديل لكلا من لويز وماكس الأب: «انتهى الأمر الآن، لا مزيد من الحديث عن الضرب، فقط علّما ابني. وتذكّرا، تهذيب، وليس إذلال».

أمسكت أوديل بيد هنري تسحبه وسارت نحو الباب. التفت هنري إلى لويز، وهو في طريقه إلى الخارج، بنظرة انتقامية راضية، فتح فمه كاشفًا عن فجوة أسنانه الأمامية: أسلوبه الخاص في الابتسام بسرور.

t.me/yasmeenbook

سمعت لويز صوت تنفسها عاليًا وهي تفرك خدها لتستعيد إحساسها به. صرّ باب المكتب القديم وهو ينغلق خلف أوديل وهنري وهما يتجهان إلى الفناء.

استند ماكس الأب بظهره على كرسيه العتيق خلف مكتبه وأشار للويز بأن تجلس. ينظر إليها كأنه، كما تخيلت، وحده في إحدى غرف طفولته المظلمة تلك ذات ليلة من الليالي التي يدعوها «ليالي من أنت؟» كأنه يحاول أن يميز من هي حقًا.

إنها لويز جورج. هذه هي. لطالما بذلت قصارى جهدها لحماية نفسها من إهانات وإساءات كهذه. من أجله فقط تنازلت وتعاملت مع هؤلاء الأطفال، وانظر إلام آل بها الأمر، إلى لحظة سوداء قاتمة في حياتها.

سمعته رغم الطنين في أذنيها يسألها: «أأنتِ بخير؟» [بالفرنسية].

سألته وهي تفرك خدّها بيدها بحركة دائرية رقيقة: «لماذا سمحتَ لها بهذا؟»

قال دون أن يبدو عليه لا الذهول ولا الغضب، ودون أن ينهض عن كرسيه ليسير نحوها ويواسيها: «بعد كل سنين صداقتنا تلك أتظنينني قد أخبرها بأن تفعل هذا بكِ؟»

وجدت صعوبة في تصديق استنكاره لما حدث. لا بد أن أوديل أحست بهذا أيضًا. وإلا ما كانت لتخاطر أبدًا. ما كانت لتخاطر بطرد ابنها من المدرسة، أو بالأسوأ من هذا.

تشعر بدوار قليلًا الآن. يتردد صرير كرسيّ ماكس الأب داخل رأسها. صوته هو نفسه يدخل من أذن ويخرج من الأخرى. لماذا لا يصفع نفسه؟ تساءلتْ.

مكتبة ياسمين

لم يعد يُريدها بعد الآن، لا في حياته ولا في المدرسة. ظلت تشعر بهذا منذ وقت، لكنها لم تكن واثقة تمامًا. استدار لينظر إلى إحدى الخزائن الخشبية القديمة المحشوة بسنوات من ملفات وسجلات الطلبة. قال: «إن المدرسة هي حياتي كلها الآن، ويجب إدارتها كما ينبغي».

سمِعت ثرثرته تلك من قبل. هنا في المدرسة، يُمكنه رعاية وتوجيه الطفولة دون أن يتحمل المسؤولية الكاملة عن النتائج. الأطفال ليسوا أطفاله. ليس وحده الملوم لشعورهم بالنقص أو بالعوز، أو لفشلهم وأنانيتهم، أو لرغبتهم في تدمير حياتهم وحياة الآخرين. لكنه يُمكنه على الأقل حمايتهم وهم ما زالوا صغارًا تحت رعايته.

قال: «حتى مع كونها مدرستي، كان ابني، وهو في سِن هنري هذا، غالبًا ما يُسيء المدرسون فهمه أيضًا. ومع أنهم لم يصفعوه بالفعل قط، لكنهم صفعوه كثيرًا بالكلمات. لذلك لن أسمح مطلقًا بحدوث شيء مثل ما فعلتِه أنتِ هنا».

صاحتْ فيه: «نحن لا نتحدث عن ابنك!»

«كذلك يوجد ما يسمى العقد الاجتماعي».

«أنا لا أستحق الصفع».

«وكذلك الولد». مال بكرسيه نحوها، ما زاد الصرير الصادرعن الكرسي.

قالتْ لويز: «لم تشرح حتى لوالدته شيئًا، لم تحاول مساعدتها على فهم موقفي».

قال: «ليس لكِ موقف هنا، كذلك لم تكوني معنا في كل لحظة كنتُ أنا معها».

t.me/yasmeenbook

«لماذا إذن كان الرجل الآخر موجودًا مساء أمس، فوستين؟»

«لأن ابنته، كما عَرفتُ من الأطفال الآخرين، هي من ضايقها هنري. كنت آمل أن تكوني بالشجاعة الكافية لتطمئني هذين الأبوين أن طفليهما في أيد أمينة».

قالت: «كان عليك إذن أن تدعو الفصل بأكمله مساء أمس، لأن الولد قد ضرب كل طفل فيه».

قال: «ربما كان كذلك، لكن...»

قاطعته قائلة: «كانت تلك مؤامرة إذن، حبكة لإذلالي أنا؟»

قال: «لا داعي للدراما لويز، لسنا في برنامجك هنا». ذكرتها طريقة التواء فمه بضم شفتيه معًا بمدى كرهه لبرنامجها.

قد يعدّ هذا طردًا واضحًا، فكّرتْ.

لو تركت لاختارت هي طريقة أبسط لقول وداعًا. لكننا نتحدث عن ماكسيم آردين هنا. ماكسيم آردين بيريه. الأول. الكبير -الأب. ابنه ماكسيم الثاني، الصغير - جونيور. لا يعرف ماكسيم آردين الأب طريقة بسيطة لقول وداعًا. وحين لا يمكنه تطليقك أو طردك، وإن لم تكن طالب في مدرسته، من الواضح أنه يتركك تتلقى صفعة.

قال وهو ينظر إليها بغضب جعل أسنانه تتخبط في شفته السفلى: «إن كنت أنا من فعلت ما فعلتِه، لكنتُ قد تنحيت عن منصبي. لم أكن لأستمر هنا».

نهض، جلس، نهض، ثم جلس مجددًا، لكنه لم يقترب منها. عاودها ذاك الشعور المرعب بالوحدة الذي تشعر به أحيانًا كثيرة.

مكتبة ياسمين

«لديكِ الآن الكثير من الوقت لبرنامجك»، لاحظتْ نبرة احتقاره لبرنامجها مجددًا، ولها الآن. أخبرها كثيرًا أن بإمكانها أن تصبح مُدرسة عظيمة لكن البرنامج يحول دون هذا. يعرف الآن أنها لن تصبح تلك المُدرسة أبدًا، لذلك لا يوجد ما يثير إعجابه فيها.

أضاف: «يمكنك الآن العمل على كتابك أيضًا»، كانت الصفعة التي أوكل بها إلى امرأة أخرى، لدفعها ولتعزيز تلك الموهبة الثمينة أيضًا، كتابة كتابها.

دائمًا ما أخبرها أنها مثل نجمة البحر، في حاجة دائمًا لقطع جزءٍ منها لتبتعد وتشكّل شيئًا ما جديدًا. ينطبق هذا عليه هو أكثر بالطبع.

رأت وهي تستدير لتخرج من مكتبه، ما ظنّ أنه يصفعه بداخلها ليعيده إلى الحياة، أمرأة أقوى وأكثر تحررًا، امرأة يمكنه استعبادها والإعجاب بها. عَرفتْ أنه - على نحو ما - منحرف، يعتبر هذه الصفعة هدية. إيماءة عطف معقّدة.

t.me/yasmeenbook

الذكرى السنوية

فكرت جايلي لافود حين مات زوجها أن على الجميع أن يموتوا هم أيضًا. بعد مقتل لورينت خارج مبنى إذاعة زواريا، باعت منزلها في البلدة وانتقلت إلى منزل جديها على تل الأنثيري. أوكلت عمل المحل إلى مساعديها، ورقدت في الفراش شهورًا، في انتظار موتها هي الأخرى. وبرغم ما قاله الجميع إن الحزن سيلوث لبنها ويملأ الطفلة، روز، بالحزن، أصرت إيناس، مدبرة منزلها، على أن تُرضِع جايلي ابنتها، كوسيلة لإنقاذ كل من الأم والابنة. غادرتْ جايلي الفراش فقط حين لم يعد بإمكانها إبقاء ابنتها فيه، حين بدأت الطفلة بالحبو. وحين بدأت تسير، عادت جايلي تسير. وحين بدأت روز تتحدث عادت جايلي تتحدث هي الأخرى.

كانت قد فكرت في إغلاق محل الأقمشة لكنها عادت إليه، لأنه يعني الكثير جدًا لزوجها، وموقعه في البلدة، بخلاف المنزل، بعيدٌ عن الفيضانات والانهيارات الطينية وغيرها من الكوارث المحتملة الأخرى. العمل فيه بطيء في جميع الأحوال. يشترى الناس الآن أقمشة أقل وملابس جاهزة أكثر، من الخارج. أغلب مبيعاتها الآن أقمشة ملابس المدارس، وحتى تلك كانت تقل شيئًا فشيئًا. كذلك أثرت فترة الحداد على الكثير من صداقاتها. لم تعد تحضر حفلات التعميد، والمناولات، وحفلات الزفاف في أفضل بيوتات البلدة. كانت ترفض أيضًا الاستماع إلى الإذاعة، حيث قضى زوجها قدرًا كبيرًا من وقته.

مكتبة ياسمين

لن تُحَلّ جريمة قتل زوجها. تعرف هذا. لن تُعقد محكمة عادلة أبدًا. سيحوُل الفساد والرشوة دون أن يمثل أي شخص أمام العدالة. لذلك قبلت بعرض ضابطي شرطة من القوات الخاصة - أصدقاء طفولة لها ولزوجها - بأن تعتمد نوعًا آخر من العدالة. وحين عادا من مهمتهما، كشفا لها عن تفاصيل أكثر مما كانت ترغب في سماعه. دخلا إلى غرفة شاب حمراء، رسما الصليب على نفسيهما، ثم أطلقا عليه النار وهو نائم، كان الشاب يعمل في الإذاعة حيث قُتِل زوجها. ثم عادا وأشعلا النار في مخزن العصابة، سكبا الجازولين عند المدخل، وقتلا زعيم العصابة تاي، ورجله الثاني. قضتْ النيران على المخزن بأكمله وطالت المطعم المجاور له أيضًا.

لم تشعر بالراحة التي تمنت أن تشعر بها حين سمعت كل هذا. لم تظن أن موت الكثيرين سيعيد زوجها إلى الحياة. توقعتْ أن تنسدّ فجوة ما بداخلها، لكن لم يحدث شيء. يشبه هذا صباغة الأنسجة المطلية بالشمع، لا يتغير لونها مهما طال نقعها في الصبغة، أبدًا. لم يتغير شيء بالنسبة إليها أيضًا. لم يعد إليها شيء. لعب قلة من الأصدقاء المقربين أدوار المحكمة وهيئة المحلفين ومنفذي حكم الإعدام. مع ذلك ما زالت تشعر بالضعف، بالعجز، باللعنة.

ظلت لوقت طويل لا تسمح لنفسها بالتفكير في كل هذا، حتى يوم وفاة ابنتها. ربما لم يكن الأمر من قبيل المصادفة، بل خطة كونية ما تبتلع كل من يتورط معها. ربما لم تكن جديرة بالتقدم في السن مع الرجل الذي أحبته طوال حياتها. أو برؤية ابنتها تنمو أمامها. أيُعقل أن مُحرِّك عرائس ما، في مكان ما، يكرهها وقد قرر أن يجعل منها عِبرة للجميع؟ أأضرت نفسها عندما نقلت غضبها إلى ضابطي القوات الخاصة صديقيها؟ ربما حدث هذا حينما قررت أن نعي ابنتها في *اللا روزيتا* لن يذكر أنها ماتت بعد صراع طويل مع المرض.

كان سائق السيارة التي صدمت الموتوسيكل الذي كانت ابنتها على

t.me/yasmeenbook

ظهره، مُرسِلًا بابنتها الوحيدة مندفعة لأعلى في الهواء لتلقى حتفها، شخصًا تعرفه، صاحب فندق شاب من عائلة معروفة في البلدة. عائلة مولان.

لم تكن تريد لابنتها أن تكبر مثل أطفال عائلة مولان أو كهؤلاء الأطفال الأغنياء الآخرين، الذين يبدون أغنياء فقط لأنهم يعيشون في بلدة فقيرة. لكنها توبخ نفسها يوميًا الآن لأنها لم تذهب تلك الظهيرة لتحضر روز من المدرسة بنفسِها، في سيارتها الخاصة.

بعد موت روز كانت كثيرًا ما تتذكر أول مرة اضطرّت فيها لتركها عدة ساعات. كان ذلك لحضور جنازة زوجها. أتعرف ذاك الشعور حين تكون على وشك ترك طفلتك، فتبكي الطفلة كأنها لن تراك مرة أخرى، وأنت تخشى أن يكون بكاؤها الشديد هذا نذير شؤم ما؟ تمنت لو لم يغادرها هذا الشعور قط. لو كانت قد عدّت كل وداع بسيط نذير شؤم ما على ما فعلته. لو أنها لم تترك ابنتها، ولو للحظة واحدة، بعيدًا عن عينيها.

بعد أشهر قليلة من موت روز، بدأ بصر إيناس يضعُف. أخبرتها إيناس أنه يوجد الكثير من الشابات يمكنهن القيام بالعمل الذي لا تقوم هي به، كذلك أرادتْ أن تقضي ما تبقى لها في قرية أسلافها في الجبال. ومع أن إيناس قد غادرت منذ سنوات الآن، ما زالت جايلي تفتقد صحبتها بشدة لحد أنها تستيقظ أحيانًا في الصباح وتنتظر دخولها بالإفطار، مثلما تنتظر أحيانًا أن تركض ابنتها من الباب وتقفز في فراشها.

كانت في الليل، بعد يوم طويل من مراقبة الفتيات الصغيرات اللائي يأتين إلى محل الأقمشة مع أمهاتهن، تتخيل ابنتها روز وهي في الثامنة، ثم في التاسعة، والآن فتاة كبيرة في العاشرة، اختفت أسنانها اللبنية وتحولت شحوم الطفولة إلى عضلات ما قبل البلوغ. صوتها أكثر تميزًا، وأكثر ثقةً. ترتدي ملابسها بنفسها، وتختارها بنفسها أيضًا، وتُسرح شعرها بنفسها.

مكتبة ياسمين

تركب درّاجة، وتسبح في البحر. والأرجح أن شغفها الطفولي بحفظ الزهور البرية في كراستها كان سيستمر معها، وسيزيد عليه قصّ ولصق صور نجوم السينما والموسيقى من المجلات. كانت ستظل على مستواها الدراسي الممتاز - كانت جايلي ستحرص على هذا - لكن أكانت ستظل تفضل اللعب بدزينة الدمى القماشية التي صنعتاها معًا على لعبها الأخرى الأكثر فخامة؟ أكانت ستظل تحب صعود سلم الفنار والنظر إلى البحر من أعلى؟ أكانت ستظل تحب الرقص مع أصدقاءها في المدرسة أثناء احتفالات الأول من مايو؟ أو ستظل ترتدي القبعة ذات الريش نفسها وزيّ التاينو[1] نفسه للسير في موكب الأطفال؟ أكانت ستظل تحب اللعب بطيارتها الورقية في فترات ظهيرة السبت، ثم الهبوط لمشاهدة أطفال الصيادين وهم يلعبون بقواربهم المصغرة الطافية على سطح الماء ويركضون بطول الشاطئ خلفها، يطاردون الأطباق الطائرة التي صنعوها من أغطية الدلاء البلاستيك؟ أكانت ستظل تتساءل عن الجنة وماذا يفعل أبوها هناك؟ أكانت ستظل ترفع وجهها من حين إلى آخر نحو السُحب وتصيح: «بابا!»، ثم تسأل: ما جدوى المدافن إن كان الجميع في الجنة بالفعل؟ ولماذا لا يرتفع الموتى ببساطة ويحلقون مبتعدين مثل البالونات؟

لعدة سنوات من بعد وفاة ابنتها قضت جايلي وقتها في التفكير في تلك الأسئلة التي لا إجابة لها، وبصحبة رجال مهتمين بالمال أو بالجنس أو بكليهما. ألم يلاحظوا أنها مجرد صَدَفة؟ كانت تتعجّب، نصف جثة؟ مثلما كانت خلال شهور حملها حين كانت متأكدة أن ابنتها ستُولد ميتة أو مشوهة، ومثلما كانت أيضًا في الأيام التي تلت مقتل زوجها؟ ألا يلاحظون رغبتها الشديدة في الذهاب إلى حيث توجد روحا زوجها وابنتها؟ ماكس الأب

---

(1) التاينو هم السكان الأصليين في منطقة البحر الكاريبي (المترجمة)

t.me/yasmeenbook

فقط من يفهم هذا، لأنه استمع باهتمام شديد لقصتها عن ضابطي القوات الخاصة المنتقمين، وهو يُمسك بيدها.

***

ليلة تأبين الصياد الفقيد كالِب، كانت جايلي قد دعتْ ماكس الأب وابنه على العشاء. لم تذهب إلى حفل الترحيب بماكس الابن في منزله الليلة الماضية، وفضّلت أن تدعو آردين الابن إلى بيتها، مع أبيه. لكن ماكس الأب اتصل في وقت مبكر من المساء ليعتذر دون توضيح أسباب.

تركتْ زيتا، خادمة جايلي الشابة، قبل أن تذهب إلى تأبين الصياد، لجايلي، طبقًا من اللحم والموز المقليين، كان ماكس الأب قد طلبه ليكون جزء من عشائه. التهمتْه جايلي وهي في الفراش بثوب سهرة طويل من الساتان الفضي، كانت تنوي ارتداءه على العشاء مع آل آردين، الأب والابن. مع ذلك كان شعرها ما زال ملفوفًا على بكرات حين اتصل ماكس الأب. من نافذة غرفة نومها، يمكنها رؤية بعض المنازل القليلة المضاءة على تل الأنثيري، معظم البيوت هناك خالية أغلب العام لأن ملاكها يعيشون في العاصمة أو خارج البلاد. يمكنها أيضًا رؤية فنار الأنثيري، المبنية حوله المنطقة السكنية بأكملها.

تكتظ شرفة الفنار بالشباب، بعضهم يكافح ضد الرياح ليلقوا بأضواء مصابيحهم، وآخرون يتجولون بكشافات. كان جد جايلي لأمها، مهندسًا معماريًا، هو من بَنى الفنار، بمساعدة مجموعة من الصيادين بعضهم ما زالوا أحياءً حتى الآن، وبعضهم يعيشون في مكان آخر أو ماتوا. حين نشأت حوله منطقة سكنية فاخرة - سموه أنثيري أي سُداة الزهرة - لم يعد هناك حاجة للفنار، صارتْ الأضواء المنبعثة من المنازل في حد ذاتها فنارًا.

مكتبة ياسمين

لم يُبدِ لا العمدة ولا مسؤولو البلدة أدنى اهتمام بصيانة الفنار. لكنه مشيد على نحو جيد جدًا - ببرج طوله خمسون قدمًا، وشرفة على نفس الارتفاع - لدرجة أنه أبى التلف.

في الأيام الخوالي، حين كان الفنار يعمل، كان مطليًا كله بالأبيض، وله مصباح أحمر بحاجز رياح أعلاه. كان جدها والمتطوعون الآخرون بالإنارة يحرصون على إضاءة مصابيح الكيروسين التي تغذي المشكاة كل ليلة وقت الغسق، بمعدل عشر ومضات كل دقيقة. عرفت كل هذا من جدها. كان يُمسك بيدها ويصعدا معًا السلم الحلزوني إلى شرفة الفنار. كان الهواء رطبًا وساكنًا بالداخل دائمًا، وزوايا السلم نفسه مغطاة بشباك عنكبوت دقيقة.

مع ذلك كانت لحظة الوصول إلى الشرفة هي لحظتها المفضلة. يمكنها من هناك رؤية الأرض، والجبال، والبحر تتحمم جميعًا في الشمس، والرطوبة، والضباب، بحسب الموسم، أو الوقت من اليوم. كان جدها يُمسك بيدها لتجذب الرافعة التي تطلق صوتًا كصافرة الضباب، تصرخ فرحًا للصوت العالي المندفع دون أن تسمع صوت صراخها نفسه. كانت من حين لآخر، إن حالفها الحظ، ترى قوس قزح. كان جدها يستطيع تحديد أقل شرائط الضوء سُمكًا في أبعد السحب.

لكن الفنار الآن لا يُستخدم في الإنقاذ سوى للبحث عن المفقودين، أو لإحياء الذكرى حين يموت أحدهم. تقشر طلاؤه الخارجي منذ زمن، كاشفًا عن الطوب والأسمنت. اختفت المشكاة أيضًا منذ أمد بعد أن تلطّخت بفضلات الطيور، وانكسرت عدة مرات حتى تحطمت تمامًا وظلت فترة من الوقت وكرًا للخفافيش. اختفت صافرة الضباب أيضًا، تظن جايلي أن أحدهم أو مجموعة ما قد انتزعوها ليستخدموها في مكان آخر بشكل أفضل. لم تذهب إلى هناك منذ وقت طويل جدًا فلم تكن تعرف حال السلم، لكن

t.me/yasmeenbook

وجود الكثيرين هناك دائماً تعني أنه بلا شك بحالٍ جيدة.

أخبرتْ نفسها وهي تراقب الأضواء تومض وتنطفئ من شرفة الفنار التي أحبتها كثيرًا، أن عليها إصلاحه، سوف تموّل إصلاحه وتجهيزه بأحدث الإمكانيات، بطاريات شمسية أو شيء ما يعمل ذاتيًا. قررتْ وهي تضع الطبق الفارغ على الطاولة المجاورة لفراشها أنها ستهدي البلدة فنارًا مجدّدًا، وسوف تعيد افتتاحه رسميًا بحفل كبير.

نهضتْ من فراشها وسارت إلى غرفة أخرى، مؤثثة كبقية الغرف في المنزل، فِراش بناموسية، دولاب، وسجادة بنفس لون الستائر. من هناك يمكنها رؤية العشرات الذين يسيرون على الشاطئ، من أحد طرفيه إلى الآخر، كأنهم يتمنون العثور هناك على الصياد المفقود.

رأتْ النار التي أشعلوها في الهواء الطلق من غرفة أخرى، الغرفة التي نوت تخصيصها لابنتها يومًا ما، حين تنفصل عنها في النوم. خرجتْ إلى الشرفة الواسعة التي تجعل تلك الغرفة ثاني أفضل غرفة في المنزل، شعرتْ في البدء برعشة برد فأحاطت جسدها بذراعيها، لكنها سرعان ما نسيت البرد وركّزت على الأصوات التي تحوم حولها في همهمة لا تنقطع، بعضها يأتي من الفنار وبعضها من الشاطئ.

كانت تحاول نسيان قرارها بإصلاح الفنار بالفعل. كيف تُحدد ما يمكن إصلاحه في هذا القدر الكبير جدًا من الحُطام؟ سألت نفسها، كيف تظن أن بمقدورها إصلاح أو تجديد أي شيء؟

عادت أفكارها إلى ماكس الأب وابنه اللذين لن يأتيا على العشاء. كانت تعتمد على هذا العشاء بقدر كبير، كوسيلة لقتل ساعات أخرى من هذا اليوم الثقيل، لجعله يعني شيئًا ما آخر، ولو لفترة قصيرة فقط. تفضّلُ يوم زيارة

مكتبة ياسمين

قبري زوجها وابنتها، أن تشارك في أنشطة طبيعية، لتتظاهر لساعات قليلة فقط بأنها لم تعد تتألم بقدر ما كانت العام الماضي.

كانت ابنتها طالبة في مدرسة آردين، مدرسة ماكس الأب. في العام الماضي، يوم الذكرى السنوية لوفاة ابنتها، بعد حضور حفل تنصيب صديقهما ألبرت عمدة البلدة، وبعد أن التقت نوزياس الصياد بخصوص ابنته ورفضتْ أخذها، وبعد أن انزعج ماكس الأب من الألعاب النارية على تل الأنثيري، ذهبا إلى بولين، بار شعبي يعلوه ماخور عند مشارف البلدة. يدير تلك الحانة المعتمة المعبأة بدخان السجائر صديق قديم لهما، ساقٍ كندي أحول في أواخر الخمسينات. كانت تضع زهرة كركديه بيضاء خلف أذنها اليسرى. مسّت أطراف الزهرة خَدّ ماكس الأب وهي تقبّله حين التقيا. طالت القبلة قليلًا، بدا مندهشًا لهذا، سألها هل أتت وحدها. قالت نعم، فقال إنه صار الآن وحيدًا هو الآخر، لكنه هناك فقط لتناول شراب.

حين قررت أن تغادر، شبّت قليلًا لتقبّله، على شفتيه هذه المرة. بعد انفصال شفتيهما، رفع يده إلى فمه ليتحسس آثار فمها عليه. ارتبطا بتلك القبلة، وسرعان ما بدأ يزورها في منزلها.

كان عاشقًا متقلبًا، وأحست أنه ينام مع أخرى. تراه مرة أو اثنتين في الأسبوع، ليس أكثر من هذا أبدًا.

قال لها اليوم على الهاتف: «أعرف أن اليوم صعب عليكِ للغاية»، مثلما فعل منذ عام، في البار.

أجابته: «كل الأيام صعبة للغاية».

تلك الليلة الأولى، بعد أن مارسا الحب، أخبرته أنها تبحث عن رجل تتزوجه، وتقنعه بأن يأخذها بعيدًا عن هنا، إلى بورت أو برانس، أو حتى إلى

t.me/yasmeenbook

بلد آخر. لديها الكثير جدًا من الذكريات في تلك البلدة تُقيدها وتدفعها إلى الهرب في آنٍ واحد.

أجابها: «لن تجدي من يحبك أكثر مما تحبين ألمك أبدًا»، لكلماته وقع أثقل في الظلام.

لم تفهم ما قاله في البداية، لكنها في النهاية أدركت فجأة إنه محق. إن ألمها، خسائرها: هو ما يُبقيها هنا في هذه البلدة. جعله فهمه لهذا الأمر أكثر جاذبية وقوة في عينيها. القدرة المؤقتة على إراحتها تجعلهم جميعًا يبدون أقوياء: ضابطا القوات الخاصة، الساقي، ماكس الأب، لديهم القدرة على الوجود في العالم بشكل تام، التي تمنّت أن تستمدها منهم.

وقفتْ تنظر إلى صف أشجار الجهنمية أسفل شرفتها، وتمرر أصابعها على شفتيها كما كان يفعل ماكس الأب في بداية علاقتهما كثيرًا. يدفعها هذا المنزل بصرير خشبه ومساحاته الخالية، إلى تصرفات يائسة. حين تذهب زيتا أو البستاني، تشعر بثقل الوحدة كله. الطفل الوحيد ابن الطفل الوحيد غالبًا ما ينتهي به الأمر مقطوعًا من شجرة. كانت تلك حجة زوجها دائمًا لإقناعها بإنجاب ثلاثة أطفال آخرين.

ارتدتْ صندلها وخرجتْ من المنزل، تنوي السير إلى الشاطئ. لكنها رأت بجوار سيارة زوجها البيجو القديمة، سيارتها المرسيدس البيضاء التي اشترتها وهي تتمنى لو كانا قد اشترياها معًا وهو حيّ. ظلت تقود البيجو حتى عام مضى، بمساعدة إيليا، ميكانيكي البلدة العبقري، حين ماتت السيارة مثلها مثل كل شيء آخر.

عادت إلى غرفة نومها وأخذت مفاتيح المرسيدس من حقيبتها. فكرت في تغيير ثوب السهرة الذي ترتديه، أو نزع بكرات الشعر من رأسها، واستبدال

مكتبة ياسمين

الصندل بحذاء، لكنها عدلت عن كل هذا.

كان بار بولين خاليًا تقريبًا، ما عدا عدد من الرجال جاؤوا لزيارة عاملات الماخور في الطابق الأعلى. صديقها الساقي في موقعه، وبدلًا من الجلوس في المطعم مع الرجال المنتظرين، جلست أمامه على كرسي بار خشبي. مال صديقها على البار وأحاط كتفيها في عناق قوي برائحة الكحول. يراقبهما أحد الأشخاص من إحدى الطاولات على الجانب الآخر من رقعة الرقص الخالية، رجل مفتول العضلات ذو بشرة زيتونية بلحية طويلة. بدا شابًا مثقفًا بالرغم من لحيته، وأظهر قميصه الباهظ، المكتوب عليه ماركته بالترتر اللامع على الظهر، أنه ثري. من النوع الذي قد تتقاتل عليه العاملات في مكان كهذا، لأنه من النوع الذي يميز أنهن لسن جميعًا من العامة، أن بعضهنّ متعلمات، إلى حد ما أو آخر حسب مقدرة عائلاتهن، وأن بعضهن قد ذهب إلى الجامعة، لكنهنّ، لأسباب مادية، لم يستطعنْ استكمال تعليمهنّ أو إيجاد عملٍ آخر.

في زياراتها المتكررة لبار بولين، رأت جايلي فتيات جميلات يعرضن أنفسهنّ أزواجًا أو مجموعات من ثلاث أو أربع لرجالٍ مثله. في ثوب السهرة الفخم الملتصق بجسدها وبكرات شعرها، قد يظنها إحدى فتيات المحل القديمات، أو حتى سيدتهن، تأخذ استراحة.

سألتْ صديقها الساقي: «من هذا؟»

قال وهو يضع أمامها كأس نبيذ أحمر ويشاركها ألمها الواضح لسماع الاسم: «إنه إيف مولان، بتلك اللحية والأثقال التي يحملها»، أضاف: «يبدو كأنه يرتدي كيسًا على وجهه».

إيف مولان هو الشاب الذي صدم بسيارته الموتوسيكل الذي كانت

t.me/yasmeenbook

ابنتها على ظهره. تمتلك عائلته فندقًا شهيرًا يقع بين فيل روز وسيتي بيندو. كان قبل الحادث نجم فريق كرة القدم للشباب في فيل روز وتوقع الجميع أن يحترف في فريق أوروبي. لكنه اعتزل تمامًا بعد الحادث، وظل طوال الوقت في غرفته الخاصة في الفندق. يقولون : إنه لا يستطيع محو صورة ابنتها من ذهنه، وجسدها يندفع من على ظهر الموتوسيكل ويحلق لأعلى. يقولون :إنه لا يستطيع الفصل بين هذه الصورة وركل الكرة، التي تندفع لأعلى أيضًا، بقدمه هو التي ترفض تركها تستقر على الأرض.

جعلتها قدرة طاحونة القيل والقال في البلدة على نشر كوابيسه الخاصة كأخبار عامة تفكر فيما يقولونه عنها هي. ما نوع الكلمات التي ينسبونها إليها؟ لم تستطع مسامحته رغم حزنه وندمه البادِيين، وذهابه كل عام في الذكرى السنوية للحادث إلى قبر ابنتها لوضع باقة ورود بيضاء، مضيفًا وردة بمرور كل عام، برغم محاولاته إبداء أنه هو الآخر يتذكر ابنتها، لكنها ما زالت، لا يمكنها مسامحته.

تقابلت أعينهما عبر رقعة الرقص الخالية. نظر إليها، ثم إلى باب البار، كأنه يبحث عن مهرب.

لم ترَه منذ أن جاء إلى منزلها في اليوم التالي لوفاة ابنتها يعرض عليها تحمل نفقات الجنازة. طردَه والداها، اللذان جاءا من بورت أو برانس، عند عتبة الباب، ولم يعد مرة أخرى. أحسن صنعًا أن اختفى ولم يكن يظهر إلا نادرًا جدًا، حتى الآن. أم إنها تراه لكنها لا تميزه. أحيانًا تظن أنها رأته، في زحام ما أو من بعيد، لكنه يختفي في لمح البصر، تفكر في أنها تتوهم رؤيته كما تتوهم أحيانًا رؤية ابنتها أيضًا.

غمغم الساقي: «يبدو أنه يريد الترحيب بكِ».

مكتبة ياسمين

وقبل أن تتمكن جايلي من النهوض عن كرسي البار والفرار، كان إيف مولان يقف أمامها مباشرة، على مسافة أقل من ذراع.

قال: «مساء الخير». جسده ضخم، مهيب، وصوته عميق.

حين لم تُجبه، استدار وعاد إلى حيث كان يجلس. جرع كأسه المليء نصفه دفعة واحدة وغادر سريعًا.

بعد ذلك بوقت قصير هبطت عدة فتيات ليودّعن زبونًا ويرحِّبن بآخر. قدم الساقي لجايلي مشروبًا أقوى من النبيذ الأحمر، مزج القليل من عدة زجاجات مختلفة معًا، ثم وضع أمامها الاختراع في كأس طويل ملوّن. خدّرها الشراب كما تمنّت، بل ومنحها الشجاعة الكافية لتعود إلى سيارتها وتتوجه إلى الشاطئ.

فكرت وهي تقود في الطرق المختصرة والشوارع الخلفية، أشواك الزهرة، وتنظر إلى الحشرات التي يجذبها ضوء الكشافات الأمامية لسيارتها، في أنها، لو لم يخبرها صديقها الساقي بمن كان إيف مولان، كانت على الأرجح، ستسير إلى طاولته وتعرض عليه نفسها. كانت ستنهي هذه الليلة، كليال أخرى كثيرة، بوجه عطوف آخر، صوت مريح آخر، ذراعان آخران يحيطان بجسدها. لن يكون عليه قول الكثير. ما قاله بالفعل «مساء الخير» كافٍ حقًا. المُحزن أنها فكرت بحماقة أن هذا الأمر ما زال ممكنًا. تساءلت إن كان تعارفهما بهذا النحو - بالحب وليس الموت - قد يحل كل شيء أخيرًا. أليس من الممكن أن رؤيتها وجهَه النادم، ورقوده في فراش حزنها قد يساعدهما على محو تلك اللحظة من الزمن؟

لقد تأكدت بنفسها من حقيقة ما يقوله الجميع عن أنه حزين بقدر ما هي حزينة.

حين وصلت إلى الشاطئ أخيرًا وجدت مجموعة فتيات صغيرات.

t.me/yasmeenbook

تمسك إحداهنّ بيد الأخرى في دائرة، ويدرن في اتجاه عقارب الساعة وهن يغنين. لعبة الدوران. كانت بعيدة عنهنّ جدًا لتسمع أغنيتهنّ، لكنها تسمع ضحكهنّ، يبدو أن كل فتاة منهن تحاول رفع صوتها على الأخريات. بدا أنهنّ أسعد مَن في روز فيل، ستة ملائكة باللونين البني والأسود يهربن من القلوب الكسيرة على البحر ودولارات الرمال.

تحرّكت ببطء لا تريد لسعادة اقترابها أن تنتهي. كانت تلعب الدوران وهي طفلة، أثناء الاستراحة في المدرسة، وفي المساء في فناء منزل أبويها، مع أصدقائها الذين يأتون لزيارتها. ما تتذكره عن هذه اللعبة، مع ذلك، هو شعورها بوحدة أقل وهي تمسك بيد طفلة أخرى.

قد يبدو الأمر غريبًا - وقد يتهمها البعض بالشعوذة لأسباب أقل من هذا - إن أخبرت أحدًا برغبتها الشديدة في أخذ كل هؤلاء الفتيات الصغيرات إلى منزلها، ووضعهنّ في الغرف الخالية الكثيرة هناك، ودعوتهنّ كلما شعرت بالحزن ليلعبن معها. مرّت بها أيام كثيرة اشتاقت فيها إلى الإمساك بفتاة صغيرة وضمّها إليها، فقط لتتنفس رائحتها، الرائحة التي لا تشمها في هؤلاء الرجال. رائحة الرجال عفنة: طرق وتراب وكولونيا لا تفلح أبدًا في إخفاء رائحة عرقهم. رائحة عملهم، عرقهم، ونساء أخريات. لكن الفتيات الصغيرات رائحتهُنّ ورود وأوراق شجر غضة، وبودرة تَلك وندى.

بالرغم مما قالته إيناس والآخرين جميعًا بعد وفاة ابنتها، لم تتوقف نوبات الاشتياق تلك قط. ولم يجعلها ألمها أقوى، بل أضعَفَها. منح الآخرين قدرة على التحكم فيها والسيطرة عليها. لا ترغب في الاستمرار ضعيفة، لكنها لا ترغب في الموت أيضًا. تريد أن ترى ماذا سيحدث بعد ذلك، ماذا فوّت زوجها وابنتها. تريد الحياة وتخافها في الوقت نفسه. لياليها مع هؤلاء الرجال تُنسيها غضبها واضطرابها لوقت، وتُعينها على المضيّ في أيامها. تسمح لها ببيع الخيوط والأقمشة والبقاء بالقرب من قبري حبيبيها حقًا.

مكتبة ياسمين

كانت ثمة أوقات، كما أخبرت ماكس الأب، أرادت فيها أن ترحل عن فيل روز، عن البلد كلها، وألا تعود أبدًا. لكنها سمعت الكثير جدًا عن صعوبات بدء حياة جديدة في أرض أخرى لتبادر بالمحاولة. سمعت عن أشخاص حُطّ من قيمتهم وهم يتعلمون لغة أخرى، وأشخاص آل بهم الأمر للعمل في تنظيف المنازل ومسح مؤخرات أطفال الآخرين. رأت هؤلاء يعودون إلى روز فيل في عطلات أعياد الميلاد أو في مواسم الصيف، بتسريحات شعر مبالغ فيها وملابس باهظة الثمن، لكن أعينهم تخونهم دائمًا. تكشف بسهولة عمّا تلقّوه من إهانات. وجلودهم أيضًا تفضحهم، كانت الحروق من بخار العمل في غسيل الملابس الجاف أو في غسيل السيارات أو في مطابخ المطاعم واضحة كأختام الحيوانات. لن تسمح بحدوث شيء كهذا لها. إن أسلافها من الناحيتين مدفونين في مقابر تلك البلدة، من بين أقدم العائلات هناك. لن تستطيع تجربة الغُربة. تفضل البقاء بالقرب من أشباحَها. لن يمكنها العيش في بلد أجنبية والعودة في زيارات قصيرة فقط كل عام. لن يمكنها المخاطرة بالموت والدفن في مكان بارد. ستظل دائمًا هنا، فكّرت، كالصخرة التي تعثرت قدمها فيها حين وصلت أخيرًا إلى الفتيات الصغيرات.

شعرتْ إحدى الفتيات، كلير، بأنها مُراقَبة، وكانت تنظر إليها خطفًا من حين إلى آخر. كلير جميلة مثل أمها. تتحرك برقة أكثر، وثقة أكبر من بقية الفتيات، حتى الأكبر منها. سارتْ جايلي نحو الفتيات، فأوقف حضورها اللعبة فورًا.

«هل تذكرين ابنتي؟» دائمًا ما يسألها والد الفتاة، نوزياس، هذا السؤال حين يراها.

كيف تنسى جايلي فتاة أرضعتها وهي حديثة الولادة عمرها ليلة واحدة؟

t.me/yasmeenbook

كانت رقيقة للغاية، وطيّعة للغاية، حتى في يومها الأول ذاك، وقد كبرت على نحو رائع، وتألقت، عامًا بعد آخر.

سألتْ جايلي كلير: «هل أبوكِ هنا؟»

أومأت الفتاة برأسها، كانت تنظر إلى الأسفل إلى يديها، ثم إلى قدميها المكسوتين بطبقة من الرمال. فقدت الفتيات الأخريات اهتمامهنّ وسرن مبتعدات.

أشارتْ جايلي للفتاة أن تتبعها. جلست كلير بجوارها، سحبت صندلها المطاطي من خلف إحدى الصخور. انتظرتها جايلي أن تنهي ارتداءه ثم قالت: «كنت أعرف أمك».

أضاءت عينا كلير بتلك الطريقة الخاصة بالأطفال حين يتوقعون سماع الحكايات.

قالت جايلي: «كنت أعرفها قبل ولادتك بوقت طويل، كانت أمك صديقتي».

لم تكن هذه كذبة تمامًا.

مالتْ الطفلة برأسِها نحوها، فمها مشدوه على وسعه، كأنها ستتنفس كلمات جايلي التي خرجت بسرعة شديدة لحد أن جايلي نفسها لم تستطع منعها، ولم تكن واثقة مما تفكر فيه أو تقوله بصوتٍ عالٍ. «حين كانت أمك حاملًا فيكِ، توقفَت عن عملها في غسل وتحضير الموتى، لذلك كان لديها كل الوقت لتخرج مع والدك إلى البحر والخياطة. انتظَرتك طويلًا جدًا. أمك. لم يكن حتى انتظارًا، كانت تحاول، وتحاول، كانت تحاول أن تشدّك من السماء، أن تختطفك من يد الرب. نعم، يد الرب، هذا هو الأمر. أنا لا أذهب إلى الكنيسة يوم الأحد. لا أذهب إطلاقًا، لكنها أرادتك بشدة، أنا أعرف أنها

مكتبة ياسمين

نزعتك من بين يدي الرب. هذه هي الطريقة الوحيدة لوصف الأمر. كانت بصحة جيدة طوال الوقت الذي ظللتِ فيه بداخلها. لم يبدُ عليها أي تعب حين كانت تأتي إلى المحل، ما عدا الأسبوع الأخير، حين لم تأتِ. ثم أرسلوا في طلب القابلة. لا يعلم أحد ماذا حدث أثناء ولادتك. سمعتُ أن القابلة قالت إن كل شيء بخير. لا تلومي نفسكِ. هذا الكلام عن روح الانتقام مجرد خزعبلات. لا أحد يعود. هذا ليس حقيقيًا. لقد ذهبتِ، عدتِ إلى يدي الرب، ولا أحد باستطاعته انتزاعك مجددًا. ليس أنتِ، ليس أنتِ كلير. أرجو أن تفهمي. ليس أنتِ من عدتِ إلى يدي الرب، بل أمك، وزوجي لول، وابنتي روزي، وجميع من ماتوا دون أن يستحقوا الموت. مع ذلك من الذي يستحق الموت؟ كثيرون جدًا يموتون هنا، ولماذا يستمر بقيتنا أحياء؟»

قالت وكل من تفكيرها وصوتها يُبطئان الآن: «عيد ميلاد سعيد كلير».

لم يزل لديها الكثير تريد أن تخبر به الطفلة. أرادت أن تخبرها كيف رأتْ أمها في المدافن أثناء دفن زوجها، لكن الطفلة لن تستوعب هذا. ربما حضرتْ أمها قداس الجنازة في الكاتدرائية حتى - بدا أن البلدة كلها كانت هناك - دون أن تلحظها جايلي. لكنها تتذكر جيدًا رؤيتها أثناء الدفن، تقف عند بوابة المدافن.

في ظل ظروف طبيعية، لم يكن لجايلي، كأم حديثة الولادة، في العادة، أن تخرج في الهواء الطلق، خوفًا من أن يتعرّض جسدها الهشّ المنوط به تغذية الرضيع - بعد أن أنهكته الولادة - لأي ضرر. لكنها ضربت بنصائح الجميع عرض الحائط وتركت رضيعتها ذاك الصباح مع إيناس لتحضر كل من قداس الجنازة وطقوس الدفن. أثناء الدفن آلمها ثدياها، وانتفخا، وبّللا ثوبها الأبيض. نظرت جايلي إلى ما وراء الحفرة العميقة في الأرض، والنعش البرونزي، والأب مارجنان والحشد الكبير من أبناء البلدة حولها، نحو بوابة

t.me/yasmeenbook

المدافن، تتمنى أن تعود إلى البيت لرضيعتها. كان ذلك حين رأت كلير نارسيس تقف وحدها أسفل شجرة صفصاف بلون اللهب عند البوابة. كانت ترتدي الثوب الأسود البسيط نفسه الذي ترتديه في جميع جنازات أهل البلدة ممن غسلت أجسادهم وأعدّتهم للدفن.

بدا في ذاك الصباح أن كلير نارسيس وشجرة الصفصاف كيان واحد. بدا جسدها غير مميز عن الجزء الصغير في جذع شجرة الصفصاف الذي لا تغطيه أغصانها المتدلية. ورأسها متوج بإكليل الصفصاف الذهبي. بدتْ كلير نارسيس ذاك الصباح كصورة رائعة، حجاب فاصل بين التراب الذي يواري نعش زوجها وطفلتها التي تبكي في انتظارها في البيت.

كان وقوف كلير عند بوابة المدافن، وطريقتها المدهشة في هزّ وجدان جايلي ومواساتها في الوقت نفسه، أحد أسباب موافقتها على إرضاع ابنتها حديثة الولادة، ومن بين الأسباب الكثيرة التي تجعلها تقول بأمانة إنها كانت صديقتها.

يحلق ظل نوزياس الآن على جايلي وابنته. جلس بجوارهما منهكًا، كاد أن يسقط على ابنته. «يجب أن نعتني ببعضنا البعض» [بالكريولية في الأصل]، كانت كلير نارسيس تقول هذا لجايلي دائمًا. وضعتْ جايلي يدها على ظهر الفتاة وشعرت بجسد الفتاة يرتجف. لقد حسمت أمرها أخيرًا. نعم، ستأخذ الطفلة.

قالتْ: «الليلة».

وبدأ قلقها على الفور. ربما تحدثت كثيرًا جدًا. ربما أزعجتْ الطفلة بكل هذا الكلام، ربما تسير الأمور بسرعة شديدة؟

سأل الأب: «الآن؟ الليلة؟»

مكتبة ياسمين

تحوّل انتباهه كله إلى ابنته فورًا، كأن جايلي ليست موجودة تقريبًا. ما أدهش جايلي، ألم يحاول إقناعها بأخذِها لسنوات؟

ذكر نوزياس شيئًا ما عن عدم تغيير اسمها وعن خطاب لها، ثم رفعت كلير ذراعيها وقالت: «أشيائي».

ماذا عن أشيائها؟ تساءلتْ جايلي.

لكن الفتاة لم تنتظر إذنهما بل استدارتْ وسارت نحو الكوخ ببساطة.

لم تعرف جايلي كم مر من الوقت تحديدًا، لكن الناس كانوا يغادرون إلى بيوتهم، دون أن تعود كلير.

قال نوزياس: «سوف أُحضرها».

راقبته جايلي وهو يتجه إلى الكوخ. يبذل قصارى جهده ليظل متماسكًا تحت ثقل حزنه لرحيل ابنته. اختفى هو الآخر داخل الكوخ. ثم خرج، يصيح باسم الفتاة.

أسرعت جايلي إليه. لحقت به في الأزقة بين الأكواخ، ثم إلى البحر، تصيح طوال الوقت باسم الفتاة معه ومع الجيران.

قالت أخيرًا حين بدا لها أن كلير ربما غادرت الشاطئ: «لنأخذ سيارتي ونبحث عنها في البلدة».

أجاب بحزم كأنه يعيد السيطرة على نفسه: «لا، إنها تختبئ فقط. سوف تعود». تفهّمت جايلي حاجته إلى التماسك، حتى مع كونه قد منحها الطفلة للتو، فما زالت ابنته.

قالت: «استمر في البحث، وسوف أنتظرها في مسكنك».

تبِعته إلى عتبة بابه. أسرع يسبقها ليضيء الكوخ الصغير، الذي كان

t.me/yasmeenbook

بحجم إحدى شرفاتها. لم يكن للكوخ رائحة البحر كما كان حين جاءت العام السابق. بل رائحة عود الثقاب الطويل الذي حكه نوزياس في علبة الثقاب وأشعل به مصباح الكيروسين. أُضيء جزء من الغرفة الآن بوهج ناعم، وامتلأ بقيتها بالظلال. مدّ يده أعلى الفراش، ودفع مصاريع نافذة صغيرة يفتحها، ليسمح بدخول بعض الهواء وخروج بعض الدخان. ثم أغلقها بسرعة كما فتحها. بدا مضطربًا، وحتى مذعورًا، لكنه كان يبذل جهدًا لئلا تلحظ هي ذلك.

حاولت جايلي بصعوبة شديدة، مرة أخرى، ألا تخلط بين تعاطفها ورغبتها. لكنها مع ذلك، فكّرت في التلميح له عن رغبتها الدفينة بالجلوس على فراشه.

خرج من الكوخ.

لقد غادر في جميع الأحوال.

مكتبة ياسمين

أخبرني

قالت لويز جورج: «أخبريني يا فلور فولتير»، جسدها النحيل مفرود، عمودها الفقري مستقيم كالمسطرة، خلف ميكروفون الاستوديو. «نحن مستعدون لسماع قصتك».

«كانت ثمة عاصفة ثلجية...» بدأت فلور مغمضة العينين لتتحاشى النظر إلى وجه لويز النحيل مباشرة.

كانت ثمة عاصفة ثلجية ليلة أن جاء ماكس آردين جونيور إلى فراش فلور فولتير، بكرات ثلج صغيرة في البدء، تضرب سقف الغرفة الملحقة بالمطبخ في الطابق الأرضي. كانت غرفة ضيقة، أصغر غرفة في منزل ماكس الأب ، ربما بُنيت لمبيت الساكن فيها ليلًا فقط، وليس للمكوث فيها طويلًا، كما اعتادت فلور ومن قبلها خالتها، الخادمة السابقة.

كانت فلور تتصفح مجلة أزياء وجدتها في غرفة المعيشة وهي مرهقة بعد يوم طويل قضته كالعادة في التنظيف وإعداد العشاء، حين علا صوت خبط كرات الثلج على السقف. جعلتها رؤية الأثواب المذهلة، والسيقان والأعناق الطويلة، والأحذية ذات الكعوب العالية، التي كانت تتفرس فيها ببلاهة، تشعر أن قميص نومها البيج البوليستر أخف وأقدم وأقبح، مع ذلك ظلت تقلب صفحات المجلة.

شَهِدت عواصف ثلجية من قبل، في سيتي بيندو. كانت تلك العواصف

t.me/yasmeenbook

تضرب أحيانًا منزلًا ما، ليس قويًا كهذا المنزل، بشدة، لحد أن تطيّر الرياح حطامه معها.

انطفأت الأضواء في منزل ماكس الأب كله، وبدا ماكس الابن حين جاء إلى غرفة فلور كأنه كان يتجول في أرجاء المنزل بكشاف ضوء وبلا هدف. في البدء ظنت أنه يريد المجلة، فأعطتها له بسرعة، خجلة من تحديقها في الشعور الطويلة والوجوه الملونة بمساحيق التجميل. أخذ المجلة منها دون أن يقول شيئًا - ولا حتى مرحبًا - وغادر. أغلقتْ الباب خلفه بالترباس الصغير. لم تكن تلك أول مرة يأتي فيها إلى غرفتها. إنه منزل أبيه رغم كل شيء. كان يأتي إلى غرفتها أحيانًا ليسألها عن مكان شيء ما، أو ليطلب منها إعداد شيء ما، شطيرة أو كوب شاي، له أو لأبيه. لكنها تشعر به تلك الليلة مختلفًا. بدا تائهًا.

عادتْ إلى فراشها ورقدت على جنبها، شدّت البطانية على جسدها كله، حتى عنقها، كعادتها طوال حياتها. حينها سمعت صوت خطواته تقترب. إنه يعود. الترباس لا جدوى منه. بدا أنه مصنوع ليُفتح بسهولة. دخل وجلس على حافة فراشها. هدأ صوت العاصفة تدريجيًا حتى توقف تمامًا، وحل محله صوت زخات المطر ودويّ الرعد من حين إلى آخر.

لم يقل شيئًا. أغمضت عينيها وحاولت أن تتظاهر بأنه ليس موجودًا. ثم فتحت عينيها مجددًا ونظرت حولها، رأت في ضوء الكشاف وجهه الخالي من التعبير. تحت معطف المطر الذي يرتديه، كان عاريًا. ظنت في البدء أنه نائم، يسير نائمًا، يحلم واقفًا، أو أنها هي التي كذلك. كانت خائفة جدًا ليمكنها التحدث. لم يبدُ أن البرق والرعد يزعجانه، ظل يحرك وجهه نحو وجهها حتى ثبّت جسدها تحت جسده على الفراش. كان ثقيلًا، ضعف حجم من في مثل سنه. ظنّت أن لهذا علاقة بإنهائه دراسته الثانوية والجامعية محتجزًا في

مكتبة ياسمين

مكتب أبيه بمدرسة آردين، يتلقى دروسه على يد أبيه. اعتادت خالتها أن تقول عنه إنه لم يمسسه شيء قط حتى رذاذ المطر.

وهو يرفع قميص نومها لأعلى حتى صدرها، ظنت أنها رأت قطرات مطر قليلة في ركن الغرفة، تنسال من السقف على الجدران. ربما أفسدت العاصفة السقف، وإن كان هذا ما حدث فهي ليست آمنة داخل الغرفة بأكثر مما هي خارجها.

حين غادر الغرفة - لا تعرف أكان ذلك بعد دقائق أم ساعات أم أيام؟ - كان المطر ما زال ينهمر، إنما ليس بقوة كما من قبل. سارتْ إلى الخارج، إلى حديقة الزهور، بجوار حمام السباحة، رافعة وجهها إلى السماء. تلطمها الرياح، وجسدها كله مبلل.

حين عادت إلى الغرفة وجدته قد نسى كشاف الضوء. ما زال مضاءً. وجهته نحو وجهها المبلل، تظن بارتباك أنها قد ترى عينيها فيه كأنه مرآة. تركتْ الكشاف مضاءً ووضعته على الأرض خارج باب الغرفة في حال عاد ليسترده. ما من داعٍ لتوصد الباب بالترباس، تعرف هذا الآن.

ظل المطر ينهمر بإصرار كأنه سيستمر إلى الأبد. عادت تحت بطانيتها، فشعرت بعذاب احتكاك نسيجها بجلدها. ما زالت تشعر بالخطر يحدق بها داخل المنزل وخارجه، رائحة حرق صواعق البرق لفروع النخيل المحيط، وصوت ارتطام الموجات الضخمة بالشاطئ. خيّل إليها أن الماء يسيل من أسفل الباب، ارتفع فوق كشاف الضوء وغمر ضوءه وحمَله في جريانه. سيكون ماءً دافئًا، محمّلًا بأوراق الشجر. خيل إليها أنها ترى، كما رأت في فيضانات أخرى من قبل، النمل الناري الأحمر، يطفو في كرات بحجم قبضة اليد على سطح الماء. سينفصل المنزل حينها عن الأرض، وستفتح الباب لتلقي نظرة على الخارج، وسترى الماء كبطانية سوداء تحيط بها من كل

t.me/yasmeenbook

الاتجاهات ولن ترى اليابسة لأميال.

شعرتْ بطعنات ألم في مواضع جسدها التي ضغط عليها بجسده. كانت قد استخدمت كل وزنها في محاولتها دفعه عنها، لكنها لم تستطِع. حاولت ضرب يده لإبعادها عنها، كأنهما حيوانين رخويين، دودتا علق، أو قنديل بحر. لم يتحدث، لم يصدر عنه صوت. ذهب ليسبح ذاك المساء ولم تزل عنه رائحة البحر.

اهتز المنزل وجسده كله يغطي جسدها، لكن المنزل قد اهتز من قبل في عواصف أخرى. الجديد هو ارتفاع الماء بسرعة شديدة، بالنمل الناري، ما يعني أن الماء قادم من أعماق الجبال والتلال، وليس من البحر. شمّت في أنفاسه رائحة رَّم وهي تشهق لتلتقط أنفاسها هي.

في الصباح التالي، بدا أن الشمس قد أشرقت مبكرًا عن موعدها المعتاد، كأنّها تريد التعامل مع كل ما حدث الليلة الماضية. نظرت فلور عبر شق في الباب ورأته هو وأباه يبتعدان عن أحواض زهور السحلبية بجوار المقصورة في منتصف الحديقة. حلق طائر الطنّان[1] أعلى أجمات الزهور الغارقة، ورفع ماكس الأب أصابعه نحوه كأنه يحاول الإمساك بأجنحة الطائر الضئيلة. بدا الاثنان متجهمين بوجهين جامدين، تركز أعينهما على الزهور العزيزة الغارقة وهما ينظران إلى ما سببته العاصفة من ضرر.

وهما في الحديقة، خرجتْ فلور من المنزل وغادرت إلى سيتي بيندو. المرور بطيء بسبب الفيضان، تنبض عظامها ألمًا مع كل ارتجاج للسيارة.

---

(1) طائر الطنان أو الطنون، ينتمي إلى فصيلة طيور صغيرة الحجم للغاية يوجد منها أكثر من 300 نوع تعيش في الأمريكتين، تحرك أجنحتها بسرعة تصل إلى حوالي 80 ضربة في الثانية، وتقتات على رحيق الأزهار والحشرات الصغيرة. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

حين وصلت إلى بيت والدتها، لم تكن والدتها هناك.

فتحت الباب وانتظرت بالداخل. شعرتْ أنها قذرة جدًا لتجلس على كراسي والدتها البيضاء البلاستيك. فجلست على الأرض الأسمنتية الباردة.

أمها امرأة قصيرة لكنها قوية. حين عادت أخيرًا كانت تحمل على رأسها سلة خيزران كبيرة مليئة بأواني وأكواب ألومنيوم تبيع فيها أطعمة للإفطار في السوق. شفتاها مضمومتان وهي تقترب من فلور كأنها كانت تُصفّر.

حين اقتربت أمها بما يكفي، ساعدتها فلور في وضع سلّتها على الأرض. وقبل أن تتفوه فلور بشيء انحنت أمها مجددًا، نظرتْ إلى وجهها المنتفخ من البكاء، ومررت أصابعها على خد فلور.

قالت الأم: «إن كنتِ قد عدتِ دون رجعة، فأنا لا أعرف كيف سنعيش».

نهضتْ فلور، دسّت يدها في جيب ثوبها، وناولتْ أمها راتب الشهر الذي كانت تأمل أن تستخدمه في الهروب. ثم عادت تلك الظهيرة إلى منزل آل آردين لتبدأ إعداد العشاء لهما.

قاطعتْ لويزُ فلورَ أخيرًا الآن وهما يُسجّلان برنامجها: «أتقصدين أنك عدتِ إلى هناك، إلى منزل آل آردين؟»

ارتدت لويز هذا الصباح أحد أثوابها البنفسجية على شكل جرس، شعرها مسحوب للخلف بشدة، ذقنها مدببة، عيناها مُضيّقتان وثابتتان. عازمة على استخراج القصة كلها من فلور، بكل تفصيلة يمكن اعتبارها ضرورية. قالتْ: «أخبريني، أخبريني وأخبري الجميع لماذا عدتِ إلى منزل آل آردين تلك الظهيرة. لكن أولًا، فاصل إعلاني».

لا يوجد فاصل إعلاني حقيقي أثناء التسجيل بالطبع. انتظرتا فقط لدقائق قليلة ورشفت لويز بعض الماء من أحد الكوبين الموضوعين أمامهما،

t.me/yasmeenbook

ثم قالت لفلور: «استرخي، أنتِ تبلين جيدًا جدًا».

رفعت فلور بصرها عن أصابعها المتشابكة وجالت به في الاستديو، غرفة مربعة لا تختلف كثيرًا عن الغرفة التي كانت تنام فيها في منزل ماكس الأب. على المائدة المستطيلة ميكروفونان وكوبا الماء، كوب لويز مليء حتى نصفه الآن. كانت لويز قد تخلت عن سماعات الأذن خاصتها، السماعتان اللتان تستخدمهما عادةً، عرضتهما على ابن فلور.

يجلس بامكسيم تحت المائدة عند قدمي أمه، تارة يشخبط بالقلم الرصاص والورقة اللذين منحتهما له لويز، وتارة يلعب على هاتف فلور الخلوي بهدوء. تحرّكت عينا فلور بين ابنها بأذنيه المغطاتين بالسماعات والرجل الجالس إلى لوح التحكم الكبير على الجانب الآخر من الزجاج، تحاول جاهدة تجنُّب النظر إلى لويز جورج مذيعة البرنامج الشرسة رغم كونها ضئيلة.

أمسكت فلور الآن بكوب الماء خاصتها ورشفت منه. كانت قد اتصلت بالمحطة وسألت عن لويز جورج ما إن عرفتْ من ماكس الأب أن ابنه سيعود إلى البلاد ويريد أن يرى الولد.

هذا هو الغرض من تلك الحوارات الخاصة، كما أوضحت لها لويز، أن تتحدثي عن لحظة واحدة غيّرت حياتك. لحظة جعلتْ كل ما قبلها يبدو بلا معنى. لحظة قلبت حياتك رأسًا على عقب. تلك الليلة في غرفة الخادمة وماكس الابن أعلاها كانت تلك اللحظة في حياة فلور. أوضحت لويز أيضًا، عليكِ ذِكر الأسماء، وفي تلك الحالة على وجه الخصوص، يجب تكرارها كثيرًا ما أمكن. يمكن دائمًا لكل من يُذكَر اسمه في البرنامج، كل من يُتَّهم، أن يأتوا إلى برنامجها الأسبوع التالي للدفاع عن أنفسهم.

في البداية لم يكن لدى فلور مانع من ذكر الأسماء، لكنها تجد صعوبة في مواصلة حكي قصتها الآن. وبالرغم من سماح لويز لها بتسجيل البرنامج

مكتبة ياسمين

في الصباح الباكر - لإذاعته لاحقًا ذاك المساء وعدة مرات أخرى خلال الأسبوع التالي - لم تستطِع فلور تناسي وجود ابنها في الغرفة، إنه جالس عند قدميها، تحت الطاولة، ومع أنه يرتدي سماعات، ربما ما زال يمكنه سماعها.

قالت لويز وهي تتأهب للبدء مجددًا: «تلك الفواصل الإعلانية تأخذ جزءًا كبيرًا من الساعة، طويلة. لكن ماذا نفعل؟»

أشار إليها الرجل الجالس إلى لوح التحكم على الجانب الآخر من الزجاج أن تستأنفا.

تقترب لويز أكثر الآن، يكاد خدّاهما يتلامسان. تطالبها قائلة: «واصلي، أخبريني، أخبريني ماذا حدث بعد ذلك».

قالت فلور بصوتها الفولاذي الذي حل محل صوتها كفتاة منذ وقت طويل، صوتها السابق الذي لم تعد تتذكره الآن: «صرت حاملًا بابنه».

كان هذا اللقاء استعدادًا جيدًا لما هو آتٍ، فكرت فلور، سترى ماكس الابن في وقت لاحق هذا الصباح نفسه. هي أيضًا تريد أن يراه ابنها، ولو لتلك المرة الوحيدة فقط. كانت تتوق إلى معرفة كيف ستتصرف أمام ماكس الابن، لن تبكي بالطبع. إن كان لأحد أن يبكي، ستحرص على أن يكونا ماكس الابن وأباه، بهذا البرنامج. الشكر للرب أنها ولويز تبدوان متفقتين على الهدف نفسه.

ألّحت لويز عليها: «بابنه أنتِ تقصدين، بامكسيم آردين، ابن ماكسيم الابن؟»

أومأت فلور.

قالت لويز: «هذا ليس تلفازًا، يجب أن تتحدثي».

تلك التعليقات القصيرة في منتصف قصة مأساوية دائمًا ما تجعل المستمعين

t.me/yasmeenbook

يضحكون. كانت لويز أحيانًا، وهي جالسة في بيتها تكتب، في الليالي التي يُذاع فيها برنامجها، تسمع الضحك ينفجر من صف كامل من المنازل. لم يكن عليها أن تشغل حتى مذياعها، كانت تسمع البرنامج يتردد بصوت عال من عشرات المنازل، وكانت في تلك اللحظات تشعر أنها أقوى شخص في البلدة. يؤسفُها فقط أنه بسبب إمكانات المحطة المحدودة لا يذاع البرنامج سوى في فيل روز وبلدات أخرى قليلة مجاورة، وليس في البلد كلها.

واصلتْ فلور: «نعم»، كأنها توقفتْ للضحك المتوقع على ملحوظة التلفاز.

عادت لويز للجدية الشديدة مجددًا وقالت: «ما زلت لا أفهم لماذا عدتِ مرة أخرى؟ لماذا عدتِ إلى هناك مرة أخرى بعد ما حدث لكِ؟»

لم تخرج كلمات فلور بوضوح كما كانت تأمل. أرادت أن توضح كيف كان ذهنها مشوشًا تمامًا تلك الليلة بعد أن ظهَر ماكس الابن في غرفتها، كيف لم تكن متأكدة تمامًا من أنها كانت تحلم.

كررت لويز سؤالها: «لماذا عدتِ؟»

أجابت فلور: «لم يمكنني تحمل فقدان عملي».

سألتها لويز: «أكان ذلك الخيار الوحيد أمامك حينها؟ ألم تفكري في الذهاب إلى الشرطة وتقديم بلاغ؟»

تعرف لويز أن في مكان ما، سيقوقأ أحد المستمعين بضحكة مكتومة. الكثير منهم ربما. ما جدوى تقديم بلاغ في قسم الشرطة ضد ابن ماكس الأب؟ دولارات قليلة لضابط شرطة برتبة صغيرة أو كبيرة ستُخرج ماكس الابن من الموضوع. مع الوضع في الحسبان أن أحد أعز أصدقاء ماكس الأب هو عمدة البلدة.

مكتبة ياسمين

سيدرك المستمعون أن لويز تلعب دور حليف الشيطان، وحين تلعب لويز دور حليف الشيطان يستمتع جمهورها أكثر حتى.

أجابت فلور عن السؤال في جميع الأحوال: «أخبريني أنتِ كم عدد من حدث لهن مثلما حدث لي ووجدن العدل؟»

حكّت لويز ذقنها النحيلة وصمتت لتفكر في هذا قليلًا. زامت ليعرف الجمهور أنها تفكر ويشاركها تأملها.

«ألم يكن بإمكانك البحث عن عمل آخر؟»

«أنا – لقد كنت – أدفع إيجار منزل والدتي».

أجابتها لويز: «أنا واثقة من أن أمك كانت تفهم إنك في موقف سيىء وكانت تتمنى خروجك منه».

تحركت قدما فلور بسرعة شديدة لحد أمكن معه سماع صوت خبط ركبتيها في الطاولة حين أُذيع البرنامج. وقالت: «هذا رأيكِ أنتِ».

حينها لمستْ يد ابنها سمّاعتها، وحين نظرت إليه بالأسفل، رأت قفاه وهو يرسم بالقلم الرصاص والورقة.

واصلت لويز أسئلتها: «متى عرفتِ أنكِ حامل؟»

قالت فلور: «عَرفتُ أنني حامل بعد عدة أسابيع، حين بدأت أتقيأ». نظرت للأسفل مجددًا تتأكد من أن السماعات ما زالت على أذني ابنها، وأضافت: «كانت فترة القيء سيئة جدًا لحد أنني كنت أتقيأ أحيانًا في الطعام الذي أعده لهما».

شعرتْ لويز بالسؤال الذي سيخترق أذهان مستمعيها فيما بعد. توقعت الشهقة الجماعية التي ستعلو في البلدة. أتقيأت خادمتي في طعامي من قبل؟

t.me/yasmeenbook

سيسأل بعضهم نفسه.

توقفتا لفاصل إعلاني آخر. كانت لويز تبتسم، كاشفة عن الخطوط الداكنة بين أسنانها. نظرت فلور إلى أسفل لتطمئن على ابنها، الذي بدا منشغلًا بالرسم وضغط أزرار هاتفها برقة شديدة كما أوصته. لم تمكنها رؤية ما رسمه لأن الهاتف ويديه كانا يغطيان الورقة.

حين بدأتا مرة أخرى، سألت لويز: «من أول شخص أخبرتِه بحملك؟»

«أخبرت الأب أولًا».

سألتها لويز: «أنتِ لا تقصدين أبا ابنك، بل تقصدين ماكسيم آردين الأب ؟»

«نعم».

«صاحب وناظر مدرسة آردين؟»

«هو نفسه».

«أخبرته هو أولًا؟»

«نعم».

«أخبريني إذن، ماذا قال ماكسيم آردين الأب حين أخبرتِه؟»

«قال إنه ليس متأكدًا من أنني حامل من ابنه. ثم أعطاني ألفي دولار أمريكي منه ومن زوجته، لأختفي، لأرحل بعيدًا عنهم».

قالت: «ألفا دولار أمريكي، ما يساوي ستة عشر ألف دولار هاييتي أو ثمانين ألف جودر، من الأب هنا والأم في ميامي، مقابل أن تختفي. أهذا هو السعر الشائع؟» وأطلقت ضحكة معينة عمدًا لتُثبت وجهة نظرها.

مكتبة ياسمين

هذا كثير لإثارة سخط ماكس الأب الذي اعتاد السيطرة على كل شيء. كان عليها أن تصفعه بعد أن جعل تلك المرأة تصفعها.

تخيلت لويز مستمعيها في جميع أنحاء البلدة يومئون برؤوسهم حين يسمعون عن الألفي دولار أمريكي. قد يغمغم بعضهم أنه ليس مبلغًا سيئًا. عائلة أخرى قد تطردها فقط دون أن تمنحها شيئًا البتة.

واصلتْ فلور: «أخذتُ المال ورحلتُ، ذهبتُ إلى بورت أو برانس، عند أقارب والدتي، وفي انتظار ولادة ابني بدأتُ مشروعًا».

كان الجمال شغف فلور الدائم. تراه في نبات القصب الراسخ، والأعشاب والأزهار البرية الملونة التي تنمو، بالرغم من وطئها باستمرار، في الطين، على ضفاف الأنهار وفي الأزقة الخلفية. تحب أن ترى النساء بشعور مصففة وأزياء أنيقة، حتى ولو كانت ملابس رخيصة. تؤمن أن أفقر وأتعس النساء بمقدورهنّ التغلب على الحزن بالجمال، بالمناديل أو أوشحة الرأس اللامعة أو الملونة، أو القبعات، بالشعر المنسدل أو المُضفّر، أو المستعار، والأعناق المرشوشة ببودرة التلك. حتى وهي تجلس أمام لويز، تفكر فلور في أن لويز ستبدو أجمل إن فعلت أكثر من جذب شعرها إلى الخلف، ما يجعل وجهها يبدو قاسيًا جدًا. تفكر أن بإمكان لويز وضع بعض أحمر الشفاه بدرجة فاتحة ونقطة سوداء بقلم الكُحل كشامة حُسن.

«بدأتِ مشروعًا من أي نوع؟»

«صالون تجميل».

تخيلت لويز صيحات الفرح تنطلق في أنحاء البلدة. قالت لويز بنعومة القطط في الميكروفون: «حتى في بؤسهنّ، تحب نساؤنا أن تكنّ جميلات».

هذا هو الجزء المفضَّل لديها في البرنامج، حين تتخذ القصة منحاها

t.me/yasmeenbook

الإيجابي، يعادل هذا إحراز الهدف الأول في مباراة كرة قدم حامية، لحظة تغيُّر كل شيء، حتى وإن كان بالنسبة لجانب واحد فقط. لهذا يسعدها اختيار تلك القصة التي سقطت في حجرها من ماكينة الشائعات في البلدة، لهذا يُسعدها ويُبهجها أن اتصلت بها تلك الشابة. لهذا، ولِتَرُدّ لماكس الأب صفعته. لا، لم تكن أبدًا من النوع الذي يُدير خده الأيسر لمن يصفعه على الأيمن، حتى وإن حاول ماكس الأب ، تلك اللحظة في مكتبه، إجبارها على ذلك. كانت تؤمن بمبدأ العين بالعين، ومع أنها لم تستغل برنامجها لأغراض انتقامية من قبل قط، إلا أنها لا تمانع الأمر من الأساس.

تكتسب نبرة فلور ثقة الآن، تقل اللعثمة والتردد، قالت: «ازدهر صالون التجميل بسرعة، جعْلنا نساء كثيرات جميلات».

سألت لويز: «وأنتِ؟ كيف تغيرتِ؟»

هذا ما أبقى على برنامج أخبرني في الإذاعة طوال تلك السنين. لهذا يحبه المستمعون. لأن لويز دائمًا ما تبحث عن الذهب في نهاية أقواس قزح ضيوفها.

قالت فلور، مرتاحة لانتهاء البرنامج الذي بدا وشيكًا: «حسنًا، ما زلتُ هنا، نحن هنا».

أخيرًا، السؤال الختامي، الذي تطرحه لويز على جميع ضيوفها، لتغطي نفسها جزئيًا، لتوضح للمستمعين أن ضيوفها هم من سعوا للاتصال بها وليس العكس. يبين السؤال، أو على الأقل يبدو منه، أن كل ما تفعله لويز هو أن توفر لهم منبرًا، لرواية قصصهم بأنفسهم، وأنها لا تقصد بذلك أي سوء، ولا تفيد منه بأي شيء كذلك.

سألتْ لويز فلور: «لماذا جئتِ إلى أخبرني؟ لماذا أردت أن تحكي لنا قصتك؟»

مكتبة ياسمين

قالت فلور بنبرة دفاعية قوية: «لأنها، بكل ثروتها، حتى بعد كل ما حدث، قد يأخذان ابني مني، وقد يزعمان أنني لا أستطيع تربيته».

«أتقصدين آل آردين، الأب والإبن؟»

«نعم، هما».

«هل يريدان أخذ طفلك منكِ؟»

«لن أدعهما يفعلان هذا».

سألتْ لويز: «ماذا ستفعلين الآن إذن؟»

قالت فلور: «سأرحل بعيدًا»، وصمتت لتفكر في الأمر جيدًا.

«ظني أن بإمكانك إخباري إلى أين؟»

«لا».

«أخبرتني أن مكسيم آردين الأب وزوجته منحاكِ نقودًا للطفل».

«نعم».

«وهل وضعتِ تلك النقود في مشروع صالونك؟»

«نعم».

«هل سيكون صعبًا العيش بدون تلك النقود؟»

«سيكون الأصعب العيش بدون ابني».

«حسنًا، للتوضيح فقط، هل ستأخذين ابنك معكِ؟»

قالت فلور: «سآخذ معي أمي وابني، نعم، لن يروننا مرة أخرى أبدًا. أنا هنا لأخبرهما ألا يبحثا عنّا مرة أخرى أبدًا، لأنهم لن يجدانا أبدًا. حتى حين

t.me/yasmeenbook

أموت ويصير ابني رجلًا كبيرًا سأحرص على ألا يجدانه أبدًا. سيكون له اسما مختلفًا وسيكون رجلًا مختلفًا...»

بدت هذه خاتمة جيدة للويز، دون أن تدفع ضيفتها إلى حل وسط أو تلحّ عليها لتذكر إلى أين ستذهب.

قالتْ لويز: «شكرا لكِ فلور فولتير على مشاركتك قصتك معنا»، ثم أضافت بصوت درامي عميق: «أتمنى لكِ تحقيق هدفك وإيجاد المكان المناسب لكِ ولطفلك».

بعد إطفاء أجهزة التسجيل نزعتْ فلور السماعات عن أذني ابنها فورًا، لكنها اكتشفتْ أن الولد - مثله مثل أي شخص في البلدة - قد استمع لكل كلمة. نظر إليها وابتسم ابتسامة واسعة تنم عن الارتباك والفخر بما فَهِمه: أنه سيقابل الآن والده، وبعدها سيذهب إلى مكان ما بعيد.

أخذت لويز السماعات من فلور، ثم مدّت يدها إلى الطفل ليعيد إليها دفترها الذي كان يرسم فيه.

«لنرَ.» نظرت لويز إلى ما رسمه الولد. من الواضح أنه يقصد رسم شخص، رجل ربما، لأنه لم يرسم شعرًا أو تنورة. مع ذلك لم يرسم له عينين ولا أنف ولا فم، وجهه مجرد دائرة خالية. ابتسمتْ لويز للولد تحاول الوصول إلى معنى الرسم وخمّنت بصوت عال: «أهذا ماعز؟» تقصد إغاظته.

ضحك الولد ووارى فمه بيده، ثم أجابها: «لا».

«بقرة؟»

«لا».

غامرتْ بالسؤال: «أنا؟»

مكتبة ياسمين

قال الولد: «إنه بابا».

اقترحت عليه لويز: «أكتب «بابا» إذن».

كتب الولد كلمة بابا، بحروف ضئيلة وبعيدة عن بعضها البعض. أخذت لويز الدفتر، نزعت منه الورقة المرسوم عليها، وأعادتها إلى الولد ومعها مصاصة كبيرة بنكهة العنب بدا أنها ظهرت في يدها بشكل سحري.

ثم استدارتْ إلى فلور وقالت: «يجب أن يرى أبو الولد هذا الرسم».

يجلس ماكس الأب على الدكة الخشبية في شرفته الأمامية مع جاسمين، وجرس هاتفه الجوال لا يتوقف عن الرنين.

ظل يسمع تلك الجملة من كل متصل: «لن تصدق من الذي في برنامج أخبرني».

لكنه رفض تشغيل المذياع. لم يرغب في الاستماع. إلى جانب ذلك، لم يهتم قَط بذاك البرنامج المغرق في العاطفية، حتى حين كان على وفاق مع لويز. شغلت خادمة المنزل المجاور مذياعها على أعلى صوت ممكن، كيدًا فيه - أو لإهانته - ليسمعه الحيّ بكامله.

كان من الصعب التظاهر أمام الشابة الجميلة التي تجلس أمامه أن البرنامج ليس بشأنهما، إذ كان اسمه واسم ابنه يترددان كثيرًا. لم تقل الشابة شيئًا من باب التعاطف، تبعته إلى المنزل ليريها رفوف كتبه واللوحات التجريدية على جدران غرفة معيشته، ثم حديقة الزهور وحمام السباحة، ومقصورة الحديقة (التي أدرك حانقًا أنها تُذكر للتو في البرنامج). على الأقل لم تكن الطبّاخة والبستاني لديه يستمعان، فكر. أم ربما كانا مثله، يسمعان المقاطع المثيرة من مذياع المنزل المجاور.

بدتْ صديقة ابنه لا مبالية على نحو غريب. أدرك أنها تعرف كل شيء

t.me/yasmeenbook

بالفعل. وإلا كيف لا يبدو عليها أي سخط أو غضب؟

شابة مميزة بوجه يشبه القناع الإفريقي، بجبين عالٍ ووجنتين عاليتين، وقرطين من حلقتين كبيرتين، وزرين ذهبيين على كل من جانبي خديها. من الواضح أنها إحدى تلك الشابات الحديثات، من النوع الذي لم يتخيل أن يرحب به بذراعين مفتوحتين لتنضم إلى عائلته، بزريّ خدّيها وقميصها الهيبّي وكلمة «بوب» موشومة بالحبر الأحمر على معصميها من الداخل.

قادها إلى المطبخ حيث اقتسما نصف دورق من عصير الليمون في كوبين. فكر بدهشة في أنها، بخلاف النسوة اللائي يعدن من الخارج، نحيلة ولا تفوح منها رائحة مبيد حشرات. سألها لماذا لم تأتِ إلى الحفل الليلة الماضية، فقالت إن سيارة ابن خالتها قد تعطّلت ولم تستطع إيجاد وسيلة مواصلات في الوقت المناسب. فسألها لماذا لم تتصل بابنه؟ قالت إن هاتفها لم يكن يعمل. فسألها ألم تستطِع استعارة هاتف أحدهم؟ فاعترفت له أنها فكرت أنه سيكون من الأفضل لابنه أن يقابل الجميع لأول مرة وحده.

لم يعرف لماذا يهمه توضيحاتها بهذا القدر، لكنها تهمه بالفعل. عرض عليها باتيه بسمك القد من بقايا الحفل، لكنها رفضت. لم يجد الطباخة في أي مكان، وكان يخشى أن يناديها. لن يستطيع تقبل الشفقة أو المزيد من الإهانة من خدمه.

قرر أنه لن يبقى في المنزل مختبئًا. سيكون عليه مواجهة كل هذا برأس مرفوع في النهاية. في المدرسة، وفي أماكن عديدة في البلدة. تبعته الشابة إلى الشرفة مجددًا. إن أراد جميع من في البلدة التظاهر أمام بوابة منزله المفتوحة وإدانته، فليفعلوا. لقد فعل هو وزوجته السابقة ما قد يفعله معظم الآباء. حاولا حماية ابنهما. ولولا تمويلهما ما صار صالون تجميل، حاولا حماية طفل فلور أيضًا بأفضل وسيلة ممكنة. أكان عليهما أن يُكرها ابنهما على الزواج

مكتبة ياسمين

منها؟ أكان عليها أن يرسلا بفلور إلى ميامي مع ابنهما؟ من الواضح أن ما حدث في تلك الغرفة تلك الليلة شيء آخر غير الحب. وربما لم تكن الليلة الوحيدة التي حدث فيها هذا أيضًا. لكن ماذا تفعل حين يرتكب ابنك الضال، خطأً فادحًا، بحماقة بعيدة تمامًا عن كينونته الحقيقية؟ أتستدعي الشرطة لتأتي وتلقي القبض عليه؟ أترسل خلفه بمسيرة في الشوارع أو تفضحه في الإذاعة؟ طفلك. هذا الولد. هذا الرجل، مَن كان ذات مرة طفلًا بريئًا ومطيعًا. كذلك الطفل الذي أنجبه بالعنف. لذلك فإن أرادت فلور الاحتفاظ بالولد لنفسها، فلتفعل. قد تكون فرصتها أفضل في جعله رجلًا محترمًا. ليُحالفها الحظ. يتمنى أن تفلح في هذا. دعها تحاول تربية ولد وجعله رجلًا. دعها تعلمه كيف يربط حذاءه وكيف يصافح بشكل لائق. دعها تعلمه كيف يسبح وكيف يُطيّر طائرة ورقية. دعها تعلمه كيف يشحذ نصلًا، أو يحلق، أو أي شيء آخر، كيف يدافع عن نفسه إن هاجمه أحد. دعها تعلمه القراءة والكتابة وتحكي له شتى أنواع القصص، بمعناها الحقيقي الذي قد لا يفهمه أبدًا. دعها تشعر بالفخر به ثم بالعار منه، ثم بالفخر به مجددًا. دعها تشتاق إليه حين يبتعد عنها وتستاء منه حين يحضر. دعها تتمنى لو كان ابنًا من نوع آخر ولو كانت هي أمًا من نوع آخر. دعها ترى كيف هو الأمر أن تحاول حمايته حتى من أسوأ رغباته، ومنعه من إفساد حياته إلى الأبد. دعها تحاول أن تبين له الخطأ من الصواب. دعها تقوده إلى البلوغ بسلامة في مجتمع يبحث دائمًا عن ضحية تالية يمزقها إربًا. دعها تعلمه القيم والمبادئ، كيف على المرء حفظها واحترامها وبذل كل نفيس في الدفاع عنها. دعها تتعلم هي يومًا ما كيف تسامحه، وفي النهاية كيف تسامح نفسها.

بالطبع حاولت والدة فلور فعل الأفضل من أجل ابنتها. لا بد أنها شعرت بالاطمئنان عليها حين عادت إلى منزله. تفصيلة معينة في قصة فلور هي

t.me/yasmeenbook

ما جرحته أكثر من أي شيء آخر. في الصباح التالي للعاصفة، كان قد التقط كشاف الضوء المبلل خاصة ابنه من أمام باب فلور من الخارج وأعاده إليه.

قال ابنه: «لقد نسيته هناك»، ولم يزِد هو شيئًا.

كذلك رأى فلور وهي تغادر المنزل فيما كان هو وابنه في الحديقة.

لم يكن على دراية بأي تفاصيل أخرى حتى الآن، وهو يسمع فلور تخبر العالم بما حدث عبر المذياع. أسِفَ لأنه لم يسمع تلك الليلة سوى أصوات العاصفة. ففي النهاية هو والد ماكس الابن وليس والدها. إن كان عليه أن يختار بين أحد ما وابنه، سيكون ابنه أولًا ودائمًا.

الحديث عن هذا الأمر بطريقة لويز أفضل من طرق أخرى. وحتى هذا العار أفضل من مشاعر أسوأ. إن معاشرة الخادمة ليست أمرا نادرًا في طقوس العبور لدى الشباب في بيوت كبيته. «حق السيّد»، كما كان والده نفسه يقول. مع أن ماكس الأب نفسه لم يجرب الأمر. لكن ألا تتوقع الفتاة هذا؟ بدا زيف منطقه واضحًا الآن بعد فضحه. أيمكنه الذهاب إلى برنامج لويز الأسبوع التالي واستخدام هذا العُذر القبيح لتبرئة ابنه؟

ما زالت جاسمين صامتة احترامًا، تراقب معه أشجار الكالاباش في الشارع في انتظار وصول ابنه في السيارة التي أعاره إياها ليوصل فلور والولد. متى سجّلت فلور تلك الساعة الوحشية؟ تساءل ماكس الأب. لكنه حوّل انتباهه الآن إلى ابنه. ابنه، الطالب النجيب، الذي يقبع الآن خائفًا في سيارته، يختبئ منه ومن تلك الفتاة. ابنه الذي كان يعشق القصص وهو صغير. بسرعة، أراد أن يتذكر قصة ليحكيها له الآن، قصة عن الأخطاء الجسيمة التي يرتكبها الآباء والأبناء. كانت جاسمين تنظر إلى السيارة، إلى ابنه، تتراقص عيناها بينه وبين وجه ماكس الأب. يراها الآن بوضوح تام، في

مكتبة ياسمين

تقاسيم وجهها الأسمر حفيد مستحيل آخر له. حتى مع قضائه حياته كلها مع الأطفال في مدرسته، ماذا يعرف هو عن شباب هذه الأيام؟ كان قد رأى في المدرسة وأماكن أخرى في البلدة، العديد منهم بدءًا من مرحلة الرضع وروضة الأطفال، إلى سن قريبة من سن ابنه. أكثرهم ليسوا واعدين. قد يقع اللوم في هذا، كما كانت زوجته السابقة تزعم دائمًا، على البلدة نفسها، نقص الفرص فيها، هرمياتها الاجتماعية المتجمدة. لكن ابنه، مع كل الفرص المتاحة له وكل علاقاته، لم يكن أفضل منهم.

ثمة شيء ما مأساوي في جيل ارتفعت آماله وخابت مرارًا وتكرارًا. أحلت بهم لعنة الخيبة؟ جيل قطع له قادته وكباره - من بينهم هو نفسه - وعودًا كثيرة جدًا لحد أنهم، لأي سبب من الأسباب، لم يسعهم الوفاء بها. قُتِل المثاليون لتحل محلهم العصابات، باتت الحياة رخيصة لحد أن يُمكنك منح أحدهم دولارات قليلة لوضع حدٍ لها. تساءل متى دخلوا ما كان يدعوه رامبو، في زمانه، عصر القتلة؟ ربما كان جيله هو المشكلة. بنى جيله مجتمعًا لا فائدة منه لأبنائهم. مع ذلك، يبدو أن الأبناء أنفسهم تنقصهم الإرادة ليضحوا ويبنوا مجتمعهم بأنفسهم. كان يريد أن يحاول تصحيح هذا الأمر على الأقل. كان ينوي تسليم المدرسة إلى ابنه، إلى الجيل التالي، ليرى إن كان بإمكانه - بإمكانهم - تحقيق ما هو أفضل. لكنه الآن قد لا يستطيع ذلك أبدًا.

اندهش حين لم تتحرك جاسمين نحو ابنه. كان ابنه، بدوره، ينظر إلى الطريق، ثم ينظر إليهما. ربما كان يشغل مذياع السيارة ويستمع هو الآخر إلى البرنامج، أو سمع مقاطع من الشارع. وربما لا يدري شيئًا عن البرنامج من الأساس. أن تكون محل النقاش فيما يُدعى برنامج لويز بمثابة وصمة عار. حتى وإن كانت مؤقتة أحيانًا. تظل فريسة الغمغمات والهمسات، لكن حتى الأسبوع التالي فقط، حين يأتي دور أحد غيرك.

t.me/yasmeenbook

أراد ماكس الأب أن يندفع نحو ابنه ليوضح له هذا، ليُطمئنه، لكنه تمنّى أن تتحرك جاسمين قبله. لكنها لم تتحرك. أجمّدتها الصدمة؟ لا يعرف، لكنه رأى في وجه ابنه أنه ليس لديه خيار آخر سوى أن يقود مبتعدًا مرة أخرى.

إلى أين سيذهب سوى الشاطئ؟ مكاناه المفضّلان في البلدة الشاطئ والفنار. مَن على الشاطئ الآن مُثقلون بمشاكل أهم، والأرجح أنهم لا يستمعون إلى البرنامج.

تسأله الفتاة الآن: «ألن نلحق به؟» سؤال بسيط قد يطرحه من لا يفهم جيدًا أن لا شيء بسيط في الموقف.

أجابها: «نعم، يمكننا اللحاق به، لكنني أظن أنه لو كان يريد الوجود معنا لكان قد بقي».

سألته: «ماذا نفعل إذن؟» يحدق كلاهما في البوابة الأمامية، في أشجار الكالاباش على الطريق، بأفرعها الساكنة في الحر.

قال ماكس الأب: «ننتظر». عادته الدائمة مع ابنه، أن ينتظر: ينتظر عودته إلى رشده، أن يفهم واجباته؛ أن يتحمل مسؤولياته، ينتظر عودته إلى البيت.

سألت الفتاة: «أتظن أنه سيعود؟»

قال ماكس الأب بيقين تام: «سوف يعود، دائمًا ما يعود». هزت الفتاة وجهها بزريه الذهبيين وعقدت حاجبيها مبدية الآن انزعاجها. أخرجتْ هاتفها من حقيبتها واتصلتْ برقم. افترض ماكس الأب أنها تتصل بابنه. لكن ألم تخبره لتوها أن هاتفها لا يعمل؟ أراد أن يُذكّرها بهذا لكنه لم يقل شيئًا. رفعتْ الهاتف إلى أذنها لبرهة وحين لم يُجبها أحد ألقتْ به في حقيبتها. جلست تنظر إلى البوابة الأمامية والطريق، تميل إلى الأمام لترى كل من يمر بشكل أفضل. ظلت تجلس هناك بجانبه لوقت طويل بعد انتهاء البرنامج

مكتبة ياسمين

وبدء البرنامج الموسيقي للمحطة، وبعد أن أخفضتْ خادمة المنزل المجاور صوت مذياعها أخيرًا.

قال ماكس الأب: «لن نظل جالسين هنا»، ثم أدرك سخف هذا، لأنهما ظلا بالفعل جالسين هناك.

أردف: «سأجد فلور وبامكسيم مرة أخرى، وسأذهب إلى محطة الإذاعة بنفسي وأُندد بلويز على الهواء مباشرة». أدرك الآن أنه يغمغم. «لا شيء سيتغير، لا في المدرسة، ولا بخصوص ابني. سينسى الجميع كل هذا». لكن ماذا عن بامكسيم؟ تساءل. ماذا سيحل ببامكسيم؟

قالت الفتاة: «جيد. أوكي».

فكر في كلماتها القليلة، بلكنتها الإنجليزية الثقيلة، كلمات تافهة يرددها المرء وهو يشعر بالعكس. كان شابًا ذات مرة ولربما قال شيئًا ما كهذا، لكن ليس لوالد أحد أصدقائه أبدًا. لكن هذه الفتاة تقولها له الآن، لأنها تعدّ نفسها بطريقة ما على قدم المساواة معه. حتى إنها ربما تعدّ نفسها أكثر حكمة منه. تدل لا مبالاتها الواضحة بالأمر، وصداقتها بابنه - أو هكذا قد تظن هي - عن تمتعها بامتياز ما فوق أي شخص آخر، حتى فوقه هو شخصيًا.

في تلك اللحظة، لحسن الحظ، دخل صديقه ألبرت من البوابة الأمامية وسار في الممر نحوهما. نهضت جاسمين كأنها ظنت ابنه يعود، أو ربما كانت ممتنة لمجيء شخص آخر فقط.

صاح ماكس الأب على صديقه: «أنا لست ميتًا، أليس كذلك؟»

ضحك ألبرت، ثم أسرع خطوه، نقل قبعته من يد إلى أخرى حين وصل إليهما. أحنى رأسه نحو جاسمين وهو يربت بقبعته على وركه. نظرت جاسمين إليه وحيّته بإيماءة من رأسها. ثم، وكأنها لم تعد تطيق الاحتمال

t.me/yasmeenbook

لأكثر من هذا، أخرجت من حقيبتها سيجارة وقداحة. سارتْ إلى حافة الشرفة، جلست على الدرابزين وأشعلتها. انتظر ماكس الأب بفضول ليرى إن كان الدخان سينبعث من فتحتي قرطيها الذهبيين في وجهها. (لكن هذا لم يحدث). كان مرعوبًا أيضًا من أن يراها تنفض رماد سيجارتها، ثم تلقي بعقبها، على أزهار البنفسج الأفريقي المحيطة بالشرفة، التي ذبل بعضها بالفعل بسبب الحر الشديد. كان قد زرعها حول الشرفة الأمامية في الأركان حيث لا يوجد الكثير من الضوء ولا الكثير من الظل. وتأكد جيدًا من النسب الصحيحة من البيرلايت والتربة، والآن تستخدم زهوره منفضة للسجائر. أراد أن يصيح فيها أن تبتعد عن الزهور، لكنها، قبل أن يقول أي شيء، تحركت لتعود إليه هو وصديقه. سارتْ تحرّك ذراعيها مع كل خطوة كأنها تسبح بظهرها بوضع مستقيم.

راقبها ألبرت أيضًا، بعد أن جلس مكانها على الدكة الخشبية، تاركًا لها الاختيار ما بين أن تحشر نفسها بجوارهما أو أن تظل واقفة. فاختارت أن تظل واقفة.

لولا وجودها لدخل ماكس الأب إلى المنزل ليجلب الدومينو ومائدة لعب الورق، ولظل هو وألبرت يثرثران عن أي شيء وهما يلعبان طوال الليل. لكنها كانت تقف هناك تنظر إليهما، ولم يكن بوسعهما تجاهلها.

لاحظ أن صديقه يبذل جهدًا ليمنع نفسه من النظر إلى وجهها من حين لآخر. كان ألبرت، بسبب عمله كمتعهد دفن، مفتونًا بشكل غريزي بالتعديلات الجسدية، البتر والتجميل على حد سواء، وخاصة العلامات النادرة أو الثقوب. الأرجح أن صديقه لم يرَ في حياته زرين كاللذين في خدّي الفتاة. ماذا يسمونها، تساءل ماكس الأب ، أقراط؟ لكنها لا توضع في الأذن، أقراط الخدين؟ كان متأكدًا من أن صديقه الآن يتخيل ابنه وابنته

مكتبة ياسمين

المقيمين في الولايات المتحدة بأقراط الخدود تلك، أو بما هو أسوأ.

سأل صديقه ليحوِّل انتباهه عن الشابة جزئيًا: «هل أنت هنا بسبب ذاك البرنامج؟»

«ألا يجوز لي المجيء سوى في الحفلات فقط؟»

«بل يمكنك المجيء في المآسي أيضًا».

قال ألبرت: «لن أمكث طويلًا»، وعيناه تعودان إلى جاسمين التي لفّت ذراعها حول أحد عواميد الشرفة وهي تنظر إلى الأشجار على الطريق.

تخيل ماكس الأب كيف سيوبخه صديقه في لعبة الدومينو التالية لأنه يتخذ فتاة كهذه - مميزة، ونحيلة كراقصة، ولديها ثقوب، ووشوم - كزوجة لابنه.

سأل ماكس الأب صديقه: «أين زوجتك؟»

«لقد غادرتْ بالفعل».

فكّر في مدى حزن صديقه لأن زوجته وطفليه لم يأتوا حتى لحضور حفل تنصيبه كعمدة، لأن التوءمين كانا يشاركان في بطولة سباحة ما. شعر بامتنان لأنه مُطلّق. كيف لا يفهم البعض أبدًا قدرتهم على كسر القلوب؟

عادت جاسمين إلى الطرف الآخر من الشرفة وحدقت في أزهار البنفسج الأفريقي نفسها التي بلا شك أحرقتها بسيجارتها.

صاحتْ تسأل: «ما نوع تلك الأزهار؟»

أجابها: «بنفسج».

«هل ينمو هنا؟»

t.me/yasmeenbook

أراد أن يقول: إنها تنمو، أليس كذلك؟ أو على الأقل كانت تحاول ذلك قبل سيجارتك. لكنه قال بدلًا من هذا: «يمكن لأي شيء أن ينمو هنا».

حينها تمنى لو لم يأتِ صديقه مبكرًا هكذا، لو كان هو والفتاة يتحدثان بهذه الطريقة عن الأشياء وحدَهما، عن كون ابنه بخير وعن أزهار البنفسج. وحينها أدرك أيضًا أنه لم يعرّف الفتاة بصديقه بشكل لائق.

قال: «ألبرت، هذه جاسمين، أتذكر، كنا في انتظارها ليلة أمس. جاسمين، هذا ألبرت فنسنت، صديق قديم».

قال ألبرت: «قديم في صداقتي بماكس فقط».

«نعم». تبتسم الآن بالفعل.

سأل ألبرت: «وأين جونيور الآن؟»

رفع ماكس الأب كتفيه وقال: «الأرجح أنه على الشاطئ»، ثم أردف، «أو في الفنار».

نصح ألبرت: «دعه وشأنه، سيعود حين يهدأ. فقط دعه وشأنه».

قال ماكس الأب: «هذا ما كنت أقوله لجاسمين الآن».

حين بدأ الظلام يخيم بالفعل تمنى ماكس الأب عودة ابنه بشدة. وإلا سيعود إليه تقرير أين ستبيت الفتاة الليلة. كانت قد وصلت إلى منزله في شاحنة استقلتها بمساعدة أحد أقاربها من العاصمة، وكان السائق كريمًا بما يكفي ليتوقف بها أمام بوابة منزله، لكنها لا تعرف تحديدًا كيف تعود إلى بورت أو برانس، على الأقل ليس الليلة.

قال ماكس الأب لألبرت: «ظني أنكَ سمِعت البرنامج»، عيناه على المارة القليلين في الطريق، ينظرون، كما يظن، إلى منزله باهتمام جديد.

مكتبة ياسمين

قال ألبرت وهو يسند رأسه على الجدار خلفه: «جزءًا منه، سمعته بعد أن قابلت أمًا تلقّى ابنها الشاب طعنة منجل في أحشائه أثناء نزاع على أرض ما، لذلك كان لديَّ منظور ما».

رفعت جاسمين أحد حاجبيها، بدت مهتمة بشكل يعد إطراءً لصديقه.

قالت: «أنت العم ألبرت، أخبرني ماكسيم عنك».

قال ألبرت: «حقًا؟ ظننته نسينا كلنا».

قالت الفتاة: «يبدو أن لا أحد هنا قد نسيه مع ذلك».

سأل ماكس الأب: «هل أرادنا أن ننساه؟» وشعر بالعار لسماعه نبرة البؤس في صوته.

قال ألبرت كأنه يلقي محاضرة على صديقه: «بالطبع، كما تُذكّرنا لويز دائمًا، ثمة أمور لا ينبغي أن ننساها أبدًا».

صاح ماكس الأب: «لويز الخبيثة، عليها اللعنة!» سمح لنفسه أخيرًا بإطلاق غضبه بكامل قوته: غضبه من نفسه، ومن ابنه، ومن فلور، وبشكل خاص من لويز جورج.

انكمشت جاسمين متراجعة قليلًا، احتضنت عامود الشرفة أكثر، كأنها تفسح لغضبه المجال. أحس ماكس وهو ينظر إلى وجهها، بجبينها العالي، ووشمها، وخدّيها المثقوبين، أن ثمة قصة أعمق هنا، قصة ما قد لا يعرفها أبدًا. لم يقل ألبرت شيئا، ترك صديقه ليهدأ. وضع قبعته على حجره، وسمح ليديه بالارتعاش بحرية على مرأى من الشابة.

ساد الظلام تمامًا الآن، ظلام شديد لحد أن المارة في شارع ماكس الأب لن يروا سوى أضواء نوافذ منازل قليلة فقط. أزعج الصمت بين ثلاثتهم

t.me/yasmeenbook

ماكس الأب بشدة لحد أن لم يخجل، كما كان يجب، من أن يسأل الفتاة: «هل أنتِ وابني في علاقة؟» سألها: «علاقة حب؟»

شعر ما أن عبرت الكلمات شفتيه كم يبدو السؤال توسُّلًا أكثر منه سؤالًا. كان ما يقوله حقًا أرجوكِ أرجوكِ أحبي ابني. ولمرة واحدة شعر بالامتنان لألبرت لأنه منع نفسه ولم يقفز ويسأل بمرح: «من، أنا؟ هل أنا في علاقة حب مع ابنك؟» بل كانت الفتاة وليس ألبرت هي من سألت: «أنا؟» فقال ماكس الأب: «لسنا لا في الراديو ولا في التلفاز لذلك فسأومئ برأسي وأقول نعم».

أومأ ماكس الأب وقطبت جاسمين حاجبيها لسخريته من البرنامج ومن فلور.

قالت وهي تتابع بعينيها يراعات تضيء أعلاهم ثم تختفي خلفهم: «إن ابنك صديقي، إنه صديقي الأفظع والأشد نقصًا والأعز».

وجد الوصف دقيقًا للغاية، أدق كثيرًا مما كان سيقوله هو نفسه.

واصلتْ جاسمين: «وقد وقعتُ في حبه ما إن قابلته ولم أكن أعرف عنه شيئًا».

قاطَعها بسؤاله: «وهو؟ هل وقع في حبك؟»

سألته بجرأة: «ماذا تظن؟»

تدخل ألبرت: «من الواضح أن تفكيره مشوش الآن، لهذا يسألك».

قالت وهي ترفع يديها كأنها تريد الإمساك باليراعات: «مع روعتي هذه، لكنه لا يمكنه أن يحبني».

سأل ماكس الأب: «كيف هذا؟»

مكتبة ياسمين

قالت له الفتاة بالصراحة التي قالت بها كل شيء آخر: «ظننتك تعرف بالفعل، لقد أحب ابنك مرة واحدة فقط في حياته، وقد مات هذا الحب».

رقد ماكس الابن على ظهره، تحت النخيل الذي بدا أنه يميل ليلمس البحر. شبك يديه تحت رأسه يحدق للأعلى في السحب الداكنة التي تحجب القمر تارة وتكشف عنه تارة. لا شك أن الجميع الآن يحتقرونه، ولديهم مبرر جيد. فلور بالطبع.

تذكّر تلك العاصفة التي بدا أنها ستذر العالم كله حطامًا. تذكر ذراعي فلور المرتخيتين. أراد تلك الليلة بحماقته أن يثبت لأبيه شيئًا ما، أن بإمكانه أن يكون مع فلور. أراد أن يسمع أبوه صراخها.

حتى هذا اليوم، لم يكن مع رجل سوى برنارد. كان هو وبرنارد يأتيان إلى الشاطئ في ليال كهذه وينزعان قميصيهما، ثم ينطلقان إلى البحر. في البدء كان برنارد يخشى البحر. كان سباحًا قويًا، لكنه يقلق دائمًا من أن يسحبه تيار ما بعيدًا. من أن يختفي إلى الأبد.

الآن، وهو يسير بملابسه كاملة نحو الماء، يتذكر قصة قديمة، حكاها له أبوه وهو صغير.

ذات يوم دخل ولد إلى الغابة يُغويه صوت موسيقى. وكلما كان الولد يوغل في السير في الغابة، كانت الغابة تزداد كثافة، والموسيقى تزداد عذوبة. ظل الولد يتتبع صوت الموسيقى حتى ضل طريقه ولم يعد يعرف أين هو. خاف بشدة وأراد أن يعود إلى بيته، لكنه يريد تتبع صوت الموسيقى أيضًا ليرى من أين يأتي. توغل بشدة في الغابة حتى لم يعد بإمكانه السير فيها بعد ذلك، ثم بدأ يبكي ويصيح النجدة. حينها ظهرت له روح وصنعت له ممرًا. كان الممر يؤدي إلى البحر، حيث تتوقف الموسيقى فجأة. شعر الولد بالإرهاق الشديد فرقد على الأرض وسقط في النوم. حين استيقظ وجد نفسه

t.me/yasmeenbook

في البيت، آمنًا تمامًا في فراشه، رأسه يعجّ بالموسيقى وعرائس البحر والقصور البللورية المشيّدة في أعماق البحر. أنقذت روح الغابة الولد، قال أبوه، لأنها أرادته أن يظل بريئًا وصالحًا، لذلك وضعت أحلامًا بريئة وصالحة في رأسه. ولأنه بريء وصالح ستظل الروح ترعاه إلى الأبد.

خاض في الماء الآن، يشعر بالأمواج الباردة تعلو وتهبط حوله والماء ينفخ قميصه الأحمر كبالون، القميص الذي أهدته إياه جاسمين بمناسبة عودته إلى الديار. في البحر، فكر في الموسيقى، موسيقى الراب التي كان يذيعها في برنامجه، كان برنارد يحبها. فكر أيضًا في الزهور والطيور. بيوت الطيور التي بناها هو وأبوه معًا، بعد ساعات من الدراسة وتمرينات الجودو، حين كان فتى. الريش الداكن لبعض طيور النوء[1] والنوارس المنذرة بالعواصف. فكّر في الحمام، الحيّ والمذبوح، في حكايات برنارد. زهور الأوركيد والورود في حديقة أبيه، واليعاسيب التي تأز حولها بعد المطر الثقيل واليراعات التي تعلوها ليلًا. فكر كيف غرقت الزهور ليلة العاصفة لكنها مع ذلك ظل بها من الرحيق ما يكفي لجذب طائر الطنّان في الصباح التالي. فكر في الياسمين الأصفر، زهور والدته المفضلة، كانت تربط باقة منها على جرس درّاجتها، ثم يقود الاثنان معًا جنبًا إلى جنب في البلدة. كانا يقودان حتى مصنع الكليرين، تستنشق أمه الهواء ليدور رأسها من رائحة الخمر الخام. فكر في دروس التاريخ التي ذكرتها له أمه عن حطام قلعة بولين. تذكر كلماتها وهما وسط تلك الحطام قبل وقت قصير من رحيلها. أنتَ من تحب، قالت له. عليك دائمًا محاولة إصلاح ما أفسدته. لكن تذكر أن الحب مثل الكيروسين. الكثير منه يُزيد الاحتراق به.

---

(1) فصيلة طيور بحرية تتكون من 20 نوع، يوجد أغلبها في الشمال وبعضها حول خط الاستواء والمنطقة الجنوبية. (المترجمة).

مكتبة ياسمين

يحب تشبيهات أمه المباشرة. أحب أيضًا طريقتها في شرح السبب وراء الموجات الضخمة، قالت : إن سيرين تعلن عن حضورها بموجة بارتفاع عدة أقدام كلما اشتاقت إلى صحبة إنسان.

ذات ليلة منذ عشر سنوات، بعد أن عرف أن فلور حامل، كان يجلس وحيدًا في شرفة فنار الأنثيري القديم حين ظن أنه رأى نجمًا ينفجر أعلى البحر. كان الانفجار هائلًا لحد أمكنه معه تحديد حوافه غير المنتظمة وبؤرة الانبعاث، حتى بعد أن أغمض عينيه. ظنّ حينها أيضًا أنه يرى البحر يتحول إلى مدخنة ضخمة، كأن إحدى دوّامات عرض المحيط قد اقتربت من الشاطئ، ثم انسحبت بهدوء - إعصار مرتد - وتحوّل الموج إلى جبال مائية. نهض، ضغط أضلعه في درابزين الفنار حتى رأى ما ظن أنه جزء من قاع البحر، أخدود بحجم الجبل، بشعب مرجانية وضفاف رملية تمتد عارية لأميال. ثم، وبالسرعة نفسها، انهار الموج وغمر الماء قاع المحيط فورًا، كأن شيئًا لم يكن.

تساءل حينها ما إن كان تحت تأثير الصدمة، أم مرهقًا بشدة، أو يهذي. لكنه أدرك الآن أنه لم يكن يحلم، ولم يكن يتخيل، وأن كل هذا قد حدث بالفعل.

أدرك أيضًا أنه يتذكر كل هذا ليتجنب التفكير في ابنه. ذابت الورقة المرسوم عليها الوجه الدائري الخالي وتحللت في جيب بنطاله. الرسم الذي رسمه ابنه، الذي قابله لتوه، ابنه، الذي قد لا يراه مرة أخرى أبدًا. أسيعني لقاؤهما اليوم أي شيء بالنسبة لابنه؟ كم سيستغرق الولد لينساه؟ أسيكبر وهو يدعو رجلًا آخر «بابا»؟ وإن حدث، أسيظل ثمة بعض تردد، ذرة من الشك في مؤخرة ذهنه، شيء ما قد يمنح صوته رنينًا زائفًا؟ أسوأ حالة حب من طرف واحد يمكن تخيُّلها، كما قالت جاسمين، أن يهجرك أحد والداك.

t.me/yasmeenbook

أثاني أسوأ حالة أن تشعر بالرفض من طفلك؟ يعرف قليلًا عن الحب من طرف واحد، الحب غير المتبادل. ظل حتى قابل ابنه يرى أن أي حب آخر بمثابة نسخة شبحية، ظِلٌ للحب الذي شعر به ذات مرة.

يقولون إن البحر لا يخفي قذارات. لا يحفظ أسرارًا. إنه عدو وحبيب، المخادع الأكبر. كبير بقدر ما هو صغير، يعتمد هذا على ما تناله منه. قد تُلقي فيه برمادٍ أو بزهور. قد تأخذ منه بقدر ما تشاء. لكنه قد يأخذ منك أيضًا. قد تمارس فيه الحب، وقد تستسلم فيه فقط، وللعجب، الاستسلام فيه يُشبه الاستسلام على اليابسة كثيرًا، فقط خذ نفسًا عميقًا وأطلقه بهدوء. وقد ترقد فيه على ظهرك فحسب كما قد ترقد في الغابة وتسقط في النوم ببساطة.

***

كان نوزياس قد أغمض عينيه لدقائق قليلة فقط حين أيقظه صوت غريب في الماء، صوت بكاء. أم كان ضحكًا؟

شعر برعشة برد، ارتجف وهو في طريقه نحو الماء. ما زال عدد قليل من أصدقائه، الصيادون الآخرون الذين تركوا أكواخهم ليكونوا معه في محنته، نائمين، تتكور أجسادهم في أوضاع جنينية حوله على الرمال. يعرف أن آخرين في البلدة أو بالأعلى في الفنار، يبحثون عن ابنته.

أكانت تلك كلير لايميه لانميه التي سمعها لتوه في البحر؟ أهذا ما أوقظه؟ صوت انسياب روحها وانسحابها بعيدًا؟ صوت أنفاسها الأخيرة؟ شعر بشيء مشابه لما شعر به يوم وفاة زوجته. شيء ما يُستعصى شرحه، لكنه في حالة زوجته كان سكونًا مؤقتًا، كأن العالم بأسره سكَتَ تمامًا.

يشعر بهذا الآن، لكن ليس بالقوة نفسها. أتغرق كلير؟ أم يستقر كالِب

مكتبة ياسمين

في قاع البحر؟

حدّق في المياه، امتزجت أعشاب البحر بانعكاس سماء الليل فبدا أن ثمة غبار كوني أعلى سطح البحر. أحاط جسده بذراعيه كأنه يحاول الاحتفاظ بنفسه قطعة واحدة وهو ينتظر سماع صوت الفتاة في خضم الموج.

«بابا، أهذا أنت؟»

في بعض الصباحات، حين يعود من البحر مبكرًا، تسأله كلير بصوت ناعس حين يدخل الكوخ: «بابا، أهذا أنت؟»

فكان يجيبها: «ومن سيكون غيري؟»

الآن، أسرع عائدًا إلى الكوخ، تذكر وهو يهم بالدخول أن مدام جايلي بالداخل. وحين دخل، كان المصباح ما زال مشتعلًا.

لم تتحرك مدام جايلي ولا ثوبها اللامع من على حافة فراشه. كانت تراقب الظلال المتراقصة التي تلقي بها شعلة المصباح على الجدران المكسوة بورق الجرائد حين صاح: «ابنتي، أهذه أنتِ؟»

أخبرته القابلة أن آخر كلمات زوجته قبل موتها كانت لرأس وكتفي كلير الملفوفين. قالت بوهن، «تعالي». لكنها ماتت قبل أن تأتيها كلير.

أغلق الباب وأسند ظهره عليه، لا يعرف ماذا يقول.

سألته مدام جايلي: «هل وجدتها؟»

هز رأسه أن لا.

في اليوم السابق لعيد ميلاد كلير لايميه لانميه السابع ذهب نوزياس إلى صديقه كالِب ليطلب منه صنيعًا خاصًا. كان كالِب أحد الصيادين الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة ممن يمكنهم القراءة والكتابة، لذلك كان

t.me/yasmeenbook

القائم بدور أمين الوثائق وكاتب الخطابات لنوزياس وصيادين آخرين غيره. وواقع أن زوجته صماء وبكماء -كانت هناك دائمًا وهو يكتب الخطابات - يضمن ألا تنتشر محتويات الخطابات عبر طاحونة القيل والقال في البلدة.

ذهب نوزياس إلى كالِب ليجعله ينظر في الوثائق المطلوبة في حال وافقت مدام جايلي على تبنّي كلير. توجد شهادة ميلاد كلير، وشهادتها التعليمية التي تظهر امتيازها في كل شيء، بما في ذلك حسن السلوك. لكنه بعد أن جلس في كوخ كالب، الذي كان ضعف حجم كوخه، قرر في اللحظة الأخيرة أن يُمليه خطابًا إلى كلير.

كان كالب في التاسعة والستين من عمره، أكبر من معظم الصيادين. وعلى النقيض منهم، الذين تبدو أيديهم كأنها قُطّعت شرائح وأعيد تركيبها مرارًا، كانت يدا كالب أنعم وأصغر يدين رآهما نوزياس لرجل مسن. بدت طريقته في كتابة حروف الكلمات التي تخرج من فم نوزياس، سِحرية. ذُهل نوزياس حين أعاد كالب قراءة كلماته عليه. بدت العبارات، على قِلّتها وابتذالها، رقيقة ومنمقة، كأن كالب دخل رأسه وفهم كل شيء.

تراقبه مدام جايلي الآن وهو يسير إلى فراشه ويرفع الوسادة التي يضع عليها رأسه كل يوم. كانا قريبين بما يكفي ليمكنها مد يدها ولمس مؤخرة رأسه الأصلع الناعم. سحب الكيس البلاستيكي الأسود الذي لف فيه أوراق كلير لايميه لانميه وخطابه لها. فتحه بحرص شديد وأخرج منه الخطاب وناوله لها.

ضيّقت مدام جايلي عينيها كأنها تعجز عن رؤية الكلمات بوضوح، ثم مالت لتقترب من المصباح، ضاقت المساحة الفاصلة بينهما أكثر.

بدأت تقرأ بصمت، ثم رفعت صوتها:

كلير لايميه لانميه،

مكتبة ياسمين

أشكر الرب على قدرتي على استخدام صوتي لأُملي هذا الخطاب إليك. كلير، أرجوكِ تذكري تلك الأشياء التي سأخبرك بها. بعيدًا عن كل ما ستسمعينه فيما بعد خلال حياتك، أنا لا أفعل هذا من أجل المال. أنا لم أبيعك. أنا أريد لكِ حياة أفضل. أرجوكِ كوني لطيفة مع المدام وافعلي كل ما تقوله لكِ. استمري على مستواك الجيد في المدرسة وستكونين امرأة ذكية ومهمة. تذكري أيضًا ألا تنامي وأنت راقدة على ظهرك لئلا تأتيكِ أحلام سيئة. ولا تنسي أباك أبدًا لأنني لن أنساكِ أبدًا. هذا كل ما أريد قوله لكِ الآن. شكرا لقراءتك هذا الخطاب.

أبوكِ، نوزياس فوستين

أعادت مدام جايلي طي الخطاب ثم أعادت الخطاب في الكيس. ضغطتْ بشفتيها على ظهر عنقه وتركتهما تتلكآن هناك في قُبلة.

لم يتلقَّ قبلة كهذه منذ وفاة زوجته، قبلة نقية للغاية لحد بدا أنها تُصقله. شعر بجسده يتحول إلى ذهب. يسري فيه تيار ضوء، وحين مد يده ليلمس وجهها، شعر بجسديهما يتمددان إلى ما يتجاوز حجم غرفته.

«ماذا سنفعل حين تعود كلير؟» سألته وهي تبعد شفتيها عن عنقه، وتنسحب مبتعدة عن جانب فراشه، وعنه. مع ذلك فقد قالت *سنفعل*، استخدمت ضمير الجمع، وكان سعيدًا لذلك.

ماذا سنفعل حين تعود كلير؟

كان هذا ما يريده أكثر من أي شيء آخر لابنته: الحنان، الشعور بالأمان، وبالحب أيضًا. الإحسان والعطف بالطبع، لكن بحب في الغالب.

ليس متأكدًا مما سيفعله حين تعود كلير. لا يعرف. ربما سيظل على خطته في التخلي عنها لمدام جايلي. أو قد يؤجل الأمر مجددًا لعام آخر. ثم عام آخر،

t.me/yasmeenbook

ثم آخر. ثم سيرى بنفسه صحة ما يقولونه عن نمو الأطفال بسرعة شديدة بعد السابعة في لمح البصر. وحتى قبل أن تنتبه، تجدهم يعيشون حياتهم. ربما ستكبر كلير بما يكفي لتتركه هي بنفسها. أو قد يحدث له أي سوء قبل هذا. قد يُفقد في البحر مثل كالب، وتتذكر مدام جايلي وعدها الذي قطعته الليلة. أنها قالت : نعم. أنها قالت: سنفعل. أنها وافقت على تبنّي كلير. لكن يجب أولًا أن تعود كلير. وحين تعود، أستعود لتعيش معه؟ أسيقضيان عامًا آخر معًا على الشاطئ؟ هذا ما يظن أن زوجته كانت ستقوله لو كانت في موقفه هذا، التخلي عن طفلتهما: الأفضل أن تبكي الطفلة على أحد والديها الآن من أن تبكي على كل شيء فيما بعد. لكن أكُنّ - زوجته، وابنته، ومدام جايلي - سيفكرن في الأمر على هذا النحو؟

نهضت مدام جايلي وتحركت إلى فراش كلير لتجلس في مواجهته الآن.

قالت: «أريد أن أسألك مرة أخرى، لماذا تريد التخلي عنها. ولي أنا».

قال وهو يكافح ليظل متماسكًا: «لست أول من يتخلى عن طفلته، ولا الوحيد».

قالت: «كنت أراك وأنت تمر بمحلي، في طريقك إليها في دار الجنازات. كنت تحب تلك المرأة، والدتها، بشدة...»

وبتلك الكلمات عالقة في الهواء، نهض نوزياس فجأة وسار إلى خارج الكوخ، يتجنب هذا الجزء من الحوار، يتجنب التفكير في كيف كانت مجرد فكرة التخلي عن طفلتيهما ستدمر زوجته. فيما سيحدث لو فقد كل من كلير زوجته وكلير ابنته إلى الأبد؟ ماذا إن لم يرَ ابنته مرة أخرى أبدًا؟

بعد أن خرج، خيّل لجايلي أنها سمعته يصرخ. أمسكت المصباح وأسرعت إلى الباب، ثم إلى البحر، إلى حافة الماء، حيث كان يقف والموج يضرب قدميه.

مكتبة ياسمين

كان نوزياس فوستين يحب زوجته حقًا. وكانت إحدى طرقه للتعبير عن حبه هذا زياراته لها في دار الجنازات حيث تعمل، حين لا يكون في البحر. ذات ظهيرة حين وصل إلى دار الجنازات، كانت زوجته تغسل الطاولة الإسمنتية التي بعلو الخصر والتي تستخدمها في غسل وإلباس الموتى. طاولة ملتصقة بالأرض وتسع شخصين أو ثلاثة يرقدون عليها مرتاحين. لكنها كانت وحدها تلك الظهيرة.

كان دائمًا ما يجدها مشغولة في تلك الزيارات، تسبح قامتها الصغيرة في معطف عملها البلاستيكي الأصفر بلون الرمال، وأصابعها الطويلة في قفازات تمسح قطرات الماء عن جثمان عارٍ. كان الجثمان أحيانًا لشخص يعرفه وكان يندهش من قدرتها على أن تلمس بتلك الحميمية موتى كانت تتحدث معهم وهم أحياء. أحيانًا، حين يكون الجثمان لشخص مات غرقًا، يكون منتفخًا، ومشوّهًا. فكانت في تلك المواقف تناوله كمامة قماشية ليغطي بها أنفه وفمه، مثل التي ترتديها، وتنسى وجوده هناك. تتحدث مع الموتى بدلًا منه. تقترب بوجهها المكمم من أذنهم، وتحكي لهم كل ما حدث في البلدة منذ أن غرقوا.

أغلب الأحيان يوجد أحد غيره. على أقارب الموتى المساعدة في غسلهم وتحضيرهم. أخبرته من قبل عن شفقتها على الموتى الذين يفضّل أقاربهم عدم المجيء. كانت أحيانًا تضع لهم عطورًا خاصة، تلبسهم جوارب رجالية أو نسائية من اختيارها الخاص، مع أن الموتى لا يرتدون أحذية. لأن الأحذية تُثقل المرء فقط في الحياة الآخرة.

كانت أحيانًا تخيط ملابس للموتى، خاصة الأطفال، الذين يُعد شراء ملابس دفن لهم أمرًا موجعًا للقلب، لكنها حين تقتضي الضرورة، كانت تُعدِّل الملابس التي يجلبها ذووهم، والتي كانت في الغالب إما كبيرة جدًا

t.me/yasmeenbook

أو صغيرة جدًا. أخبرته أيضًا عن العائلات التي تدفن موتاها في أماكن سرية، قبل دفن النعش المغلق المليء بالأسمنت في دار الجنازات، خوفًا من خروج موتاهم من المقابر وتحوّلهم إلى زومبي. كانت تندهش من الصور الفوتوغرافية الكثيرة التي يجلبها ذوو الموتى إلى الجنازة والتي تعود إلى عقود مضت؛ كأن تكون صورة جنازة شخص تجاوز المئة عام مثلًا هي صورة زفافه أو صورته في مناسبة خاصة قبل سن البلوغ.

من حين إلى آخر كان ذوو الموتى يطلبون منها استخراج الأسنان الذهبية من فم الميت، لكنها لم تجرؤ على هذا قط. فكانت تطلب من مسيو ألبرت فعله.

أخبرته عن سعادتها أنها لم تضطر قط إلى السير في الثلاجة لأخذ جثمان من على الرف بنفسها، حتى ولو كان لرضيع يمكنها حمله بسهولة. متى كان عليها غسل وتحضير ميت كانت دائمًا ما تجد جثمانه على الطاولة الإسمنتية في انتظارها.

ذات مرة كان نوزياس معها وهي ترش بعض البودرة على وجه شاب كخطوة نهائية، حين انفتحت عينا الشاب فجأة. تراجع نوزياس إلى الخلف مذعورًا، لكنها حتى لم تجفل.

قالت وهي تواصل عملها ببساطة: «عليَّ فقط أن أطلب من مسيو ألبرت أن يُغمِض العينين مجددًا».

عرف حينذاك، أن إغماض العينين لا يعني وضع الأصابع أعلى الجفنين وجذبها لأسفل، كما رأى بعضهم يفعلون. بل وضع قطعتين من المطاط بحجم عقلة الأصبع أسفل الجفنين، ثم لصقهما بالعينين من الداخل بالصمغ ليظلا مغمضتين.

مكتبة ياسمين

عرف أيضًا أن بعض الموتى يُطلقون ريحًا كالأحياء، لكن رائحته أسوأ. لم يكن من روائح تلك الظهيرة سوى رائحة الليمون القوية للمنظف الذي تغسل به الطاولة الإسمنتية.

تلك الظهيرة، لم تُقبل نحوه لتحييه كعادتها. ظن أن المعطف البلاستيكي الذي ترتديه يُثقلها، أو شيء ما آخر ربما.

سمع من فوقه، ومن حوله، صرير وأصوات تأتي من الأماكن الأخرى في دار الجنازات، الخطوات العالية والمحادثات المكتومة في المكتب بالطابق الأعلى. بجوار الحجرة التي يوجدان فيها، حجرة العرض، حيث تصطف نماذج النعوش بجوار الجدران. وبجوارها حجرة كنيسة صغيرة، مرسوم على نافذتها نسخة محلية من لوحة العشاء الأخير، بوجوه سمراء، رسمها فنان من فيل روز.

خلعتْ زوجته معطف عملها، وتركته يسقط على الأرض. كانت ترتدي من تحته ثوبها المفضل، ثوب بلون أخضر ليموني على شكل جرس خيّطته بنفسها. شعرها مصفف بعناية، ضفائرها مصفوفة كطُرق في خريطة أرض ما غامضة. عقدت يديها على صدرها وأغمضت عينيها، كأنها تنام واقفةً. تساءل إن كان هذا ما تفعله قبل أن يأتي، تستمع بعينيها مغمضتين لكل شيء حولها.

قالت: «لم نعد اثنين فقط. سنصبح ثلاثة»، فتح عينيه على وسعهما. وجهها الطفولي، الساكن عادةً، مشدودًا على نحو يصعب شرحه كأنها تكافح الدموع.

سألها حين سكتت: «كيف تخبرين أحدًا أنكِ حامل في دار جنازات؟» كان سعيدًا جدًا ليمكنه كبح ضحكه، هرع نحوها واحتضنها، ثم تراجع

t.me/yasmeenbook

للخلف خوفًا عليها. ضحكت هي الأخرى حين أحاطها بذراعيه. ثم شعر بحزن قليل، فجعله الحزن الممزوج بفرح شديد، يحتضنها مرة أخرى. كيف للحياة نفسها، بقدر ما تريدها بداخلك، ألا تبدو تافهة للغاية حين ترى الكثير جدا من الموتى؟

كانت قد أخبرته أيضًا عن النساء الحوامل اللائي ألبستهن لدفنهن وأجنّتهن ما زالوا بداخلهن. كيف لم تفكر في هذا تلك الظهيرة؟

قالتْ: «لقد أخبرتُ مسيو ألبرت، أنني لن أعمل في غسل وإلباس الموتى بعد الآن».

اعتاد على الموتى كجزء من حياتها. بعض أصدقائهم وجيرانهم لا يأكلون من الطعام الذي تعده، وحتى إنهم لا يصافحونها، لأنها لمست الكثير جدًا من الجثامين. لكنه كان سعيدًا بالعيش مع كل هذا، إن كان يعني العيش معها. كان أحيانًا يشم فيها رائحة الموتى، ممزوجة بروائح سوائل التحنيط والمطهرات. أحب يديها اللتين تربتان على وجوه الموتى وتربتان على وجهه. وأكل من صنع هاتين اليدين. وقبّلهما. أحب ندوبهما من كثرة الخياطة بدون كشتبان. وخشونة أطراف أصابعها كأنها مِبشرة ضئيلة، وحتى رقيقة. وكان يعرف أن حنانها مع الموتى، وتعاطفها مع الجميع سيجعلها أمًّا جيدة، أمًّا رائعة.

بدا في تلك الظهيرة، في دار الجنازات، أن الحياة تحتضنه، حتى في دار الموت تلك. رفع ثوبها إلى خصرها، مال ووضع أذنه على بطنها، المسطح ما زال، يتسمّع أي أصوات واهنة جديدة.

قالت مازحة: «لقد نبّهت على الطفل ألا يخبرك بشيء».

بعد موتها، سيتذكر جسدها مسجى على فراشهما الذي ظلا ينامان عليه

مكتبة ياسمين

معًا منذ أن انتقلت للعيش معه. ذُهل حين رأى أن بطنها، رغم موتها وخروج الطفلة منه، ما زال مكوّرًا مثل عنق الفرقاط[1].

كانت القابلة قد ألبستها ثوبها الأخضر الليموني نفسه فبدا صغيرًا وضيقًا جدًا على جسدها. ارتاحت يداها الميتتان على صدرها بطريقة ذكرته بوقفتها في دار الجنازات وهي تخبره بحملها. حين وضع أذنه على بطنها في غرفة غسل وتحضير الموتى وظلت تردد: «هذا طفلنا، هذا طفلنا».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(1) طائر الفرقاط من الطيور البحرية كبيرة الحجم له عنق أحمر على شكل جيب ضخم تحت الحلق. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

كلير تحكي

أحيانًا تحلم كلير لايميه لانميه فوستين بيوم وُلِدت. ترى في حلمها، صباحًا رماديًّا، السماء أيضًا بطنها منتفخ بالأمطار. في أحد أركان الغرفة مكنسة سيزال جديدة تمامًا، تستخدمها القابلة، كما جرت العادة في الولادات المنزلية، لتمسح بها بطن أمها العاري لتساعد على «كنسِها» خارجه. وفي الركن الآخر مقعد عليه ملاءة مواليد صفراء مطرزة. يهب النسيم على الملاءة فيجعلها تعلو وتهبط مع تنفس أمها. تتوقف ضربات القلب التي ظلت عالية للغاية فوق رأسها فيما تحرر يدان كتفيها ثم تنزَعانها خارجًا.

تسمع كلير القابلةَ تقول في الحلم: «إنها روح انتقامية، إنها روح انتقامية».

ما يعني بالطبع أن أمها قد توفّيت.

بعد ولادتها تحمِّمها القابلة سريعًا، تغمرها في وعاء فيه ماء دافئ، ثم تغسل أمها بالماء نفسه. في الحلم، والقابلة ترفعها من الوعاء، تلمح كلير والدتَها. نحيلة وطويلة وترقد على فراش أبيها في ثوب أخضر. وجه أمها على أحد جانبيه وتبدو منه قمة عظمة وجنتها. أعلى والدتها وجه أبيها وقد حفر فيه الحزن أخاديده كمقابر مصغّرة.

ثم ترى في الحلم أثداء، أثداء مليئة ومريحة كالوسادات، تتحول قممها من لحم إلى مطاط، ثم ترى قدميها متربتين من السير على الأرض حافية، وأنهار تتحول إلى طين حين تطأ بقدمها فيها، ثم تستيقظ وهي تتمنى أن

مكتبة ياسمين

تظل نائمة إلى الأبد فقط لترى المزيد من تلك الأشياء في أحلامها وتفهمها تمامًا. وقد تفهم أخيرًا لماذا في حياتها الحقيقية عليها أن تستحم في دِلاء بجوار المراحيض خلف الأكواخ بينما الماء في كل مكان، لكنه ماء البحر، وحين تستحم بماء البحر تكسو جلدك طبقة ملح كالرماد والتراب، وحين تضع لسانك على ذراعك ستتذوق ملحًا مثل الذي تتذوقه حين تلعق سرًا سمكة أبيك المبقورة المملّحة، فينزف لسانك من مروره على الخياشيم المملحة، ويحرق الملح الجروح، حتى إنه يبدو بذلك أشهى.

الملح حياة، غالبًا ما تسمع الكبار يقولون ذلك. تلقي زوجات الصيادين بحفنة ملح خشن في الهواء لجلب حسن الحظ، قبل أن يذهب أزواجهن إلى البحر، (بعضهن أيضًا لا يأكلن ولا يتحممن ولا يمشطن شعورهن حتى يعود أزواجهن). حين يأكل الزومبي ملحًا يعود إلى الحياة. أو هكذا تسمع دائمًا. ربما إن أكلت ما يكفي من الملح قد تفهم أخيرًا لماذا لا يدعها أبوها تتجوّل كما تشاء. ستظل دائمًا تحاول، مع ذلك. أحيانًا حين يكون أبوها في البحر، تتجول في السوق المفتوحة وتتظاهر بأنها أحد هؤلاء الأطفال الذين أرسلتهم أمهم لشراء شيء ما. فتمسك بالأشياء في السوق وتتركها ثانيةً، ترفعها، ثم تحطم آمال الباعة، الذين يغمغمون بصوت مكتوم وهي تسير مبتعدة.

من حين إلى آخر يصيح أحد الباعة: «مثل أمها تمامًا!» فتسأل نفسها ماذا أيضًا يُمكنها فعله لتجعلهم يقولون هذا كثيرًا. إلى جانب الموت، هذا معروف.

إلى جانب سماع الباعة يرددون أنها مثل أمها تمامًا، تحب المشي في السوق لمشاهدة خليط الأشياء، ثغاء الماعز وقوقأة الدجاج، فاكهة وخضروات الموسم، التي تفضل منها فاكهة الخبز، لأن الناس يدعونها «أرواح حقيقية».

t.me/yasmeenbook

تحب السير على الشاطئ أيضًا لتلتهم بعينيها الأماكن والفنادق، التي يقولون إن النساء يقضين النهار فيها بصدريات وملابس داخلية فقط فيما يهرع الرجال إلى الغرف خشية أن يراهم أحد. لكن تلك الأماكن ليست للأطفال، هكذا سمعت أباها يقول حين أخبروه أنها تجولت بعيدًا جدًا، واقتربت من أحد تلك الأماكن التي لو دخلت إليها فتاة قد لا تخرج منها كما دخلتها تمامًا. فقد تدخل الفتاة، فيضع أحدهم أصبعه على فمها فتخرج وهي تنزف من بين ساقيها ويناديها الناس بعد ذلك يا مدام، لأنها لم تعد فتاة. إن اقتربتْ من تلك الأماكن، أخبرها أبوها، سيقول الناس عنها من خلف ظهرها أنها مدام رجال كثيرين. كان في المدرسة فتاة حدث لها شيء كهذا. وضع أحدهم أصبعه على فمها فجعلها تنزف من بين ساقيها. تركتْ الفتاة المدرسة بعد ذلك. يتحدث الناس في البلدة عن ابن ناظر المدرسة هكذا أيضًا. يدعونه مدام، مدام من نوع آخر، كما يقولون. يقولون أيضًا إنه "سرق" فتاة طارت بعيدًا. أن يسرقك لص يعني أن يغتصبك. الفتاة التي طارت بعيدًا، لم تعد فتاة، بل امرأة، امرأة أنجبت بعد ذلك طفلًا من ابن الناظر. يشبه هذا القصص التي اعتادت مدام لويز جورج قراءتها لهم في الروضة المدرسية. في قصص مدام لويز كل شيء منظّم بطريقة معينة؛ كل شيء مرتب. تبدأ الأمور على نحو جيد، لكنها تأخذ منحى سيئًا، ثم تعود لتسير على نحو جيد مجددًا. لا تصدق كلير هذه القصص، حتى وهي تعرف أنها مُوجهة إليها، حتى وإن كان القصد منها تمكينها وتعليمها درسًا ما. أحيانًا تكره الناس أيضًا وهي تشعر بهم يتحركون حولها هنا وهناك. أحيانًا تتمنى لو كان الناس، وخاصة الكبار، أشجارًا. ليت الأشجار تستطيع الحركة. مع الأشجار، هي من تتحرك حولها. لكن الأشجار لا تبكي ولا تشكو.

أما الناس فيحبون الشكوى. حتى أبوها، الهادئ جدًا في العادة. يظن الكثيرون أنهم أذكى من الأشجار لأنهم يستطيعون التحدث. لكن الكلام

مكتبة ياسمين

ليس كل شيء. من يهتم إن كنت تستطيع التحدث، أو إن كان بإمكانك أن تنهض وترحل؟ لذلك كانت تعدّ مدام جوزفين أذكى شخص تعرفه.

مدام جوزفين بكماء، لذلك اخترعت لغة جديدة بيديها. لغة أكثر مباشرة من التي يتحدثها الآخرون. يعرف أبوها لغة اليدين تلك، ويساعد الناس على فهم مدام جوزفين. يبدو أبوها ومدام جوزفين كتوءمين، وُلدا في الساعة نفسها في اليوم ذاته. تتساءل ماذا كان سيقول الناس لو كانت هي وأمها ماتتا في اليوم نفسه. لقد ظلتا توءمين لفترة، حين كانت داخل جسد أمها. لكنها لم تحلم قط بأنها داخل جسد أمها، ما عدا تلك اللحظة الأخيرة حين دُفعت للخروج، لحظة تجعلها دائمًا تفكر في الماء.

أحيانًا حين ترقد على ظهرها في البحر، بأصابع قدميها لأعلى، ويديها لأسفل، وأذنيها نصف مغمورتين، تسمع أصوات كل من العالمين، ما فوق سطح الماء وما تحته، تتمنى لو كان الماء الدافئ المالح جسد أمها، والأمواج نبضات قلب أمها، وضوء الشمس هو النفق الذي خرجت منه يوم وفاة أمها. يمكنها وهي في البحر، حتى وهي راقدة على ظهرها، رؤية بيتها على الشاطئ، وأعلاه بيوت تل الأنثيري والفنار وأعلى كل هذا نباتات السرخس الكثيفة على «المون إنيتيل» [الجبل عديم الفائدة]. يستحيل رؤية هذا الجبل في الليل، حتى وإن قبع قمر كامل أعلاه مباشرة جاذبًا عشرات الشُهب، يظل مون إنيتيل يبدو كبقعة خالية عند قدم السماء. كان ذلك أيضًا لخوف الناس منه.

تقول إحدى القصص التي قرأتها عليهم مدام لويز في الفصل حين كانت كلير أصغر، إن الناس يخافون من الذهاب إلى مون إنيتيل لأنه فيما مضى كان العبيد الهاربون من العمل في قلعة بولين العتيقة يذهبون إلى هناك للاختباء، لكن بعضهم لم يعودوا منه أبدًا. إن عظام أسلافنا، قالت مدام لويز بصوتها

t.me/yasmeenbook

العميق، ما زالت متناثرة على أراضي مون إنيتيل، وأشباحهم ما زالت تسكن أشجاره.

مع ذلك يبدو مون إنيتيل في وضح النهار، بريئًا وحتى مرحبًا بالزائرين. أرضه ممهدة بطبيعية فتبدو أشجاره مصفوفة بعناية بحسب الطول. بينما يبدو فنار الأنثيري قبيحًا في النهار، وأحيانًا، حين تضرب الشمس رأسه، يبدو ككتلة حجارة إسمنتية بارزة لم تُغسَل قط. لكنه في الليل، خاصة في الليالي التي يُفقد فيها أحدهم أو يموت، يُضاء كقمر كبير. ويتألق.

لم تصعد إلى شرفة فنار الأنثيري من قبل قط ، ظنت أنها لو صعدت ذات مرة فسيكون ذلك فقط لإلقاء الوداع على أبيها في حال غرَق في البحر. سيكون ذلك لإضاءة مصباح أو البحث بكشاف ضوء في الليل، على أمل أن تراه وهو في البحر.

قال لها أبوها هذا الصباح: «لو كنت بكّرت دقائق قليلة لكنت مكانه الآن»، ماذا كانت ستفعل في تلك الحال؟ إلى أين ستذهب إن قالت بائعة الأقمشة لا مرة أخرى؟ من الذي سيأخذها لبقية حياتها؟ هناك أقارب في قرية جبلية، أقارب والدتها، يزورونها في أعياد الميلاد أحيانًا ويجلبون معهم بطاطا وفاكهة الخبز لأنهم يعرفون أنها تحبها، وفيما عدا تلك المناسبات لا تراهم أبدًا. سيجيئون مرة أخرى وستذهب معهم إلى الجبال وتضطر لترك مدرستها والطفل أو الطفلين في الفصل اللذين تحدثا معها. لكن هل سترى أباها مجددًا؟ كان يتخلى عنها لبائعة الأقمشة، أول من أرضعتها، كما يحب أن يُذكِّر الجميع. لماذا لم يتركها لها حينها إذن؟ تساءلَتْ. لم تكن لتعرف حياة أخرى. كانت ستدعو المرأة «ماما» وتبكي في طلبها هي حين تمرض. كانت ستعبس في وجهها حين توبخها. ستمسك بيدها هي في الطريق من وإلى المدرسة. كانت ستعدّ ابنتها الميتة أختها، وكانت ستحزن على أخت متوفاة،

مكتبة ياسمين

وليس أمًا. قد لا يكون هناك فارق. لم تكن ستتذكر الكثير عن الأخت أيضًا. لن تعرف سوى الفراغ الكبير الذي تركته، دون القدرة على تحديده. ليس لديها أدنى فكرة عمّا يكون عليه الأمر حين يكون لديك أمًا بدلًا من سلسلة الأفعال الأمومية التي تؤديها أمهات مختلفات: خالتها في الجبال، التي رعتها لأول ثلاث سنوات في حياتها، الجارات، بمن فيهن مدام جوزفين، التي تشير إليها بيديها لتخرج من البحر حين تقضي هناك وقتًا طويلًا. يأخذها أبوها إلى المقابر كثيرًا جدًا لزيارة أمها، لكنها، إن عاد الأمر إليها، إن كان لها هي القرار، سيزوران أمها في البحر، كانت أمها تفضل أن تُدفن في البحر. من الواضح أن أمها كانت تحب البحر. لا بد أن كلًا من أبيها وأمها يحبان البحر لأنهما سمياها باسمها ذاك. ليت أباها يتحدث أكثر. ليته يشاركها تلك القطع من أمها التي كان يستمتع بها. ليت تلك القطع من أمها يمكن وضعها في صندوق لتحتفظ به وتفتحه كل يوم. ستطفو على السطح لحظة، لحظة واحدة مهمة، تتضمن أكثر من مجرد كلمة «تعالي» التي سمعت أباها يخبر بها الناس.

كما يحب أن يقول: «كانت آخر كلمات زوجتي، وكانت لكلير، ومع ذلك، بمرور الزمن أتت كلير وذهبت أمها».

تُشعرها طريقة حكيه لهذا الأمر دائمًا بحضور شخص ما إلى مكان من دون دعوة، كأنها لم يكن لها أن تأتي. أو أن موت أمها خطؤها. أحيانًا أخرى يبدو سعيدًا جدًا بوجودها. أحيانًا تلمحه وهو يراقبها وهي تقوم بفروضها المدرسية. يتظاهر حينها أنه يُصلح شبكة أو يصنع خِلال أسنان من عصا صغيرة وهو جالس على فراشه قبالتها، لكنه يراقبها، كأنه يبحث عن شيء ما، شيء ما لن يجده أبدًا. ربما كان يبحث عن أمها. يقول الجميع، من النساء اللائي يسرّحن لها شعرها وحتى الباعة التي ترفع بضاعتهم وتضعها ثانية،

t.me/yasmeenbook

إنها تشبه أمها. «كقطرتي ماء»، هكذا يقولون. لا بد أنها تسير مثل أمها أيضًا، وحين ستصير امرأة، مدامًا حقيقية، حين يكون لها صوت الكبار، هل سيشبه صوتها صوت أمها أيضًا؟ هل ستظل تربك بحضورها هؤلاء الذين كانوا يعرفون أمها؟ قد يحسبونها أمها، حين يمتلئ جسدها، وينمو صدرها وتصبح امرأة.

الآن سيكون لديها أم، لكن ليس الأم التي تشبهها. كان لديها الأم التي تشبهها للحظة واحدة فقط، لكلمة واحدة فقط «تعالي».

حين تلعب لعبة الدوران، سواء في المدرسة أو على الشاطئ، وتمسك بيدي الفتيات الأخريات، وهن يؤرجحن أذرعهنّ معًا للأعلى والأسفل ليقررن في أي اتجاه سيدرن أو أي أغنية يغنين قبل أن ينطلقن في الدوران، دائمًا ما تفكر في الأغنية نفسها. تقترحها أحيانًا لكنهن يرفضن، فتغنيها هي بينها وبين نفسها، وأيًا كانت الأغنية التي تغنيها الفتيات الأخريات تُغنّي هي تلك الأغنية تحديدًا في رأسها. تغنيها أيضًا وهي تقفز بالحبل، حين لا يغني أحد شيئًا. لأنه تشعر كلما غنتها بأن أحدًا ما آخر معها. كانت حين تلعب مع خمس فتيات أخريات، وإن تحركت أسرع منهن جميعًا، ترى على الأرض سبعة ظلال.

سيرين، أيتها الحوت

سقطت قبعتي في البحر

لم تكن الفتيات الأخريات يفضلن تلك الأغنية لأنها ليست أغنية للعبة الدوران حقًا. كانت أغنية صيادين. وبرغم لحنها المبهج، كانت كلماتها حزينة. المرء لا يسترد الأشياء التي تسقط منه في البحر أبدًا. يُدهشها أن الكبار لا يغنون تلك الأغنية طوال الوقت. فقد سقطت منهم أشياء كثيرة جدًا في

مكتبة ياسمين

البحر. قبعات، قلوب. أشياء كثيرة جدًا سقطت في البحر. وما زالت أشياء كثيرة أخرى ستسقط في البحر، بما في ذلك مسيو كالِب، الذي سقط هذا الصباح، وجميع من هم مثل أبيها الذين يذهبون إلى البحر لصيد الأسماك. تخشى دائمًا أن تضطر لغناء تلك الأغنية كل دقيقة من كل يوم، وليس عن قبعة، بل عن قلبها، عن أبيها. لذلك كانت تتمنى أحيانًا أن يختفي البحر، ستفتقد صوته المتبدّل دومًا: كيف يبدو أحيانا كنَفَس واحد طويل. وأحيانًا كصرخة. ستفتقد دوي الرعد وحين يضيء البرق أبعد نقطة في أفق البحر للحظة واحدة فقط. ستفتقد أيضًا ألوانه: الفيروزي للمياه البعيدة، وتموجاته بدرجات الأزرق كلما اقترب، والزبد الأبيض على قمم الموج. ستفتقد اندفاع المدّ العالي وانسحاب الجزْر، وسُحب الفجر اللبنية أو الوردية وشفق الغروب البرتقالي. ستفتقد قطع الخشب الطافية على سطحه، زجاج البحر، صدف البحر، خاصة الأذن الصغيرة[1] والحوذان. ستفتقد قذف الحجارة فيه لترى إلى أي مدى قد تصل. ستفتقد حتى عشب البحر اللزج الذي يبصقه البحر، بزيادة خلال الأشهر الدافئة من العام. ستفتقد أيضًا رائحته التي تذكّرها أحيانًا برائحة الشعر المبلل. بالطبع، إن اختفى البحر، لن يوجد سمك لتناوله، ولن تستطيع الاستلقاء على ظهرها فيه والنظر إلى الجبال من الماء لترى سحر التناقض في هطول المطر على التلال بينما الجو مشمس تمامًا حيث هي. لكن لو اختفى البحر لن يذهب أبوها إليه، ولن تأخذه الموجات المجنونة كما أخذت مسيو كالِب. توجد بحار أخرى في أماكن أخرى، وإن تركها، قد يذهب إلى تلك البحار. وقد تكون بحارًا أقوى وأكثر جنونًا حتى من البحر أمام باب بيتها. لكنه في تلك الأماكن الأخرى، قد يحظى بقارب أكبر، قارب كبير بما يكفي ليعيشا معًا فيه، وقد يمكنها الذهاب معه أينما

(1) نوع من أنواع حلزونات البحر المفترسة. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

ذهب ويعيشا معًا حيث لا يمكن للموجات المجنونة الوصول إليهما. وربما لو ظلت تغني تلك الأغنية ستمنع حدوث أشياء سيئة وتمنع رحيل أبيها، وحينها لن يموت في البحر. لكنها في تلك الأوقات، حين تستلقي على ظهرها في البحر، ووجهها إلى السماء، وهو في بقعة أخرى من البحر ذاته، في مكان ما حيث لا يمكنها أن ترى قاربه، كانت تتمنى، في حال اختفى البحر في تلك اللحظة، أن تختفي هي أيضًا معه، بذلك لن تفتقد أباها، ولن يحزن هو، ولن تظل تتساءل طوال الوقت أين ذهب للبحث عن حياة أفضل. لكن ماذا لو لم يكن هناك حياة أفضل؟ كيف لا يعرف هذا؟ كيف لا يفهم الكبار تلك الأمور؟ كيف لا يفهمون كل شيء؟

استطاعت الليلة بطريقة ما إقناع الفتيات الأخريات بغناء أغنية سيرين في لعبة الدوران. إنه عيد ميلادها، فقد صارت في السابعة، هكذا أخبرتهنّ، فتركتها الفتاة الأكبر سنًا في المجموعة تختار الأغنية. زمجرن جميعًا حين أخبرتهنّ باختيارها، لكنهنّ كنّ يعرفن وكنّ مستعدات، وفيما يتجمع الكبار للحداد على مسيو كالِب، ظلت هي وصديقاتها يغنين تلك الأغنية ويدرن حتى بحّت أصواتهنّ وشعرن بالدوخة. ومع أنها أرادت التوقف بعد فترة، لكنها لم ترغب في أن يتوقفن عن غناء تلك الأغنية وتغييرها، لذلك جاهدت لتواصل. كانت أفضل هدية عيد ميلاد يمكنهنّ تقديمها لها.

حين جاءت مدام جايلي، عرفت كلير بطريقة ما أن اللعب انتهى. وبالطبع، توقفت الفتيات عن الدوران ما إن رأينها، وانتهزن الفرصة للفرار من كلير ومن أغنيتها.

عرفت من وجه مدام جايلي أنها تنوي شيئًا ما. أنها تريد منها شيئًا ما. والشيء الوحيد لديها الذي قد تريده مدام جايلي هو نفسها. هذا ما يريده أبوها أيضًا، أن تأخذها مدام جايلي. في البدء شعرت بالرعب من اقترابها،

مكتبة ياسمين

من طريقتها في السير نحوها بحرص. من غير المألوف أيضًا لسيدة مثل مدام جايلي أن تخرج بثوب سهرة وبكرات الشعر ونعلين في قدميها. كأنها في مهمة طارئة. بدا لها لأول وهلة أنها تزحف نحوها، ثم حلّقت فوقها، كأنها تستجمع شجاعتها لطرح سؤالٍ بسيطٍ يسأله الكبار كثيرًا، «هل أبوكِ هنا؟»

اضطرت للنظر في عيني مدام جايلي وهي تُجيبها، مع أنها لم ترغب في ذلك. لكنها، بسبب صوت الموج وكل هؤلاء الذين يزورون مدام جوزفين، وانخفاض صوتها بشكل طبيعي حين تشعر بالخجل، تعرف أن مدام جايلي لن تفهمها ما لم تنظر في عينيها مباشرة.

تمنت لو تشرح لمدام جايلي قبل أن تجيبها أن نظرها إليها في عينيها ليس لوقاحةٍ منها. تعرف كلير أن النظر في عيني الكبار يعدّ وقاحة مثل الصفير في مكان عام أو السخرية من والدة أحدهم. لكنها أومأت فقط دون أن تقول شيئًا.

سارت مدام جايلي بعيدًا، إلى صخرة كبيرة، ثم أشارتْ إليها أن تأتي وتجلس على صخرة أخرى، بجوارها. نظرت كلير إلى ما وراء مدام جايلي تتمنى أن يراهما أبوها من حيث كان. لم ترَه منذ وقت، لكنه حين يراها هي ومدام جايلي معًا سيأتي ركضًا بلا شك.

كانت قد خبأت صندلها قبل أن تبدأ لعبة الدوران خلف الصخرة التي جلست عليها مدام جايلي. ربما يعد هذا علامة ما. ربما اختار صندلها مدام جايلي. بالطبع سيعدّ أبوها هذا علامة إن أخبرته أن مدام جايلي جلست على الصخرة التي خبأت خلفها صندلها. ربما عليها أن تقول شيئًا ما الآن. لكنها لا تعرف ماذا تقول ويبدو أن مدام جايلي كذلك هي الأخرى، لأنها لم تتحدث منذ وقت طويل، لكن كلير شعرت بها تراقبها كما يراقبها أبوها. تمهّلت في ارتداء صندلها لا تعرف كيف تُوقِف مدام جايلي عن التحديق فيها

t.me/yasmeenbook

دون كلام. ثم سمعتها تقول: «كنت أعرف أمك».

بالطبع كانت تعرف أمها. يبدو أن جميع من في البلدة كانوا يعرفون أمها. الجميع ما عداها هي. تعرف هذا كما تعرف كل شيء آخر، بسماع مقتطفات من حوارات الكبار حين لا يظنون أنها تسمعهم. إلى جانب ذلك، كانت أمها وابنة مدام جايلي المتوفاة مدفونتين معًا في مكان واحد في مدافن البلدة حيث ذهبت هذا الصباح.

لكن مهلًا، أستخبرها مدام جايلي بشيء ما عن أمها لم تسمعه من قبل؟ بذاك الشيء الذي تمنت دائمًا أن يُخبرها به أبوها؟ أتحتفظ مدام جايلي بقطعة من أمها، قطعة لا مرئية، في صندوق لا مرئي، ستفتحه لها الآن؟ أكانت مدام جايلي وأمها صديقتين؟ ألهذا أرضعتها مدام جايلي تلك المرة الوحيدة، لتصير بذلك، كما يحب أبوها أن يقول، أمها بالرضاعة؟ أرادتْ أن تسمع المزيد. ماذا تفعل لتسمع المزيد. رفعت عينيها ونظرت في عيني مدام جايلي مباشرة. الأمر ليس وقاحة إن كان ضروريًا، إن كنت تريد شيئًا ما وليس بوسعك طلبه. ليس وقاحة، بل فضولًا. مثل مدام جوزفين التي لا يُمكنها الكلام، فتنظر في عيون الجميع، حتى الأطباء البيض في مستشفى سانت تيريزا، حين كانوا يحاولون التحدث معها عن قدمها. لكن البيض لا يهمهم إن نظرت في أعينهم، هذا ما يقوله كل من تعامل معهم في المستشفى. بل يحبون ذلك حقًا. يزعمون أنهم بهذا يتأكدون من أمانتك. لذلك تنظر الآن في عيني مدام جايلي القاسيتين الحزينتين وتتظاهر أنها، مدام جايلي، أحد هؤلاء البيض الذين لا يهمهم إن نظرت في أعينهم، حتى مع فيض الكلمات الذي تدفق من فمها.

«خاطت لكِ أمك أشياء كثيرة»، كانت مدام جايلي تقول، إنما بغمغمة، كأنها تحدّث نفسها. «خاطت لكِ أثوابًا صغيرة حتى قبل أن تلدك». ثم قالت شيئًا ما عن الرب. لا، ليس الرب، بل يدي الرب. قالت إن أمها انتزعتها

مكتبة ياسمين

من بين يدي الرب. «ثم وُلدتِ»، قالتْ بصوت واضح الآن. وبخصوص الروح الانتقامية، قالت مدام جايلي إنها لا تؤمن بهذا. لكنها تؤمن بأعياد الميلاد، وتمنت لكلير عيد ميلاد سعيد.

أرادتها كلير أن تظل تتحدث عن أمها. لكنها سكتت. ثم ابتسمت. أسنانها بيضاء وطويلة ومستوية. ثم، وكأنها تعلن عن شيئا ما لنفسها هي، قالت مدام جايلي: «كانت أمك صديقتي».

أخبريني بالمزيد، أرادتْ كلير أن تقول. أرجوكِ أخبريني بالمزيد. افتحي ذاك الصندوق اللامرئي للأم اللامرئية ودعيني ألقي نظرة على ما بداخله. لكن مدام جايلي لم تقل شيئًا. اختفت ابتسامتها وعبست كأنها تذكرت أمرًا محيرًا، ثم عقدت حاجبيها كأنّ ما تذكرته ليس معقولًا ولا مفهومًا. تخيلت كلير أن تلك النظرة نفسها على وجهها هي أيضًا، لأنها هي أيضًا تحاول فهم ما بداخل مدام جايلي. ربما تتذكر ابنتها. ثم عادت مدام جايلي تبتسم مجددًا، كأنها قد حسمت أمرها في شيء ما، فكرت كلير أنها تبتسم لها بقصد طمأنتها، وأن أباها ربما يراقبهما من مكان ما، لأنه في تلك اللحظة برز فجأة من الظلال وكان يقف أعلاهما، ملقيًا بظلّه على جسد مدام جايلي.

كان قد شرب قليلًا مع أصدقائه الصيادين حول النار. لم يكن الشرب عادته ولم يكن يشرب كثيرًا أبدًا، وكان يحزن بشدة حين يشرب. تعرف كلير أن أغلب الكبار يشعرون بسعادة حين يشربون الكلِرين. يضحكون ويرقصون مع أنفسهم ويلقون النكات. لكن أباها حين يشرب يصير هادئًا، وحزينًا أيضًا، حزينًا بقدر ما يكون وهو يقف بجوار قبر أمها.

بدا أن ساقيه لا تحملانه، تعب من الوقوف مطلًا عليهما هي ومدام جايلي، فجلس على الرمال بينهما. بدا أنه ومدام جايلي ينتظر كل منهما أن يتحدث الآخر أولًا، لذلك عادت كلير لربط صندلها وإخراج الرمل من بين

t.me/yasmeenbook

أصابع قدميها. نظر أبوها إلى الفنار والتلال، فقالت مدام جايلي: «سآخذها، الليلة».

أيُعقل أن يكون الأمر بهذه البساطة؟ أن تكون اليوم ابنة أبيها وفي اليوم التالي ابنة مدام جايلي؟ أيعني هذا أن أباها سيرحل بعيدًا حقًا بحثًا عن حياة أفضل ولن تراه مرة أخرى أبدًا؟ أسيعود يومًا ما، مثل أقاربها في الجبال جالبًا لها البطاطا وفاكهة الخبز في أعياد الميلاد؟

بدا مندهشًا لسماعه أن مدام جايلي تريد أن تأخذها الليلة تحديدًا. ربما هذا ما تشعر به حين يتحقق شيء ظلّت دائمًا تتمناه وتظنه لن يتحقق أبدًا. ربما سيظل أبوها مندهشًا هكذا حين يرحل إلى مكان آخر، فقط ليكتشف أن الحياة الأفضل، التي قضى وقتًا طويلًا جدًا في البحث عنها، ليست حياة على الإطلاق دونها.

كافحت كلير لكبح دموعها، احتفظتْ بذراعيها إلى جانبيها ما أمكنها لئلا يراها أبوها ومدام جايلي تمسح تلك الدموع، التي سالت على خدها رغم كل شيء.

سأل أبوها: «لماذا الآن؟» لكن لماذا ليس الآن، إن كان قد خطط للتخلي عنها في جميع الأحوال؟

قالت مدام جايلي: «إما الآن وإلا فلن يحدث أبدًا».

وتساءلت كلير عن معنى هذا. أهذه هي آخر مرة يجتمع فيها ثلاثتهم معًا؟

نظرتْ كلير إلى ما وراء مدام جايلي وأبيها، إلى الحشد الذي مازال متجمعًا حول مدام جوزفين. أغلبهم كانوا يعرفون مسيو كالِب، تمامًا كما كانوا يعرفون أمها.

مكتبة ياسمين

تساءلتْ أكانت أمها ستفعل ما يفعله أبوها، أكانت ستتركها على هذا النحو، لشخص آخر. تعرف عن آباء وأمهات، من أسر الصيادين، تخلوا عن أطفالهم، فتيات وصبية، إلى الأبد. أخذوهم إلى أقارب بعيدين في العاصمة، للعمل لديهم، خادمات أو عمال منازل. أخذ آخرون أطفالهم إلى الناس البِيض في مستشفى سانت تيريزا، ليضع البيضُ الأطفالَ في دور أيتام. انتقل بعض هؤلاء الأطفال إلى العاصمة أو أماكن أخرى غيرها ولم يرَهم أو يسمع منهم أحد مرة أخرى أبدًا. صاروا أطفال أناس آخرين في أراضٍ أخرى ما كانوا ليعرفوا شيئًا عن وجودها.

على الأقل ستمكث هي هنا، وإن لم يرحل أبوها، إن تخلّى عن بحثه عن حياة أفضل في مكان آخر ومكث في فيل روز، قد يمكنها زيارته من حين إلى آخر. وسيمكنه هو الآخر زيارتها، لأنه ببقائها مع مدام جايلي، لن يكون مضطرًا للعمل بأقصى جهده. ولن يقلق بشأنها كثيرًا كعادته.

«كلير لايميه لانميه فوستين». كان أبوها يحاول لفت انتباهها. لكنه ليس مضطرًا لمناداتها باسمها كاملًا، لأنها بالفعل تنتظر أن تسمع منه أي كلمة، كل كلمة. لكنها لا ترغب في النظر إليه. لا تريد أن تراه حزينًا. لا تريد أن تَزيد حزنه. ظنت أنها تسمع الدموع في صوته وهو يسأل مدام جايلي: «أنتِ لن تغيري اسمها؟»

لذلك نطق اسمها بالكامل إذًا. أراد أن يذكّر مدام جايلي به. كلير لايميه لانميه فوستين. سيظل هذا اسمها دائمًا.

وماذا غير ذلك، تساءلت كلير، ماذا أيضًا سيطلب من مدام جايلي أن تغيره أو لا تغيره بشأنها؟ قد لا تنام في بيت أبيها مرة أخرى أبدًا. أسيزوران المقابر معًا يوم عيد ميلادها ثانيةً حتى؟

t.me/yasmeenbook

يتحدث أبوها الآن عن خطاب ما سيعطيه لمدام جايلي. ربما يوضِّح الخطاب شيئًا ما لا يمكنه هو شرحه. ربما سيجعلها تفهم كل شيء. لكن لا توجد كلمات يُمكنها هذا أبدًا. إنها تعرف هذا لأنها حتى وإن كان سيمكنها، مثل مسيو كالِب، كتابة أروع الخطابات، لن يمكنها أبدًا كتابة خطاب يوضّح شعورها في تلك اللحظة. حينها رفعت كلير يدها. فكرت أنها لو تظاهرت بأنها في المدرسة، ترفع أصبعها السبابة لأعلى للفت الانتباه إليها، بهذه الطريقة، لن تضطر للنظر إلى أيٍ منهما.

سيدركان أيضًا أنها ستظل دائما فتاة جيدة، لن تعاندهما أو تعصي لهما أمرًا، ستفعل دائمًا ما يُمليانه عليها. لكنها، حتى وإن كانت ستذهب مع مدام جايلي، فهي تريد أشياءها. أرادت دفاترها وكتبها المدرسية وزييها المدرسيين، وحتى وإن كان لدى مدام جايلي فراشٌ وثيرٌ في بيتها، لكنها تريد بطانيتها على الأقل، البطانية التي يقول أبوها إنها كانت لأمها. وهكذا أطرقت رأسها ورفعت يدها وأخبرتهما أنها تريد أشياءها. «أشيائي».

نظر والدها نحو الكوخ دون أن يقول شيئًا وأشار إليه بسبابته مبديًا موافقته على أن تذهب وتأتي بأشيائها.

أرادت أن تسير أطول وقت ممكن بين الزحام، لأن هذه المرة بالتأكيد هي آخر مرة تسير فيها إلى الكوخ وهو ما زال بيتها، لكنها شعرت أن كلًا من أبيها ومدام جايلي في عجلة من أمرهما وأنهما يريدان الانتهاء من الأمر، لذلك سارت بسرعة، فتحت الباب ونظرت في الكوخ من الداخل، كان الظلام شديدًا مثلما يكون حين تستيقظ في منتصف الليل لتذهب إلى الحمام وتخاف بشدة من النهوض وحتى لاستخدام مبولة الغرفة. لم يكن خوفها من الظلام الذي منعها من دخول الكوخ، إذ كانت ظلمة الكوخ مألوفة لديها بالفعل، تعرف طريقها عبرها.

مكتبة ياسمين

بل كان ما منعها من دخول الكوخ شعورها بأنها طُردت من هنا، كأنه لم يعد بيتها. عادت تنظر إلى حيث يجلس والدها ومدام جايلي فوجدتهما لا يراقبانها، ينظر كل منهما الآن في اتجاه مختلف من الشاطئ، ليتفادى النظر إلى الآخر، فانتهزتْ تلك اللحظة التي تعرف أنها في ذهن كل منهما، وإنما بطريقة مختلفة، وأغلقت باب الكوخ وركضتْ.

ركضت في الزقاق المتعرّج بين الأكواخ، إلى نخيل جوز الهند البحري على مشارف الدرب المؤدي إلى الفنار. داستْ بصندلها على أزهار اليَلانج[1] التي تميز تحوّل كثبان الرمل في الدرب إلى حصى التل ثم إلى صخور جبلية. ارتاحت حين انعطف الدرب أخيرًا ومالَ صاعدًا نحو فنار الأنثيري.

لمعظم بيوت تل الأنثيري أسوار إسمنتية عالية تعلوها كسرات زجاج، وصدف المحار، وفروع شجر الجهنمية. تعرف كلير أن شجرة الجهنمية تنمو بسهولة وسرعة شديدتين يجعلانها تجتاز الأسوار وتمد بظلالها إلى الخارج على نحو غير مقصود. تعرّجت المسارات المظللة وغير المظللة صعودًا نحو الفنار ومون إنيتيل.

كلما صعدت زاد الهواء وازدادت النجوم تألقًا. بدا القمر أضخم، فضيًّا أكثر منه أبيض. صار الهواء أكثر برودة وخفت صوت الموج لكنه لم يذهب تمامًا. لا تسمع الآن سوى الأصوات الآتية من الفنار ومن الممرات بين البيوت. محادثات مكتومة تقطعها ضحكات أشخاص يبدو أنهم يدغدغون بعضهم البعض.

سمعت نباح كلب. يتبعه صدى نباح كلب آخر، ثم آخر، ثم بدأت جوقة كلاب، يبدو أنها ضخمة الحجم، في النباح معًا. دائمًا ما يعني نباح الكلاب

---

(1) اليلانج نبات مهدّئ وعطري له أزهار كبيرة خضراء وصفراء. (المترجمة).

t.me/yasmeenbook

- خاصة الضخمة والتي يبدو من صوتها أنها سمينة - أنك غير مرحب بك. ثم سمعت حراس الأفنية يُسكتون الكلاب، يخاطبونهم كأنهم أشخاص ويهدّئونهم. توجهت نحو البيوت الخالية المظلمة على حافة التل لتضمن ألا يراها أحد، البيوت الأحدث والأكبر التي لا يسكنها أصحابها سوى عدة أسابيع كل عام.

توقفتْ لالتقاط أنفاسها، استندت على السور الأخير قبل أن ينتهي التل فجأة بجرف منحدر. شعرت بالجدار باردًا وأملس تحت ذراعها، كأنه داخل منزل. من أعلى هنا، المنظر مفتوح تمامًا، يمكنها رؤية جزء من الشاطئ. لم تستطِع رؤية كوخها أو النخيل خلفه لكنها تستطيع، وإن كانت عيناها مغمضتين، أن تشير نحوه، بجوار البنجالو الذي يعيش فيه مسيو ساليفان مع زوجته وأبنائه وأحفاده الاثني عشر. كان مسيو ساليفان، في الأوقات التي لا يذهب فيها إلى البحر، يبيع بين تيتي، خُبزًا على شكل صدر، يخبزه هو وذُرّيته في فرن من الطين يظل متقدًا حتى الآن.

لم تستطِع رؤية والدها ولا مدام جايلي، لكنها عرفت مكان مسيو زافير، الحدّاد وصانع القوارب، لأن الشرر المنطلق من أدواته يبدو من أعلى التل كألعاب نارية ضئيلة. رأت مدام ويلدا التي تغزل شباكها على مقعد واطئ خلف منزلها على ضوء الشموع. رأت أيضا كوخ مسيو كالب، لأن الفتاة التي تمكث مع مدام جوزفين كانت تطهو شيئًا، رأتها على ضوء نيران الطهيّ واللمبة المعلقة أعلى عامود في المطبخ الخارجي. رأت أيضًا الملابس البيضاء التي تشبه الظلال الشبحية لمدام جوزفين وأصدقائها من الكنيسة. بدا هؤلاء الأشخاص المألوفون لديها، والنار التي تُمكّنها من رؤيتهم، كنقاط ضوء الآن، كفنارات تهديها للعودة إلى بيتها.

لكن لا، إنها لا تفكر في العودة.

مكتبة ياسمين

فجأة ازداد الضوء. بدأ أشخاص آخرون يصعدون بمصابيح. ثم صاح أحدهم ينادي باسمها (أكان أبوها؟ أكان ذلك صوته؟). ثم أخذ آخرون كثيرون يصيحون باسمها.

كانوا كثيرين جدًا، وتقدمت أصواتهم جميعًا وهم يصعدون التل نحوها.

سمعت الرجال على شرفة الفنار يصيحون باسمها أيضًا.

كادت أن تجيبهم.

أهذه أغنية؟ أيمكن أن يصبح اسمها، والعشرات يرددونه، أغنية؟

أيمكن أن يصبح أغنية ترددها في لعبة الدوران القادمة؟

لدورة واحدة.

كانوا يبحثون عنها

مثل حصاة في صحن الأرز

كانوا يبحثون عنها

لكن لا، هي لا تريدهم أن يعثروا عليها.

واصلتْ صعودها التل حتى وصلت إلى فسحة خالية من أرض مستوية خلف أحد قصور تل الأنثيري الخالية. بدا أن الأرض قد سوّتها النيران منذ وقت قصير. ما زالت الأرض دافئة تحت صندلها.

يقول أبوها : إن مون إنيتيل لن يعود إلى الجبل عديم الفائدة لأن الأثرياء اكتشفوا أن بإمكانهم حرقه، وتسويته، وبناء قصورهم عليه. سرعان ما سيدعونه مون بالاس، أو جبل القصور.

لم تعد ترى الشاطئ، بذلك لن يمكنهم رؤيتها أيضًا. وقفت لوقت

t.me/yasmeenbook

طويل، وحيدة، وسط الحقل المحترق حديثًا. يُردد اسمها من الفنار رجلان أو ثلاثة يمكنها التعرف عليهم من أصواتهم إن فكّرت في الأمر طويلا بما يكفي، لكنها لم تعد حتى ترغب في إجابتهم.

ربما سيظنون أنها غرقت في البحر مثل مسيو كالب. سيقلق أبوها بشدة لهذا الخاطر، لكنه سيخفي قلقه مع ذلك. لن يُظهره لأصدقائه وجيرانه. ولا لمدام جايلي. لكنه لم يعد عليه أن يقلق الآن. ستتركه. ستذهب بعيدًا وحدها. ستذهب إلى حيث لن يفكر في الذهاب والعثور عليها. كالعبيد الهاربين في قصص مدام لويز، ستختبئ لبقية حياتها في جبل مون إنيتيل.

ستغدو الفتاة الواقفة عند قدم السماء. ستجد في باطن مون إنيتيل كهفًا يمكنها العيش فيه. ستنام ليلًا على فراش من نباتات السرخس وتستمع إلى صئيل الخفافيش ونعيق البوم. ستحفر حفرة لجمع ماء المطر للشرب والاستحمام. وستحاول ألا تُزعج أرواح الهاربين الذين لاذوا بالجبل من قبلها. تمنت ألا توجد ثعابين لأنها تخاف منها، مع ذلك يمكنها التعايش معها إن اضطرّت.

لكنها لن تقضي وقتها كله في الكهف؛ ستخرج يوميًا لتراقب الشاطئ. ستراقب خروج الصيادين عند طلوع الصبح لرمي شِباكهم، ثم عودتهم في منتصف النهار أو في وقت متأخر من الظهيرة. حين سينظر أبوها لأعلى من البحر إلى مون إنيتيل، سيكون بذلك ينظر إليها دون أن يدرك. سيكون حزينًا، لكن ربما لن يترك الشاطئ ولا فيل روز. ربما سيبقى، كما فعل حين كانت تعيش مع أقارب أمها. ربما سيبقى قريبًا، منتظرًا، يتمنى عودتها يومًا ما.

سَمِعت بعض زوجات الصيادين يقلن إن أرواح من غرقوا في البحر تأتي أحيانًا إلى الشاطئ لتهمس في آذان أحبائهم. ستحرص على أن يشعر

مكتبة ياسمين

بحضورها أيضًا. ستتسلل إلى أسفل بعد حلول الظلام لجمع ثمرات جوز الهند الساقطة والتقاط سمكة مملحة متروكة لتجف بالخارج، وحينها ستمر بأبيها لتهمس في أذنه بكلمات قليلة وهو نائم. بهذه الطريقة ستظل دائمًا في أحلامه. ستبتعد دون أن ترحل حقًا، دون أن تخسر شيئًا، دون أن تموت.

وقفت وسط الحقل المحروق لوقت طويل، تتخيل تلك الحياة كهاربة. تنتظر سكوت الأصوات الآتية من الفنار تمامًا، وحين لم تعد تسمع شيئًا منها، سارت حول حوض الزهور البرية المحيط بالفنار وعادت تهبط تل الأنثيري إلى ربوة منخفضة تمكّنها من رؤية الشاطئ مجددًا.

كانت تأمل أن ترى أباها، أن تلمحه مرة أخيرة قبل أن تصعد التل مجددًا في انسحابها الأخير إلى مون إنيتيل. ثم لن تندم بعد ذلك.

ترى من على الربوة المنخفضة الآن اختفاء المصابيح وحامليها معًا. خمدت النار التي أشعلوها في الهواء الطلق. لا أضواء الآن، ما عدا القمر والنجوم وفرن مسيو ساليفان الطيني وأدوات حدادة مسيو زافير وشموع وشبكة مدام ويلدا ومصباح مطبخ مدام جوزفين الخارجي. يبدو أن الجميع قد ذهبوا إلى بيوتهم. أو إلى ظلامهم الخاص.

ربما لن يفتقدوها رغم كل شيء.

هبّت دفقة هواء دافئة، بدا أنها ارتفعت من البحر لتوها. ذكرتها بشعور يراودها أحيانًا، الشعور بحضور شخص ما معها: كما حين يتحرك فرع شجرة وحيد بينما الأفرع الأخرى ساكنة، أو حين تسمع صوت خطوات لا مرئية على الأرض، أو ترى ظلًا زائدًا يدور معها وهي في لعبة الدوران. تشعر أحيانًا بالتربيت الرقيق لأصابع تمر أعلى وأسفل ظهرها ثم تتلكأ برفق شديد عند منبت عنقها. لا يمكنها دائمًا تحديد اللحظات التي تبدأ فيها هذه الأشياء، ثم تتوقف، لذلك تدعوها أحلام اليقظة.

t.me/yasmeenbook

تأتيها تلك الأحلام منذ أن بدأت تعي. حينها تبدأ فورًا في البحث عن علامات على وجود شيء ما أو شخص ما بالفعل. تنظر في الأرض بحثًا عن آثار خطوات، بتلات زهور، ريشة لامعة من أجنحة ملاك. وكالعادة، لا تجد شيئًا.

لكنها حينذاك، وهي تنظر للأسفل من أعلى الربوة، رأت مدام جايلي تركض حاملة في يدها مصباح وثوبها الفضي اللامع يبرق في ضوء القمر. رأت أباها عند حافة الماء حين سقط عليه ضوء المصباح وبريق الثوب الساتان، وحين رأت آخرين يقتربون منهما بمصابيحهم، يشكلون دائرة كأنهم شمسًا، شعرت بشيء مختلف.

وسط دائرة المصابيح التي صار نصفها في الماء الآن، رأتهم يسحبون من البحر رجلًا يرتدي قميصًا أحمر. انتفض جسد الرجل كسمكة ميتة. وقفت مدام جايلي، وأبوها أمامه.

مدّ الرجل يديه لأعلى، يمسك بساقي كل من أبيها ومدام جايلي ويكاد أن يُسقطهما هما الاثنان أرضًا عليه. تراجع أبوها إلى الخلف مستعيدًا توازنه. ركعتْ مدام جايلي على ركبتيها على الرمال قريبًا من الرجل. من كان؟ تساءلت. أيمكن أن يكون مسيو كالب الذي أخذه البحر هذا الصباح؟ لا. لقد مات، وسهروا عليه، وكان ذاك الرجل أعرض كثيرًا من أصدقاء أبيها.

سمعتهم من بعيد يرددون اسم ناظر مدرستها: «آردين! آردين!» كأنهم يحاولون إيقاظ الغريق.

بدأت تركض هابطة التل، مارة بأشجار الجكراندة إلى ممر الحصى، ثم إلى أشجار اليلانج. توقفت عند منحدر تكسوه أشجار الكركديه لتنظر إلى أسفل مجددًا. رأت أباها وعدة رجال آخرين ينحنون وينضمون لمدام جايلي على الرمال. أمسكوا الرجل من خصره ومدّدوه على ظهره. ثم رأت مدام

مكتبة ياسمين

جايلي تقترب بوجهها وتضع فمها على فم الرجل كأنها تقبله.

أدار أبوها ظهره لينظر إلى الأكواخ من على الشاطئ. كان يحرك ذراعيه بعصبية كأنه يطلب المزيد من المصابيح، من الناس، من النجدة. أو ربما يشعر بالضعف فحسب، أو كما تشعر هي الآن، بالخوف.

بدأ المزيد من الأشخاص يتوافدون بالمزيد من المصابيح. صاروا كثيرين جدًا الآن لحد أنهم حجبوا عنها الرؤية فلم تعد ترى الرجل ذا القميص الأحمر، ولا مدام جايلي، ولا أباها. واصلتْ هبوطها التل، ركضت بسرعة شديدة فانزلقت على بعض الحصى الناعم وسقطتْ أرضًا. عادت تنهض بسرعة، وتركض مجددًا، تاركة صندلها خلفها.

ظلت تركض وتركض، للأسفل نحو نخيل جوز الهند البحري خلف بيتها.

كان عليها أن تعود...

فكرت أن هذه أيضًا قد تكون أغنية جيدة للدوران.

كان عليها العودة إلى البيت

لترى الرجل

الذي زحف نصف ميتًا

خارجًا من البحر

كان عليها العودة لترى أباها ومدام جايلي، اللذينِ كاد حُزنهما أن يُغرقهما. كان عليها العودة إلى البحر لتراهما كان الاثنان يتناوبان على التنفس في فم الرجل، يحاولان إعادته إلى الحياة. كان عليها، قبل أن تصير ابنة مدام جايلي، أن تعود إلى البيت، لمرة واحدة أخيرة.

t.me/yasmeenbook

شكر وتوطئة

أدين بالشكر لمؤسسة (جون دي. وكاثرين تي. ماكارثر) لمنحتِها التي مكّنتني من التفرغ للعمل على هذا الكتاب وأشياء أخرى كثيرة. الشكر أيضًا لعائلتي في ليوجان، مَن رحل منها ومَن ظل هناك، لتعريفي، وإعادة تعريفي بالبحر.

شكرًا لميسي وفيدو لأشياء قد يستغرق حصرها عمر بكامله.

أدين بالكثير أيضًا لنيكول آراجي وروبين ديسير لحبهما ورعايتهما لأكثر من عقدين الآن. شكرا جينيفر كورديلا لوقتك وصبرك.

المقتطف من قصيدة الشمس والضفادع من كتاب أساطير لافونتين (المجلد 6)، متاح في طبعات متنوعة. ترجمتُها إلى الإنجليزية.

مكتبة ياسمين

إدويج دانتكتا، مؤلفة عدد من الأعمال من بينها (أخي، أنا أحتضر)، الحائز على جائزة دائرة النقاد الوطنية وترشح لجائزة الكتاب الوطني؛ والنَفس، العين، الذاكرة، من قائمة اختيارات نادي كتاب أوبرا؛ وكريك! كراك! المرشح لجائزة الكتاب الوطنية؛ وزراعة العظام، الحائز على جائزة الكتاب الأمريكي؛ وكاسر الندى المرشح لجائزة القلم/ فوجنر والحائز على جائزة القصة الافتتاحية. تتلقى منحة تفرغ من مؤسسة ماكارثر وتنشر أعمالها في النيويوركر، والنيويورك تايمز، وإصدارات أخرى. تعيش في ميامي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

المحتويات

الجزء الأول 9

كلير نور البحر 11

الضفادع 44

الأشباح 63

الدِيار 81

الجزء الثاني 113

نجمة البحر 115

الذكرى السنوية 133

أخبرني 152

كلير تحكي 191

شكر وتوطئة 213

مكتبة ياسمين